# الأخلاق

## من منظور التعايش والقيم الإنسانية

تأليف
محمد تقي الفلسفي

ترجمة
جعفر صادق الخليلي

المجلد الأول

مؤسسة البعثة
بيروت

# الأخلاق

من منظور التعايش والقيم الإنسانية

هذه مجموعة من المقالات للعلّامة الفلسفي، الخطيب الشهير، كان قد ألقى بعضها في محاضرات، ثم أعاد النظر فيها شرحاً وتوضيحاً وتنقيحاً، وأعدَّها للنشر.

# الأخلاق

## من منظور التعايش والقيم الإنسانية

المجلد الأول

تأليف

الأستاذ محمد تقي فلسفي

ترجمة

جعفر صادق الخليلي

مؤسسة البعثة
بيروت

شبكة الفكر
alfeker.net

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - بناية غاردن بالاس - ص.ب: ٢٤/٨

بسم الله الرحمن الرحيم

# الفصل الأول

*«أَلْـزَمُ ٱلْعِلْمِ لَكَ مَا دَلَّـكَ عَلَى صَلَاحِ قَلْبِـكَ وَأَظْهَرَ لَكَ فَسَادَهُ»*

*الإمام موسى بن جعفر(ع)*

## العلماء وآراؤهم في الأخلاق

بحث الأخلاق من الأبحاث العلميّة الفلسفيّة المهمة، وقد كان موضع دراسة العلماء منذ قرون كثيرة وما يزال كذلك حتى الآن، تناولوا فيها مواضيع مثل: تعريف الأخـلاق، ومعرفة الأخلاق الحسنة والسيئة، ودور الفضائل والرذائل الأخلاقية في حياة الإنسان. لقد بُحثت هذه المواضيع وغيرها بحثاً مستفيضاً، وأُلِّفت فيها الكتب، وبرز فيها الكثير من النظريات المختلفة.

قال أكثـر الفـلاسفة والعلماء القدماء والمحدِّثين بأن الأخلاق الفاضلة من الأركان الرئيسة في بناء السعادة، وبأنها قاعدة للرفعة وللتكامل المادي والمعنوي.

يرى هؤلاء أن الصفات والأخلاق الحميدة من عوامل الشعور بالمسؤولية ومن معايير الحياة الإنسانية، وأن المجتمعات البشرية تستطيع، بفضل الأخلاق، أن توطّد روابط الصداقة فيما بينها، وأن تنعم بالعلاقات الاجتماعية الحسنة، وأن تعيش في رفاه وراحة، وأن تحقق الأماني والمكاسب التي تليق بمقام الإنسان.

## رأي سقراط

«لقد عُني سقراط، أكثر ما عني، بالأخلاق. وفيها يقول: يبحث الإنسان عن المتعة والسعادة، ولا همَّ له إلّا هذا. ولكن المتعة لا تتأتّى باستيفاء اللذّات والشهـوات، بل هي أيسر منالاً بكبح أهواء النفس، إذ إن سعادة الأفراد تتحقق ضمن تحقق سعادة المجتمع. ولذا فإن سعادة الفرد هي في قيامه بأداء واجبه نحو الآخرين»[١].

## رأي أرسطو

«يقـول (أرسـطو): للإنسـان في عمله غاية، وللغـايات التي يرمي إليها الإنسان درجات ومراتب. إلّا أن غاية الغايات والمطلوب المطلق لا شك هو السعادة. ولكن الناس يرون السعادة في أُمور مختلفة، فبعض يراها في اللذّة، وبعض يراها في الثروة، وآخرون يرونها في الجاه. ولكننا لو تعمّقنا في نظرتنا لما وجدنا أحداً يبلغ غايته، إلّا إذا أدّى الواجب المُلقى على عاتقه على أحسن وجه، إذ إن القيام بالواجب بأفضل ما يمكن هو الفضيلة لكل كائن. إذن، لا يبلغ الإنسان مطلوبه من السعادة إلّا بالفضيلة»[٢].

## رأي ديكارت

«يقـول (ديكارت): على الرغم من أن كل فرد منّا منفصل عن الفرد الآخر، فإنّنا لسنا قادرين على العيش منفردين، لذلك كان لا بدَّ لنا من أن نعتبر مصالحنا تابعة للمصالح الحقيقية للمجتمع الذي نعيش بين ظهرانيه. فإذا أحسَّ الفرد بأن مصلحة الكلّ مقدّمة على مصلحة الجزء، برزت فيه المكارم السامية، بحيث إنّه قد يخاطر بحياته في سبيل الآخرين. وعلى كل حال، يجب

---

(١) سير الحكمة في أوربا ١: ١٥.

(٢) (ن.م): ٣٣.

أن يكون عمل الإنسان على وفق العقل دائماً. فإذا حصل هذا، فلا شكّ في تحقق السعادة والسرور اللّذين هما هدف علم الأخلاق»[٣].

## نظرية عبادة الفرد

هنالك في قبال العلماء القائلين بالأخلاق، فريق من الفلاسفة القدامى والمحدِّثين يؤمنون بنظرية عبادة الذّات وطلب اللذّة. وهؤلاء الذين ينظرون إلى الإنسان من المنظور المادي، ويؤمنون بأصالة اللذّة، والشهوة، والقوة، وكل ما يعني عبادة الفرد، فضلاً عن كونهم لا يرون في الأخلاق معياراً للسعادة وأساساً لسموّ الإنسان وتكامله، فإنّهم يرونها عائقاً يحول دون تحقق الأماني، وحجر عثرة في طريق النجاح. إنّهم يعتقدون أن التعاليم الأخلاقية ما هي إلّا مجموعة من الأوامر العديمة الفائدة، ولا تؤدي إلّا إلى تحديد الشخصية، وسلب الحرية، والحطّ من اللذّات.

«يقول (آريستيب) ـ الذي كان يعيش في القرن الرابع قبل الميلاد ـ: ما الخير إلّا اللذّة، وما الشرُّ إلّا الألم، إن هدف الإنسان من الحياة هو التمتّع بملذّات الدنيا. ولهذا فهو يسعى نحوها، ويبتعد عن الألم والعذاب والمنغّصات. ولما لم نكن نملك شيئاً من أمر الماضي والمستقبل، فإن العقل يحكم بلزوم الاستمتاع بما هو بين أيدينا من المتع واللذائذ، وبأن لا نشغل بالنا بالتفكير في النتائج، حسنة كانت أم سيئة»[٤].

## اتّباع الغرائز

«يقول (كاليكلس): أجب نداء الغرائز تنل اللذّة والسعادة، ولا تُبدِ مقاومة في وجهها تسلم من الألم والعذاب، فكل ما قالوه عن المبادىء الأخلاقية وغير

---

(٣) (ن.م): ١٢٠.

(٤) علم الأخلاق أو الحكمة العملية: ٢٤٣.

ذلك ليس سوى حفنة من الأوهام لا دليل على صحتها ولا برهان»[٥].

«يرى كاليكلس في كتابه (غورغياس)، وهو يخاطب افلاطون، أن الأخلاق قيد اصطنعه الضعفاء ليقيِّدوا به الأقوياء. وهو يعتقد أن الأخلاق وسيلة لإبقاء الإنسان الأفضل ضمن حدود الضعفاء وقدرتهم»[٦].

«يقول (نيتشه): على الإنسان أن يريد نفسه، وأن يعبد ذاته، وأن يُنبذَ الإنسانُ الضعيفُ حتى يُقضَىٰ عليه، ليقلَّ الألم والعذاب، ولكيلا يكون الضعيف عبئاً يُثقل كاهل القوي وحجر عثرة في طريقه.

والإنسان الأفضل هو الإنسان الأقوى، يحيا بالقوة، ويحقق أهواءه ورغباته، ويعيش سعيداً، ويعتبر نفسه سيداً وإلهاً، ويزيل عن طريقه كل حائل يحول بينه وبين سيادته، ولا يخشى الخطر، ولا يخاف الاحتراب والجدال»[٧].

«يقول (جون ديوي): هنالك دائماً أشخاص أنانيُّون محبُّون للجاه يعتقدون أن المبادىء الأخلاقية أمور تافهة لا طائل فيها، وذلك لأن غايتهم الوحيدة هي تحقيق الآمال وإيصال سفينة الأماني إلى الساحل المقصود، ولهذا فإنَّهم يرون أن كل شيء جائز لهم لبلوغ أهدافهم.

هؤلاء يرون المبادىء الأخلاقية والسنن الاجتماعية موانع وسدوداً في طريق تحقيق الميول والمواهب الفردية، ويحسبون انعدام الحرية في إرضاء الرغبات والشهوات سبباً لتحديد نمو شخصية الفرد، ويعتقدون أن عليهم أن يتّبعوا أهواءهم ورغباتهم إلى أقصى حد، وأن لا يُلقوا بالاً للمبادىء الاجتماعية والقيم السائدة فيه. يرى هؤلاء، على وجه الإجمال، أن خير الأخلاق هو أن تُداس تلك المبادىء والأنظمة الأخلاقية التي تحدّد الحرية»[٨].

---

(٥) (ن.م): ٢٤٥.

(٦) مباهج الفلسفة: ١٠١.

(٧) سير الحكمة في أروبا ٣: ١٢٧.

(٨) الاخلاق والسخصية: ٢٢.

## حرية الشهوات

إن عُبَّاد الفردية الذين يعارضون الأخلاق يظنون أن حرية الإنسان في حرية غرائزه وشهواته، ويتصورون أن التنكُّر للمبادىء الأخلاقية الاجتماعية، واتّباع ما تمليه عليهم شهواتهم وأهواؤهم النفسية يعني نيل الحرية والتمتّع بحياة متحرّرة. لقد غفل هؤلاء عن أن إطاعة الغرائز والميول الحيوانية، فضلًا عن كونها ليست مقياساً لحرية الإنسان، فإنّها، على العكس من ذلك، تكون سبباً في العبودية والأسر. إن من يطيع أهواءه النفسية، يكون، في الواقع، قد تقبَّل العبودية لشهواته، واستسلم بذلك لأحطّ أنواع العبودية وأذلّها.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*مغلوبُ الشهوَةِ أذلُّ مِنْ مملوكِ الرّقِ*»[٩].

(اسبينـوزا) الذي عاش في القرن السابع عشر، والذي كان من أشهر فلاسفة أوربا، يقول:

«ثمّة من يظن أن الحرية والقوة في قدرته على اتّباع هوى نفسه، وأن في اعتباره التمسُّك بالأخلاق والفضائل ضرباً من القيد والأسر، غافلًا عن أن اتّباع أهواء النفس هو الأسر والعبودية. إن طريق الخلاص يكمن في أن نرى العبودية ضعة، فنشيح عنها بوجوهنا، وأن نلتفت إلى الحقيقة ونسعد بها. وبديهي إن بلوغ هذا المقام ليس سهلًا يسيراً»[١٠].

## تزكية النّفس

قضية الأخـلاق في الـدين الإسـلامي المبين قضية دينيّة مهمة وهي تحظى بالاهتمام التّام. يرى القرآن الكريم أن تزكية النّفس والتخلّق بالأخلاق الحميدة من عوامل النجاة ومن طرق الوصول إلى السعادة، بينما يرى أن فساد الأخلاق هو منشأ التعاسة وسبب الخسران:

---

(٩) فهرست الغرر: ١٨٨.

(١٠) سير الحكمة في أوربا ٢: ٤٦.

﴿قدْ أفلحَ منْ زكّاها * وقدْ خابَ من دسّاها﴾[١١].

وبعد أن يُقْسم الله تعالى في سورة الشمس أحد عشر قَسَماً متوالياً، يقول: من يسع لتزكية نفسه، ويطهّر ضميره من الأفكار والأخلاق غير الحميدة، ينج ويكن سعيداً، ومن لا يطرد الأفكار الخبيثة والأخلاق القذرة عن صفحة خاطره، ويدفع قلبه إلى طريق الفساد والضلال يكن تعساً خاسراً.

قال الإمام علي(ع): *«رأسُ الإيمانِ حُسنُ الخُلُق والتحلّي بالصّدق»*[١٢].

عن الإمام أبي عبدالله الصادق(ع) قال: *«إنَّ الله تباركَ وتعالى لَيُعْطي العبدَ منَ الثوابِ على حُسنِ الخُلُق كما يُعطِي المُجاهدَ في سبيلِ الله يغدُو عليه ويروحُ»*[١٣].

وعنه(ع): *«إن أُجِّلتَ في عمرِكَ يومينِ فاجعلْ أحدهُما لأدبِكَ لتستعينَ بهِ على يومِ موتِكَ»*[١٤].

إن معـرفة الصفات الحميدة منها والذميمة. والتمييز بين الفضائل والرذائل شرط أساس في إصلاح الأخلاق، كما نعرف، فمن لا يعرف الخلق الحسن والخلق السيّئ، ولا يميز الفضيلة من الـرذيلة، لا يمكن أن ينجذب إلى محاسن الأخلاق الحميدة، ولا أن يبتعد عن مساوىء الأخلاق الذميمة. لقد حثَّ أئمة الإسلام أتباعهم على دراسة علم الأخلاق واستيعابه من أجل تنمية النفس وتزكيتها، فعلم الأخلاق أساس سعادة المجتمع، وهو مقدَّم على سائر العلوم.

عن الإمـام الكاظم(ع)، قال: *«أَلْزَمُ العلمِ لكَ ما دلَّكَ على صلاحِ قلبِكَ، وأظهَرَ لك فسادَهُ»*[١٥].

---

(١١) سورة الشّمس: ٩ و١٠.

(١٢) فهرست الغرر: ٩٤.

(١٣) الكافي ٢: ١٠١.

(١٤) روضة الكافي: ١٥٠.

(١٥) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٣٥٥.

## الأنبياء ومكارم الأخلاق

قام الأنبياء بوضع أُسس مكارم الأخلاق بأمرٍ من الله تعالى، من أجل أن يصنعوا من الفرد إنساناً، ويربُّوه تربية أخلاقية إنسانية، فعلَّموا أتباعهم مكارم الأخلاق. وعلى امتداد القرون الطويلة سعوا إلى ترسيخ تلك التربية وتوسيعها، فنجحوا في تربية الإنسان في عدد من أتباعهم، وبلغوا في ذلك نتائج باهرة. وفي الختام بُعث خاتم الأنبياء محمَّد(ص) برسالته، لكي يُكمّل البناء الذي وضع رجال الله أُسسه من قبل، وليسبغ على المسلمين أسمى الصفات الإنسانية.

قال رسول الله(ص): *«إنّما بُعِثتُ لأُتمِّم مكارِمَ الأخلاقِ»*[١٦].

ومكارم الأخلاق دليل عظمة النفس وكرامتها. مكارم الأخلاق أساس السمو المعنوي والتكامل الروحي. في ضوء مكارم الأخلاق يتحرر الإنسان من قيود عبادة الذّات والطبيعة الحيوانية، ويقهر غرائزه وميوله النفسية، ويتفتّح فيه حبّ الإنسانية وحسّ التضحية، ويصبح إنساناً بالفعل، ومتمتعاً بالكمالات التي تليق بمقام الإنسان.

كان الرسول الأكرم(ص) ينتهز كل فرصة مناسبة في الحضر والسفر، وفي المجالس ومن فوق المنبر، ليذكّر أتباعه بواجباتهم، ويحثّهم على السير في طريق مكارم الأخلاق، ويربّيهم على التحلّي بالصفات الإنسانية. وبتأثير مساعيه الحثيثة ظهر تحوّل عظيم في المجتمع، وطوى عدد كبير من المسلمين مدارج الأخلاق العالية، ونالوا الفضائل الإنسانية. ولقد سجَّل التاريخ الإسلامي جوانب من سير حياة بعضهم تدعو إلى الفخر والاعتزاز.

## نموذج من التربية الإسلامية

في حرب اليرموك كان عدد من الجنود المسلمين يتقدَّمون إلى ميدان المبارزة، وبعد بضع ساعات من مجالدة العدو، يُقتل بعضهم، ويعود بعضهم سالمين أو مجروحين،

---

(١٦) (ن.م): ٢٨٢.

ويبقى آخرون مثقلين بالجراح مطروحين على أرض المعركة.

عن حذيفة العدوي أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمٍّ لي بين القتلى ومعي شيء من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت: أسقيك؟ فأشار إليَّ أن: نعم، فإذا برجل يقول: آه! فأشار إليَّ ابن عمّي أن: انطلق إليه واسقه، فإذا هو هشام بن العاص. فقلت: أسقيك؟ فأشار إليَّ أن: نعم، فسمع آخر يقول: آه! فأشار إليَّ أن: انطلق إليه. فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمّي فإذا هو قد مات(١٧).

لم يكن شرب الماء أو عدم شربه ذا تأثير في حياة هؤلاء الجنود الثلاثة وموتهم، لأن جراحهم كانت عميقة والدماء التي نزفت منهم كانت قد اقتربت بهم من الموت، ولم يكن ثمّة أمل في بقائهم أحياءً. ولكن العبرة اللافتة للنظر في هذه الحكاية التاريخية والجديرة بالتمجيد هي الأخلاق الكريمة التي تحلّى بها هذان الجنديان المسلمان في إيثار غيرهما بشرب الماء على الرغم من عطشهما ونزف الدم منهما، فعاشا حتى آخر لحظات حياتهما إنسانين، وفارقا الدنيا وهما مثالان للخُلق الإنساني الكريم.

إن الذين ربّتهم مدرسة الإسلام لم يكونوا يسلكون سلوكا إنسانياً ويتعاملون تعاملاً أخلاقياً مع بني البشر وحدهم، بل كانوا ـ في ما يطرأ من المواقف ـ يكشفون عن عظمة نفوسهم وكرم أخلاقهم نحو الحيوانات أيضاً، فكانوا يسبغون عليها الكثير من عواطفهم الانسانية.

خرج عبدالله بن جعفر يوماً إلى ضيعة له، فنزل على حائط به نخيل لقوم، وفيه غلام أسود يقوم عليه. فأتى بقوته ثلاثة أقراص، فدخل كلب، فدنا من الغلام، فرمى إليه بقرص فأكله، ثم رمى بالثاني والثالث فأكلها، وعبدالله ينظر إليه. فقال: يا غلام كم قوتك في اليوم؟ قال: ما رأيت. قال: فلم آثرت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هي بأرض كلاب، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت أن أردَّه. قال: فما أنت

(١٧) المستطرف من كل فن مستظرف، الأبشيهي ١: ١٥٦.

صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا. فقال عبدالله بن جعفر: أُلام على السخاء وإن هذا لأسخى مني. فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات، واشترى الغلام، ثم أعتقه ووهب له الحائط بما فيه من النخيل والآلات...(١٨).

لقد كان ذانك الجنديان الجريحان أشد ما يكونان عطشاً، ولكنهما قاوما رغبتهما، واتبعا مبادىء الأخلاق والفضيلة في إيثار شخص آخر على نفسيهما.

والعبد الأسود كان هو نفسه محتاجاً إلى الطعام، ولكنه لعظمة نفسه وكرم خلقه، تغاضى عن حاجته الخاصة، وتحمّل الجوع يوماً ليُشبِعَ حيواناً جائعاً.

سبق أن قلنا إنَّ عُبَّادَ الفردية الذين يستنكرون الأخلاق يقولون: لا بدَّ من الاستجابة لنداء الغرائز واتّباع الشهوات والميول، ونبذ المبادىء الأخلاقية التي ليست سوى قبضة من الأوهام والتوافه. هؤلاء يعتقدون أن الانصياع للمبادىء الأخلاقية يسلب الحرية، ويحول دون بروز المواهب الباطنية، ويحدِّد تربية الشخصية الفردية.

فهل يمكن ـ اعتماداً على نظرية هذا الفريق ـ القول بأن الجنديَّين العطشانين والعبد الأسود قد أقبلوا على أمر وهمي وقاموا بعمل تافه؟ هل إنهم باتباعهم المبادىء الأخلاقية قد سلبوا الحرية من أنفسهم؟ أم أنهم بملء حريتهم تمسّكوا بالإنسانية وتخلّقوا بخلق الإنسان؟ وبالنتيجة، هل منع هؤلاء الثلاثة، باتباعهم المبادىء الأخلاقية، بروز ما في داخلهم من مواهب، وقيّدوا تربية شخصيتهم الفردية؟ أم إنهم، على عكس ذلك، برزت فيهم، تحت ظل التعاليم الأخلاقية، سجاياهم الفطرية وقابلياتهم المعنوية، ومنحتهم شخصيتهم الإنسانية؟

الحقيقة هي أنَّ الناس عموماً، حتى الذين يعبدون الفرد ويعارضون الأخلاق، يستحسنون ـ فطرياً ـ الأخلاق الحميدة ويرتضونها، وينظرون إلى ذوي الأخلاق الفاضلة نظرة احترام وإكرام، ويرونهم جديرين بالمدح والثناء. إنَّ الذين يفتقرون

---

(١٨) (ن.م): ١٥٩

إلى كرائم الأخلاق، عندما يشاهدون السجايا الإنسانية في أصحاب الفضائل، أو يسمعون الثناء على مكارم أخلاقهم؛ إذا لم يشعروا بالأسف على عدم تحلّيهم بتلك السجايا، فإنهم يعترفون. في الأقل، بأن تلك العظمة وكرم الأخلاق ليست فيهم.

ومما يلفت الانتباه هو أن الناس لا يحسُّون بالسرور والانشراح مما يرونه من مكارم الأخلاق في الفضلاء من الناس ويلهجون بالثناء عليهم وتمجيدهم فحسب، بل إنهم ليتألمون من السيّئات الأخلاقية والأعمال اللاّ إنسانية التي يرتكبها عديمو الأخلاق والفضيلة ويستنكرونها، وينظرون إليهم نظرة سخط واشمئزاز، وينحون عليهم، فطرياً، باللوم والتقبيح.

«واشنطن ـ اعترف مؤخراً رجل اسمه (دامرون) وهو مسؤول عن السيطرة على حركة مرور الطائرات، أنه في أحد أيام شهر كانون الأول/ ديسمبر الماضي شاهد سقوط طائرة من طراز (بوينغ ٧٢٧) بالقرب من مطار (دالس) ومقتل (٩٢) شخصاً، وأنّه كان قد تنبّه إلى هذا الخطر، وكان قادراً على لفت نظر الطيار إلى ذلك ليزيد من ارتفاعه وينجو من الخطر. ولكن بما أن لفت أنظار الطيارين لم يكن من ضمن الواجبات المطلوبة من المسؤولين عن تنظيم حركة الطيران، فإنّه لم يقم بذلك العمل»[١٩].

ترى هل هناك من البشر من يستطيع أن يكون لا أُباليّاً ازاء مثل هذا العمل اللاّ أخلاقي المناقض للإنصاف والإنسانية؟ هل يمكن أن نتقبّل عذره في أن وظيفته لم تتضمن إخبار الطيار بما يتهدده من خطر، فنوافق على سلوكه اللاّ إنساني هذا، ونغضّ الطرف عن قتل (٩٢) شخصاً من النساء والرجال والأطفال؟ إذا كان مثل هذا الموظف لا يعتبر في نظر المحاكم القضائية مجرماً، ولا يناله أي عقاب جزائي، فهل ينجو من محاكمة الضمير ومقاضاة الوجدان، ولا يُدان؟ إنّ الذين يقرأون هذا الخبر، حتى عُبّاد الفردية ورافضيّ الأخلاق، يتأثرون به أشد التأثر، ولا يمكنهم إلاّ أن

---

(١٩) صحيفة اطلاعات العدد: ١٤٦٢٤.

ينظروا إلى هذا الإنسان الجامد العاطفة والعديم الإنسانية نظرة غضب واشمئزاز، وإلاّ أن يعتبروه مستحقاً للتوبيخ والتعزير.

## الهداية الربانية

إن الإنسان، بفطرته الهادية، يعرف أُمَّهات الفضائل والرذائل، ويميّز بين مبادىء الأخلاق الحميدة والذميمة، ويدرك، بالهداية الربانية التكوينية، أنَّ الوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، والصدق، والاستقامة، والرجولة، وعزَّة النفس، والإنصاف، كلها حسنة ومن الأخلاق الحميدة. كما أنَّه يدرك أيضاً أنَّ خُلْفَ الوعد، وخيانة الأمانة، والكَذِبَ، والتزوير، والجبن، والضَّعة، والأعمال البعيدة عن الإنصاف، كلها من الصفات الذميمة. يصف القرآن الكريم هذه الهداية التكوينية بأنها إلهام رباني، بقوله: ﴿فألهمها فجورَها وتقْوَاها﴾[٢٠].

وهذا ما يعبّر عنه علماء النفس بالضمير الأخلاقي.

إن معرفة الإنسان أُمَّهات الفضائل والرذائل عن طريق إلهام الضمير الأخلاقي، وتمييزه بين الحسنة والسيئة بهدايته التكوينية، لا يعني أنَّ الناس عامَّة قادرون على فهم جميع القضايا الأخلاقية، وتمييز الصفات الحميدة والذميمة وحدهم ومن دون معلم، بحيث يستطيعون الإجابة عن الأسئلة التي تدور حولها بيسر وسهولة. إنَّ علم الأخلاق على قدر من التعقيد والتشابك بحيث إن البحوث الدقيقة التي أجراها كبار الفلاسفة طوال قرون كثيرة لم تستطع بعد إلقاء الضوء الكافي على بعض القضايا، ولم يتمكن العلماء، بمنطقهم العلمي، من تقديم الإجابات الحاسمة عن بعض التساؤلات الأخلاقية.

إننا لكي نلقي بعض الضوء على جانب من نظريات العلماء حول الأخلاق، ولكي نبين أهمية هذا الموضوع إلى حدٍّ ما، نحاول في هذا الفصل أن نتناول بإيجاز

---

(٢٠) سورة الشمس: ٨.

آراء بعض الفلاسفة القدامى والمحدِّثين وعقائدهم. وفي الوقت نفسه سوف نعرض لبعض المتناقضات التي ترد بشأن مختلف المواضيع.

ما هو الُخلق؟ إن كلمتي (الَخلق) و(الُخلق) في اللغة العربية من أصل واحد، فالَخلق هو الصورة الظاهرية والبناء الطبيعي للإنسان، والُخُلق هو الشكل النفساني والصفات المعنوية. فمثلما أن الَخلق يعني الشكل الظاهري للناس، فبعضه جميل، وبعضه غير جميل، وبعضه قبيح كريه، كذلك الُخُلق، بوصفه الصورة النفسانية، يكون في بعض الناس مقبولاً، وفي بعضهم غير مقبول، وفي بعضهم قبيحاً وغير إنساني.

«الُخلق هو الدين والطبع والسجيَّة، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه، وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الَخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة»[٢١].

عن جرير بن عبدالله، قال: قال رسول الله(ص): *« إنَّك امرؤٌ قد أحسنَ الله خلقَك وخُلُقك»*[٢٢].

قال الإمام علي(ع): *«حُسنُ الُخلقِ للنَّفسِ وحسنُ الَخلقِ للبدنِ»*[٢٣].

وعلى هذا الأساس يقيِّم (جون ديوي) التربية والتعليم، بصفتهما وسيلة لصياغة النفس الإنسانية، مما يشمل المعنى الواسع لكل أنواع التربية والتعليم العلمية والدينية والأخلاقية، فيقول:

> «التربية والتعليم فعالية تمنح عقل الإنسان شكله وهيئته ونظامه، وتجعله على وفق الموازين الاجتماعية»[٢٤].

إن صورة الإنسان الظاهرة وبناءه الطبيعي ينجمان عن قوانين الخلق وسننه،

---

(٢١) لسان العرب، مادة «خلق».

(٢٢) سفينة البحار، القمي ١: ٤١٠.

(٢٣) فهرست الغرر: ٩٥.

(٢٤) مقدمة على فلسفة التربية والتعليم: ١٤.

وليس لنا الخيار في كيفيتها. أما الصورة النفسانية والبناء الأخلاقي والمعنوي فأغلبه اكتسابي، ويكون على المرء السعي والمجاهدة للتخلّق بالأخلاق الفاضلة، وتحمُّل المشاقّ والصعاب في صياغة صورته الباطنية على أحسن وجه. إلّا أنَّ هناك أشخاصاً جُبلوا على بعض الفضائل، فتراهم يتمتعون ذاتياً بصفات من قبيل ضبط النفس، والنبل، والمحبة، وقلة الكلام، والبشاشة، من دون أن يتجشَّموا عناءً في اكتسابها.

عن الإمام أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*إن الُخلقَ منيحةٌ يمنحُهَا الله عزَّ وجلَّ خلقَهُ، فمنهُ سجيَّةٌ ومنهُ نيَّةٌ*.

فقلت: فأيُّها أفضلُ؟

فقال: *صاحبُ السجيَّةِ هو مجبولٌ لا يستطيعُ غيرهُ، وصاحِبُ النيَّةِ يصبُر على الطاعةِ تصبُّراً فهوَ أفضلُهَا*»[٢٥].

من المناسب أن نشير إلى أن التخلُّق بالأخلاق الحسنة أو السيّئة إنما يعني، من الناحية الدينية والعلمية، أن تتشبع روح الإنسان بصفة ما حتى تصبح تلك الصفة من ملكاته النفسية وفي دخيلته، بحيث يستطيع أن يمارس تلك الصفة، بيُسر ومن دون تفكير، في تعامله مع الناس. إذن، لا يمكن للإنسان أن يتَّصف بصفة الكرم بمجرد قيامه بالبذل والإنفاق أياماً، كما أنّه بالكذب بضع مرات لا يكون قد تخلَّق بصفة الكَذِبِ المذمومة.

«يقول (أرسطو): الفضيلة النفسية أو الأخلاقية يجب أن تكتسب، حتى تصل إلى درجة العادات التي لا يجد المرء مشقَّة في ممارستها، بل يفعل ذلك راغباً، ملتذّاً، عالماً بما يفعل وبإرادته. فإذا توفَّرت هذه الشروط كانت تلك الفضيلة من الفضائل الحميدة»[٢٦].

«يقول (ابن مسكويه): الُخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رؤية وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من أصل

---

(٢٥) الكافي ٢: ١٠١.

(٢٦) سير الحكمة في أوربا ١: ٣٤.

المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب ويهيج من أقل سبب وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أدنى شيء يعجبه وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله.

ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب وربما كان مبدؤه بالرؤية والفكر ثم يستمر عليه شيئاً فشيئاً حتى يصير ملكة وخُلقاً»(٢٧).

«يقول الدكتور (كارل): لا مناص للمرء من القبول بنظام باطني أُصولي إذا أراد المحافظة على تعادله الأخلاقي، وحتى الجسمي. قد تتمكن الدولة باستعمال القوة من تنفيذ القانون في البلد، ولكنها غير قادرة على فرض القوانين الأخلاقية على الناس. إنَّ على كل فرد أن يدرك ضرورة القيام بالأعمال الحسنة، وتجنب الأعمال السيئة، وأن يتعوَّد على ذلك بمعونة إرادته»(٢٨).

ولكي يتحلّى الناس بالسجايا الإنسانية، ويتخلَّقوا بالأخلاق الفاضلة، ويكونوا بمأمن من الرذائل لا بدَّ لهم في البداية من أن يميزوا بين الأخلاق الحسنة والسيِّئة، لكي يتمكنوا من الميل إلى الحسنة منها والابتعاد عن السيِّئة، كما لا بدَّ لهم من قوة تستطيع في بداية الأمر ـ على الرغم من الغرائز العنيدة البُلْه ـ أن تسير بهم على طريق الفضائل، وأن تحيد بهم عن طريق الرذائل، حتى يصبحوا شيئاً فشيئاً ذوي ملكات فاضلة، ويعتادوا على السلوك وفق الأخلاق الفاضلة، وتتشكل نفوسهم بصورة الأخلاق الحميدة. ولقد كان هذان الأمران موضع اهتمام الفلاسفة والعلماء في أبحاثهم الأخلاقية منذ قرون حتى اليوم، أبدوا فيها مختلف النظريات.

كان سقراط يرى أن العلم والحكمة هما اللّذان يضمنان هذين الأمرين، وكان يعتقد أن العلم والبصيرة هما منشأ الأخلاق الحميدة،وأن الانحرافات الأخلاقية تنشأ

---

(٢٧) طهارة الأعراق: ٢٥ و ٢٦.

(٢٨) الإنسان ذلك المجهول: ١٢٣.

عن الجهل. وكان يقول: إذا ما انتشر العلم، وارتفع مستوى معرفة المجتمع، تمكّن الناس من التمييز بين الفضيلة والرذيلة، وبين الحسن والسيّئ، وعلى أثر اطلاعهم على النتائج المطلوبة وغير المطلوبة للفضيلة والرذيلة، يتّخذون سبيلهم وفق الأخلاق الحميدة، وينبذون الصفات المستهجنة. ولتوضيح هذه النظرية قال:

«لا يسير الناس عادة على طريق الشر عن علم وتعمُّد، وإذا ما عرفوا الخير والصلاح فلا شك في أنهم سيختارونها. إذن، لا بدَّ من معرفة الخير. فمثلاً، يجب أن نعرف ما هي الشجاعة؟ وما هي العدالة؟ وما هي التقوى؟»[٢٩].

«العمل الصالح يعتمد على التمييز بين الصالح والطالح، وهذا يعني المعرفة. والفضيلة المطلقة ليست سوى العلم والحكمة. أما العلم بحالات الخوف والجرأة، أي العلم بما يجب أن نخاف منه وما لا يجب، فهو الشجاعة. وإذا ما روعيت المعرفة في الشؤون النفسية؛ وصفت بالعفة، وإذا قُصد بها العلم بالقواعد التي تسود العلاقات بين الناس؛ فهي العدالة، وإذا ما كانت تخص واجبات الإنسان نحو خالقه؛ عُرفت بالتديُّن وعبادة الله. إن هذه الفضائل الخمس، أي: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدالة، وعبادة الله؛ هي الأصول الأولية للأخلاق عند (سقراط)»[٣٠].

«(افلاطون)، في باب الأخلاق، يعتقد، مثل سقراط، بأن العمل الصالح يقتضي معرفة الصالح، فإذا عرف الناس ما هو الصالح لم يميلوا إلى الطالح. فالفضيلة، وهي حسن الُخلق، تنتج عن العلم»[٣١].

لا شكَّ في أن للعلم بالخير والشر، وبالصالح والطالح، دوراً مؤثراً جداً في إصلاح الأخلاق وسلوك المجتمع. إن بعضاً من الأخلاق المذمومة والأعمال القبيحة ناجم عن الجهل وعدم المعرفة. ولكننا نعلم أنَّ العلم لا يمكن أن يصلح المجتمع ويثمر

---

(٢٩) سير الحكمة في أوربا ١: ١٤.

(٣٠)(ن.م): ١٥.

(٣١)(ن.م): ٢١.

السعادة له إلّا إذا قام العالم العارف بالعمل طبقاً لعلمه ومعلوماته، وإلّا فإن علماً لا يعمل به لا ينتج نتيجة أخلاقية، ويعود العالم والجاهل في السلوك سواء.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*فإنّ العالِمَ العامِلَ بغيرِ علمِهِ، كالجاهِلِ الحائِرِ الذي لا يسْتَفيقُ من جهلِهِ*»[٣٢].

ليس هناك تلازم بين العلم والعمل، ومعرفة الجيد والرديء لا تستدعي العمل بالجيد وترك الرديء. كثيرون أُولئك الذين يعرفون الحسنات والسيّئات الأخلاقية، ويميّزون جيداً بين الخير والشر، ولكنهم واقعون في حبائل غرائزهم وشهواتهم. فهؤلاء في تنفيذهم أهواءهم يعملون خلافاً لما يعلمون، مهملين الخير والصلاح، ومتجهين، إلى الشر والسوء، عندئذ يحيق بهم السقوط والهلاك.

عن النبي(ص)، قال: «*العلماءُ رجلانِ: رجلٌ عالِمٌ أخذَ بعلمِهِ، فهذا ناجٍ، وعالِمٌ تاركٌ لِعلمِهِ، فهذا هالِكٌ*»[٣٣].

قال الإمام علي(ع): «*رُبَّ عالِمٍ قد قتلَهُ جَهلُهُ وعِلْمُهُ معَهُ لا ينفعُهُ*»[٣٤].

«يقول (جون ديوي): إن أشخاصاً مثل سقراط وافلاطون يرون المعرفة والفضيلة شيئاً واحداً، ويزعمون أنَّ من يرتكب عملاً سيئاً فسببه عدم معرفته بالعمل الحسن. وبعبارة أخرى إنّهم يرون أن الأخلاق تعتمد على العلم. أما معارضو هذه النظرية فيقولون: إن العمل الأخلاقي لا علاقة له بالمعرفة، وإنما هو يتعلّق بالدوافع والعادات، فكثيراً ما يرتكب أُناس أعمالاً قبيحة وهم يعرفون العمل الصالح. وقديماً هاجم أرسطو افلاطون قائلاً: إن الأخلاق بذاتها فن من الفنون، مثل فن الطب، لا تنفع إلّا إذا أُستفيد منها عملياً. وكما أن الطبيب الذي يمارس الطبابة لا يمكن أن يُنظر إليه على قدم المساواة مع من يعرف نظرياً الأدواء وأدويتها، كذلك لا يمكن مقارنة العالم بالنظريات

---

(٣٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٠٩.

(٣٣) بحار الأنوار، المجلسي ١: ٩٧.

(٣٤)(ن.م): ٩٩.

الأخلاقية بمن يسلك سلوكاً أخلاقياً»[٣٥].

«يقول (ويل دورانت): إذا أوصل الذكاء المرء إلى الكمال والحكمة والبصيرة فهو أمر حسن، ولكن ماذا نفعل خلال فترة انتظار الوصول إلى مثل هذا الكمال؟ هل يمتنع الأذكياء عن القتل والسرقة خلال فترة ما قبل الوصول إلى الكمال؟»[٣٦].

الانتقاد الآخر الموجه إلى نظرية سقراط وافلاطون هو أن العلم والحكمة يعملان على تفتّح العقل، ورفع مستوى الإدراك، وزيادة حدة الذكاء. والمتعلمون يمكن، بتأثير ما يكتسبونه من علم ومعرفة بالخير والشر، أن يسيروا في الطريق الصحيح، ويصلحوا أخلاقهم وأعمالهم، ويتّجهوا نحو الخير والصلاح، بحسب نظرية سقراط وافلاطون. ولكن من المحتمل أيضاً العكس، فيسيء هؤلاء استعمال قوة العلم، ويستغلون علمهم في مجالات الشر والجريمة وإرضاء شهواتهم وغرائزهم غير المشروعة، ويرتكبون، بما لديهم من ذكاء، ذنوباً وأعمالاً لا أخلاقية أكبر، ويخلقون مصائب أشد وأدهى.

«يقول (ويل دورانت): ألا يحتمل أن يكون أساس المعاصي الجهل وعدم المعرفة، وتكون الجرائم نتيجة عدم التبصر الكامل؟ ألا تقيم الفضيلة، والذكاء، والتربية الكاملة؛ النظام الاجتماعي المطلوب؟

إذا اعتبرنا معنى (الخير) و(الذكاء) شيئاً واحداً، وأطلقنا على الفضيلة اسم (البصيرة)، وإذا استطعنا أن نعلّم الناس منافعهم الحقيقية بحيث يرون النتائج البعيدة لأعمالهم خيراً، ويزنون ميولهم وشهواتهم بميزان البصيرة، فربما نكون قد هدينا الناس المتنوّرين إلى أخلاقية متينة تشبه أخلاقية الناس المتديّنين. ولكن هناك خلف هذا الرأي قد أُخفي ضرب من أصالة الفرد بمهارة. فبحسب هذا الرأي، يمكن بتربية جيل واحد إقامة الأصالة الحقيقية. ولكنهم

---

(٣٥) مقدمة على فلسفة التربية والتعليم: ٢٣٦.

(٣٦) مباهج الفلسفة: ١١٣.

لا يردّون بشيء على السؤال القائل: ألا يكون الذكاء سبباً في ارتكاب جرائم بذكاء أشد؟ وألا يكون اللص الذي يحمل مصباحاً أقدر على انتقاء ما يسرق؟ وعلى هذا يبقى التردد في أنه هل يجب جعل الذكاء اجتماعياً، أم يجب العثور على قاعدة أخرى للأخلاق؟»[٣٧].

يرى أرسطو أن الأخلاق هي إطاعة أوامر العقل، ويعتقد أنّ صاحب الأخلاق هو ذلك الذي يزن غرائزه الحيوانية وميوله النفسية بقوة البصيرة، فيستخدمها في حدود مصلحته. وفي ذلك يقول:

«فضيلة الإنسان هي أن يؤدي واجبه، أي فعالية النفس، بموافقة من العقل على خير وجه، فإن فعل فقد سُعد. علم الأخلاق هو أن نعرف ماذا ينبغي أن يفعل الإنسان، في مختلف المواقف. لكي تكون فعاليته بموافقة العقل. أي متى يجب أن تكون، وفيم، وكيف، ولمن، ولماذا؟

إن للنفس الإنسانية جانبين: عقلاني وغير عقلاني. والعقلاني هو الجانب الإنساني. وغير العقلاني يتميز بجانبين أيضاً، وهما النفس النباتية، أيّ القوة النامية، والنفس الحيوانية التي من طبيعتها الشهوة، والغضب، والغرائز الأخرى. إن الدوافع الغريزية تحمل الإنسان على العمل، فإذا وقع العمل بموافقة العقل فهو فضيلة، وهذا الضرب من الفضيلة يسمّى الفضيلة الإنسانية أو الأخلاقية»[٣٨].

في نظر أرسطو، على الإنسان الذي يريد بلوغ الفضائل الأخلاقية والسجايا الإنسانية أن يطيع أوامر البصيرة والتعقل، ويشعر بالمسؤولية، ويتجنب الإفراط والتفريط، وينفّذ فعاليته بموافقة العقل. ولكنه لا يقول ما الذي يضمن تنفيذ الأحكام العقلية، وأية قوة تستطيع كبح جماح الغرائز العنيدة، وتجعل الإنسان يشعر بالمسؤولية.

---

(٣٧) (ن.م): ١٠٣.

(٣٨) سير الحكمة في أوربا ١: ٣٣.

من المعلوم أن العقل شبيه بالعمل، فمثلما أن العلم لا يستتبع العمل، وكثيراً ما يعمل الناس خلاف ما يأمر به العلم، مدفوعين بإغراء الغرائز والشهوات، كذلك ليس هناك أيُّ تلازم بين الحكم الذي يصدره العقل وتنفيذه، فكثيراً ما يطيع الناس الأهواء والميول النفسية، ويرفضون إطاعة العقل وتنفيذ أوامره.

العقل في الإنسان أشبه بالقاضي النزيه الذي يتفحّص القضايا بدقة، ويصدر حكمه، بوعي وبصيرة، في الخير والشر، بينما يكون تنفيذ الحكم بعهدة الغرائز والمشاعر. إن الميول الغريزية والرغبات النفسية لا بصر لها ولا بصيرة، ولا هي تُعنى بالصلاح والفساد، ولا تدرك الخير والشر، ولا ترى سوى تحقيق طلباتها. ثم هي على قدر من القوة بحيث إن العقل فضلاً عن كونه يعجز عن كبحها وإعادتها إلى بيت الطاعة، فإنه في حالات تهيّج الانفعالات وطغيان الغرائز يقع نفسه ضحية للكبت والقمع، وينطلق هوى النفس يعمل ما يشاء بحرية، ويحقق رغباته كيف ما يريد.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*وكَمْ مِنْ عقلٍ أسيرٍ عندَ هوىً أمير*»[٣٩].

«يقول (هيوم): إذا لم ينسجم العقل مع السلوك، فإنَّ صاحبه سوف يقف ضد العقل. وإذا عجز الفكر عن تقويم الميول والشهوات بميزان المنطق، ولم يستطع أن يوفّق بين العقل والشهوة؛ فإنَّ الشهوة لن تطيع العقل. وإذا أُقيمت الحياة على أُسس بعيدة عن العقل والحكمة؛ عمد الناس إلى خَلق منطق لا يقوم على أساس من العقل، لكي يجدوا المسوِّغ اللّازم لتلك الميول والرغبات»[٤٠].

## نظرية هيجل

يرى (هيجـل) أن الأخلاق هي اتّباع القوانين وإطاعتها، وأن الإنسان ذا

---

(٣٩) نهج البلاغة: ٢٠٣.

(٤٠) مباهج الفلسفة: ٣٠.

الأخلاق هو الذي يكون في نواياه مطيعاً للقانون، ويطبّقه عملياً في أعماله، ويكيِّف مصالحه الخاصة بموجب الموازين القانونية والمصالح الاجتماعية، ويُشبع حاجاته في إطار الموازين والتعاليم، ويمتنع عن تنفيذ ميوله التي لا تنسجم مع العدل والقانون. وهو يوضّح ذلك كما يلي:

«إذا زال التناقض بين رغبة الشخص وإرادته من جهة، والحقّ ـ أعني إرادة المجموع ـ من جهة أخرى، وتطابقت إرادة النفس مع القانون والحقّ واتفقت معهما، يكون الفرد ذا أخلاق حسنة وأعمال صالحة. إذن، فالحقّ، وهو أمر خارجي، إذا عاد وأصبح باطنياً ذاتيّاً، كان أخلاقاً. في الأخلاق لا يُعتبر العمل الخارجي الثابت وحده، بل إن النيَّة، وهي باطنية وليست ثابتة، معتبرة أيضاً. وصاحب الأخلاق هو الذي يشهد قلبه بالحقّ والعدل وفق ما قرَّره القانون والنظام، ويعتبر الفائدة تابعة للخير»[٤١].

إن الفضائل الأخلاقية والسجايا الإنسانية أرفع من هذا الذي تصوَّره (هيجل) وذكره في كلامه. من المعلوم أن المجتمع إذا أراد أن يعيش في رفاه ودعة، وأن يتمتّع بنعمة الأمن، لا بدّ له أن يقيم سلوكه على أساس من الحقّ والعدل، ويراعي حقوق الآخرين، ويحترم القانون، ويلتزمه عملياً. إلّا أنّ هذا ليس هو الأخلاق، فكثيرون أُولئك الذين يتفق سلوكهم والسنن الاجتماعية، ولا يتجاوزون القانون حتى بخطوة واحدة. ولكنهم اخلاقياً خشنون سريعو الغضب، متصعِّبون، لا يغفرون الزلّة، ولا يتخلَّون عن الانتقام، مغرورون، متكبِّرون، وهم ـ بخلاف ما يقوله هيجل ـ يفتقرون إلى مكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية.

## نظرية كانت:

عاش (كانت) قبل (هيجل)، وهو من مشاهير علماء الغرب، وقد أشار إلى هذا

---

(٤١) سير الحكمة في أوربا ٣: ٣٨.

الموضوع الأساس في بحوثه العلمية التي فَصَل فيها الواجبات الأخلاقية عن الواجبات القانونية:

«...له في الفلسفة والأخلاق عدة كتب ورسائل، قسَّم فيها الواجبات إلى قسمين اثنين:

الأول: التكاليف القانونية، أيّ تلك التي يفرض القانون على الناس القيام بها، وعدم التزامها يستوجب المحاسبة من جانب المحاكم ودواوين العدالة.

والثاني: التكاليف الأخلاقية التي يكون التزامها باطنياً، والحاكم فيها هو النفس الإنسانية.

في التكاليف القانونية يكون الاهتمام موجَّهاً إلى العدل، والعدل هو كل عمل قائم على المبدأ القائل: (أن تكون حرية كل فرد منسجمة مع حرية سائر الأفراد).

وعليه، فإن القانون يقول: (إعمل بحيث تكون حريتك وفق قاعدة عامة منسجمة مع حرية جميع الناس).

أما في التكاليف الأخلاقية فيكون الاهتمام بالأخلاق، وهدف علم الأخلاق هو الكمال الذاتي للفرد وسعادة الآخرين»[٤٢].

أما في مدرسة الإسلام السماوية فإن العمل بالقوانين والسنن الاجتماعية الدينية يختلف عن التخلّق بالأخلاق الفاضلة والسجايا الإنسانية. فبتطبيق القوانين الاجتماعية تتم رعاية حقوق الآخرين، أما القيام بكرائم الأعمال الأخلاقية فيوصل الإنسان إلى السموّ المعنوي والتكامل الروحي.

تنفيذ القوانين والتعليمات يسبغ الأمن والراحة على المجتمع، والتخلّق بمكارم الأخلاق يجعل الفرد إنساناً. وعلى ذلك فإن إعمال القوانين الدينية هو ميزان العدالة والإنصاف، والتخلّق بمكارم الأخلاق هو أصل الكمال المعنوي والفضيلة.

---

(٤٢) (ن.م) ٢: ١٦٩.

قال الإمام علي(ع): *«العدلُ أنَّكَ إذا ظُلمتَ أنصفتَ، والفضلُ أنَّك إذا قدرْتَ عفوْتَ»*[٤٣].

إن العالم اليوم ينظر عموماً إلى الأمور الأخلاقية من نافذة الرأي العام، ويزن حسنها وقبحها بميزان قبول المجتمع أو رفضه لها، ويستند في الحكم على الأخلاق الحميدة والذميمة على قضاء المجتمع، أكثر من استناده على معايير أخرى.

أتباع هذه النظرية الذين يقولون بأن الأخلاق نسبية، ويرون أن حُسن الُخلق هو الانسجام والتجانس مع المجتمع، وأن سوء الُخلق هو الازورار عن أُسلوب المجتمع والتنصُّل منه. يعتقد هؤلاء بأن السلوك الذي يقع موقع القبول في المجتمع هو السلوك الحسن المطلوب، ويجب التمسّك به. أما الأخلاق التي يرفضها الناس وينبذونها فتعتبر سيّئة وغير مطلوبة، ويجب تجنبها.

## رأي جون ديوي

«يقول (جون ديوي): إن عدم توجيه النقد واللوم الاجتماعي في المجتمع أفضل دليل على الرضى، لأنه يعني تجنب التوجه نحو الشر.

إن اتّباع الآخرين، والانغمار في بحر المجتمع، والاحتراز من جلب انتباه الآخرين، يؤدي إلى تجنّب النقد واللوم الاجتماعي. والنتيجة هي أن الأخلاق المتداولة والمتّفق عليها اليوم تبدو بصورة أخلاق عديمة اللّون، بحيث إن التفاخر واجتذاب الأنظار يعتبر أخطر انحراف عنها. وإذا ما اتَّخذت تلك الأخلاق لوناً ما. فذلك يعني أن خصيصةً أخلاقيةً قد اتَّخذت وضعاً غير عادي، وأنّها قد انفلتت من قيود الهيمنة والتسلُّط. على كل فرد أن يحذر التفوّق على الآخرين في الطبيعة وحسن الخلق لئلا يبرز كفرد متميز. بل إن العيب أو النقص الذي يتفق مع الآداب الاجتماعية مرجَّح على التفوّق، لأن مثل هذا

---

(٤٣) فهرست الغرر: ٢٣٧.

العيب يفقد صفته كمنقصة»[٤٤].

## المجتمع وسوء التمييز

قد تصحّ هذه النظرية عن الآداب والسنن العادية التي لا ترتبط بسعادة الإنسان، وربما تكون مقبولة، لأنّ حُسن هذه الأعمال أو قبحها نسبي ويتصل بقبول المجتمع أو رفضه لها. ولكن لمعرفة الحسن والقبيح، أو الخير والشر الأخلاقيّين في الأعمال التي يلعب التزامها أو إهمالها دوراً أساساً في سعادة الناس وتعاستهم، ويسوق الإنسان إمّا إلى طريق الرقيّ والسموّ، وإمّا إلى الانحطاط والضعة، لا يمكن الركون فيها إلى موازين الرأي العام، ولا يصلح تعيين الصفات المحمودة والمذمومة بالاستناد إلى قبول المجتمع أو رفضه لها، فقد يفقد مجتمع مّا بصيرته. بسبب الجهل في التقليد، فيصبح كالأعمى والأصمّ في معرفة الحَسَنِ والسيّء، وبذلك يتطبّع على ممارسة بعض الصفات المذمومة والأعمال غير الصحيحة إلى درجة أنه فضلاً عن كونه لا يرى فيها أيَّ قبح، فإنّه يرى في أعماله القبيحة والفاسدة منتهى الكمال والفضيلة، ويشعر بالزهو والفخار لارتكابها.

قبل الإسلام كان بعض الآباء والأمّهات، في اتّباعهم للرأي العام الجاهلي، يذبحون أطفالهم قرابين أمام الأصنام، وكانوا يعتبرون هذه الجريمة عبادة، ويشعرون عند القيام بها بالسرور والرضى. وكان بعض الآباء يئدون بناتهم حيّات، وهم يتباهون بذلك العمل اللّا إنساني باعتباره دليل الغيرة.

كان قيس بن عاصم، في الجاهلية، من رؤساء القبائل وأشرافها. أسلم بعد ظهور الإسلام. سعى في أواخر عمره إلى نيل المغفرة من الله تعالى على ما كان قد ارتكب من آثام، فحضر مجلس رسول الله(ص) وقال: في الماضي، دفعت الجاهلية بعض الآباء إلى أن يدفنوا بأيديهم بناتهم البريئات حيّات، ولقد قمت أنا نفسي بوأد

---

(٤٤) طبع الإنسان وخلقه: ٢١.

اثنتي عشرة من بناتي، في فترات متقاربة، أما الثالثة عشرة فقد وضعتها زوجتي في الخفاء وأظهرت لي أن الوليد نزل ميتاً، بينما أرسلت البنت إلى أهلها دون علمي.

ومضت السنون حتى اتفق يوماً أني كنت عائداً من إحدى رحلاتي، فوجدت صبية صغيرة في داري. وإذ لاحظت شبهها الشديد بأولادي، راودني الشك فيها. وأخيراً علمت أنها ابنتي فأخذت فوراً بيد البنت وهي تصرخ باكية وجرجرتها إلى مكان بعيد، دون أن ألتفت إلى توسّلاتها، والعهد الذي قطعته على نفسها بأنها سوف تعود إلى أخوالها ولن تجلس على مائدتي أبداً، ولكني مع ذلك دفنتها حيّة.

وسكت قيس ينتظر جواباً. كانت الدموع تنهمر من عينَي رسول الله(ص)، وهو يقول هامساً: *مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَم*، ثم التفت إلى قيس وقال: *ينتظرك يوم سيّئ*. فسأله قيس: ماذا أفعل لأخفِّفَ من عبءِ آثامي؟ فقال النبي(ص): *أعتقْ مِنَ العبيدِ بِقدرِ ما قتَلْتَ مِنْ بناتِكَ*[٤٥].

السيّئات الأخلاقية أمراض نفسية، والأمراض الجسمية هي التي تصيب البدن. ولما كان نفي ابن الشارع أو إثباته لا يغيّر شيئاً من واقع الأمراض الجسمية، ولا يجعل المرض سلامة، كذلك هو الحكم الذي يصدره المجتمع لا يغيّر من حقائق السيّئات الأخلاقية، ولا تتبدل الرذيلة فضيلة بما يقوله الناس.

الطبيب المتخصص هو المرجع الذي يحكم بسلامة الجسم أو بمرضه. إن الإنسان الواعي لا يأخذ بأقوال هذا وذاك لمعرفة سلامة جسمه أو مرضه، وإنما يضع نفسه تحت تصرف الأطباء ليبيّن له هؤلاء بفحوصاتهم وتحليلاتهم حالته الصحيحة. ولمعرفة سلامة النفس ومرضها لا بدّ أيضاً من الرجوع إلى مرجع ثقة، والسير على الطريق الصحيح والموثوق به، لمعرفة الفضائل والرذائل الأخلاقية لتشخيص مرض النفس أو سلامتها.

---

(٤٥) الجاهلية والإسلام: ٦٣٢.

وهذا المرجع لتمييز الخلق الحسن من السيئ، في نظر أُولئك الذين يؤمنون بالأخلاق النسبية، هو الرأي العام، ومقياس الفضيلة والرذيلة عندهم هو قبول المجتمع لها أو رفضه. هؤلاء يعتقدون أن التزام السلوك الاجتماعي، مهما تكن فيه من منقصة أو عيب، فإنه دليل حُسن الخلق، ويصون الإنسان من التعرّض للنقد. أما الابتعاد عن السلوك العام، وإن يكن صحيحاً ومناسباً، فإنه دليل سوء الخلق ويستدعي لوم الناس وتوبيخهم.

أما في دين الإسلام المقدَّس، فإنّ المرجع في معرفة الحسن والسيّيء هو القرآن الكريم. وقد أوصى أئمة الإسلام الكرام أتباعهم ألّا يتخذوا من كلام الناس ميزاناً للحسن والسيّئ، وألّا يحزنهم ولا يفرحهم ما يصدر الناس من أحكام بالرفض أو القبول، بل عليهم أن يزِنوا أنفسهم بميزان كتاب الله، وأن يقوّموا حُسن أخلاقهم أو سوءها بمعاييره.

## خلاصة البحث

من مجموع هذا البحث نستنتج أن العلماء القدامى والمحدِّثين لهم نظريات مختلفة في تعريف الفضيلة وتبيان حقيقة الأخلاق، كما أنّهم قالوا بموازين مختلفة يميزون بها بين الأخلاق الحسنة والأخلاق السيئة وطرق تنفيذ التعليمات الأخلاقية.

**سقراط و افلاطون** قالا: إن حسن الخلق والفضيلة هما العلم والحكمة، وكانا يعتقدان أنه إذا قُضي على الجهل، وعرف الناس الخير والشر، والحسن والسيّئ، في أعمالهم، فإنهم بالطبع سوف يميلون إلى الخير ويتجنبون الشر، فعلى قدر انتشار العلم والحكمة يكون تمكّن المجتمع من التمييز بين الخير والشر، والتخلُّق بالأخلاق الحسنة.

**أرسطو** يعتبر الأخلاق الحميدة الفاضلة هي اتّباع أوامر العقل، ويقول: إن من يريد التخلُّق بالأخلاق الحميدة، والتحلّي بالصفات الإنسانية، عليه أن يصحح غرائزه وميوله الحيوانية بقوة العقل، وأن يخضع جانبه اللّا عقلاني لأوامر الجانب العقلاني، ويجعل رغباته النفسية مطابقة للعقل.

**هيجل** قال: إنَّ الأخـلاق الحميدة الفـاضلة تتمثـل في إطـاعـة القوانين الاجتماعية. وهو يرى أن الإنسان الفاضل وذا الأخلاق الحميدة هو ذلك الذي يكون قلبياً مطيعاً للقانون، ويطبّقه عملياً أيضاً، ويجري في سلوكه وأفعاله على وفق الموازين القانونية.

أمـا **أتبـاع الأخلاق النسبية** فيرون الفضيلة والأخلاق هما التلوّن بلون المجتمع والانسجام معه، ويعتقدون أنَّ معيار الحسن والقبح في الأخلاق والأعمال هو قبـول المجتمع أو رفضه لها. فالأخلاق التي يتقبّلها المجتمع ويرتضيها الناس هي أخلاق حسنة، والصفات التي يرفض المجتمع قبولها ولا يرتضيها الناس هي أخلاق غير حسنة ومرفوضة. إن من يريد أن يكون ذا أخلاق، عليه أن يتبع الرأي العام، وأن يرى جمال الأخلاق وقبحها من منظور الناس، فيجعل صفاته وأعماله منسجمة مع السلوك العام.

هنالك نظريات أخرى فيما يتعلق بحقيقة الأخلاق والفضيلة، لا نجد ضرورة لذكرها، فقد كان الهدف من ذكر هذه النظريات هو بيان أن مسألة الأخلاق من المسائل العلمية والفلسفية المعقَّدة والمهمة، وأن العلماء على امتداد العصور والقرون قالوا الكثير من الكلام، وأجروا الواسع من البحوث والتحقيقات فيها.

وفي المدرسة الإسلامية حسن الخلق والفضيلة هما عبارة عن كرامة النفس، فالـذين صيغت نفوسهم من النبل وكرم المحتد والشرف يكونون أصحاب فضائل أخلاقية وسجايا إنسانية، فبالسموّ والرفعة التي يتميزون بها لا يلتفتون إلى الرذائل الأخلاقية، ولا يقرّون الأعمال الوضيعة المذلَّة، ولا يكونون عبيداً للدنيا والشهوات، ولا يلوّثـون أنفسهم بخبَث الآثـام والمعاصي، وعلى عكس هؤلاء هم الذين تربَّت نفـوسهم على الـدنـاءة والضعـة والحقـارة، يكونون دائماً معرَّضين للآثام والرذائل الأخلاقية، بحيث إن المجتمع يشعر بالقلق وعدم الطمأنينة من سوء سلوك هؤلاء وأقوالهم. وقد جاء ذكر هذين القسمين في الأحاديث الإسلامية، نشير إلى بعض منها فيما يلي:

### القسم الأول: كرم النفس والفضيلة

عن الإمام علي(ع)، قال: «*من شَرُفَتْ نفسه نزَّهَها عن ذلَّةِ المطالبِ*»[٤٦].

وعنه(ع)، قال: «*الكرمُ حسنُ السَّجيَّةِ واجتنابُ الدَّنيَّةِ*»[٤٧].

وعن الإمام علي بن الحسين(ع)، قال: «*من كرُمَتْ عليهِ نفسُهُ، هانتْ عَليهِ الدُّنيا*»[٤٨].

قال الإمام علي(ع): «*منْ كرُمتْ عَليهِ نفسُه، هانتْ عليهِ شهواتُهُ*»[٤٩].

وعنه(ع): «*من كرُمَتْ عليهِ نفسُهُ لم يُهِنْها بالمعصيةِ*»[٥٠].

### القسم الثاني: دناءة النَّفس والرذيلة

عن الإمام علي(ع)، قال: «*هانتْ عليهِ نفسُهُ، منْ أمَّرَ عليهِ لسانَهُ*»[٥١].

عن الإمام أبي الحسن الثالث الهادي(ع)، قال: «*منْ هانتْ عليهِ نفسُهُ، فلا تأمنْ شرَّهُ*»[٥٢].

كرامة النفس صفة اكتسابية، تنال بالتربية والتعليم الصحيحين.إن الأبوين العالمين العارفين بواجباتها يستطيعان أن يبذرا بذور هذه السَّجيَّة الإنسانية في نفوس أطفالها، فيربيانهم منذ نعومة أظفارهم على كرامة النّفس والفضيلة.

إن الأطفال الذين نالوا تربية جيدة من الوالدين، وحظوا بمربّين لائقين فتربُّوا منذ البداية على كرم النّفس، يكونون في شبابهم من ذوي السجايا الحميدة.

---

(٤٦) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٦٦٩.

(٤٧) فهرست الغرر: ٣٤٦.

(٤٨) تحف العقول، الحراني: ٢٧٨.

(٤٩) نهج البلاغة: ٤٤١.

(٥٠) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٦٧٧.

(٥١) نهج البلاغة، الكلمة ٢.

(٥٢) بحار الأنوار ١٧: ٢١٤.

وعندما يدخلون المجتمع يسيرون على طريق الخصال الإنسانية بكل رغبة وميل، لما فيهم من دوافع الشرف والكرامة، ويتمسّكون بالفضائل، ويتجنّبون الرذائل. هؤلاء لا يلتزمون المبادىء النبيلة وأُصول الفضيلة في أعمالهم وأقوالهم وتعاملهم الشريف مع الناس فحسب، بل هم يرون في تطبيق مكارم الأخلاق والأعمال واجباً حتمياً لا بدَّ من التزامه.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*الكريمُ يرى مكارِمَ أفعالِهِ دَيْناً عليهِ يقْضيهِ*»[٥٣].

أما الأطفال الذين يتربّون في أحضان أبوين منحطّين، ومربّين أدنياء الطبع، ويتعلّمون منهم الدناءة والخِسّة والجبن، كالأطفال الذين يعيشون في محيط خالٍ من المحبة والحنان، ومعرَّضين للإهانة والتحقير منذ البداية، يكونون واقعين في أسر الدناءة والوضاعة. فإذا لم يعالج هؤلاء ما بأنفسهم من عيوب نفسية، اتَّخذوا في المجتمع طريق الحقارة والانحطاط، وساروا على خلاف ما تقتضي الفضيلة الإنسانية ومكارم الأخلاق، وكان ديدنهم ارتكاب الأعمال القبيحة السافلة.

قال الإمام علي(ع): «*النَّفسُ الدَّنيَّةُ لا تنفَكُّ عنِ الدَّناءاتِ*»[٥٤].

---

(٥٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٩٠.

(٥٤) فهرست الغرر: ١١٧.

# الفصل الثاني

*﴿إدفـعْ بالَّتي هيَ أحْسَنُ*
*فإذا الَّـذي بيْنَـك وبيْنَـهُ*
*عداوةٌ كأنَّهُ وليٌّ حميمٌ﴾*
*القرآن الكريم*

## الأخلاق البشرية والإلهيّة

تمرُّ حياة الإنسان إجمالاً بثلاث مراحل:

١ـ الحياة الحيوانية وسيطرة الغرائز من دون قيد ولا شرط.

٢ـ الحياة الاجتماعية وتعديل الميول الحيوانية.

٣ـ الحياة الإنسانية وبلوغ كرم النفس والسموّ المعنوي.

**المرحلة الأولى ـ الحياة الحيوانية:** يسلك الطفل في سنيّه الأولى سلوكاً حيوانياً، لافتقاره إلى التعقل والتربية، فيسير سيراً أعمى وراء حاجاته الطبيعية، ويطيع، مثل الحيوان، أوامر غرائزه. ليس في حياة الأطفال معنىً للحسن والقبح، ولا للصلاح والفساد، ولا للحقّ والفضيلة ولا للعدل والانصاف. وهم واقعون تحت سيطرة حبّ الذّات وإشباع رغباتهم، تسوقهم الغريزة نحو اللذّة والمتعة، وتدفعهم إلى اللّعب، والركض والقفز وأنواع الحركة، وبأمر من غريزة الهدم والاعتداء يعتدون على ضعاف الأطفال والحيوانات، ولإشباع رغباتهم لا يقفون عند حدٍّ من الحدود.

**المرحلة الثانية ـ الحياة الاجتماعية:** بعد ذلك يأتي دور البلوغ والشباب،

وتبدأ الحياة الاجتماعية. ولكي يصبح الفرد متمدناً ويتمتع بمزايا المدنية، لا بدَّ له من الركون إلى مجموعة أفراد من نوعه ليؤلِّفوا معاً مجتمعاً، يشتركون فيه في السعي وراء الأمور المادية والمعنوية، ويدرجون معاً في ظل تعاونهم العلمي والعملي في مدارج الرقيِّ والرفعة، ليصلوا إلى الكمال الذي يستحقونه.

يميل جميع أفراد المجتمع، بفطرتهم، إلى حبِّ الذّات، وإلى أن يكونوا أحراراً، كما كانوا في طفولتهم، فيشبعون غرائزهم كما يشاءون، ويحققون ما في نفوسهم من أمان حسب أهوائهم. إلاّ أنَّ هذا الميل لا ينسجم مع متطلبات الحياة الاجتماعية للإنسان، لأنَّ الحرية تجرُّ إلى الفوضى، وإلى فقدان الأمن والاستقرار، والقوي يفرض إرادته على الضعيف، والقادر يغمط حقوق غير القادر. ومن البديهي أنه في المجتمع الذي تسوده الفوضى وفقدان النظام تُعرَّض أُسس المدنية والحضارة لخطر السقوط والانهيار.

إن سعادة الأفراد، في الحياة الاجتماعية، ترتبط بسلامة المجتمع وسعادته. ولا يكون المجتمع سالماً ولا سعيداً إلاّ عندما تكون السيادة فيه للحقّ والفضيلة، فيحترم كل فرد حياة الآخرين وأموالهم وأعراضهم، ولا يعتدي على حرمات هذا وذاك.

والقوانين الاجتماعية، وكذلك النصائح الأخلاقية، إنما وضعت لتمييز الحق من الباطل، ولتعيين الحدود بين الفضيلة والرذيلة. وبتطبيق التعليمات القانونية يتحقق التعادل والتوازن في المجتمع، وتسلب قدرة التوسّل بالقوة من جانب الأقوياء والأنانيِّين المعتدين، ويتمتع جميع الأفراد بحرية نسبية، ويواصلون حياتهم باطمئنان وهدوء بال.

وفي ظل تحقق التكاليف الأخلاقية، تتفتح الفضائل الإنسانية في المجتمع، ويجتمع الناس على روابط المحبة فيما بينهم، ويحترم كل منهم شخصية الآخر وشرفه، ويتعاملون بحرارة وبشاشة، ويقضون حياة حلوة نشطة.

«الأخلاق الحميدة تجعل الإنسان اجتماعياً، وتمنعه من عدم الاهتمام

بالآخرين والتوجه إلى الذّات، وهو ما ينجم في الغالب عن العادة. والأخلاق، من حيث كونها عامة، لها جانبها العالمي، وهي اللغة الحيّة الأولى للمجتمع.

لغة الأخلاق عامة وبسيطة ويفهمها الناس جميعاً. والأخلاق، في الواقع، موضع احترام الجميع، ويمكن أن تربط بين مختلف الطبقات. كل الناس قادرون، وبالتساوي ومن دون أيّة مصاريف، أن يكونوا مؤدَّبين خُلقياً ومن يحرم نفسه من ذلك يكون على خطأ.

الأخلاق تخفِّف من حدة الصراع الطبقي، وبالأخلاق يستطيع أن يكرم الفقير الغني، وكذلك القوي الضعيف. والأخلاق ساعدت على تحقيق المساواة والأخوة أكثر من أيّ بيان لحقوق الإنسان»[١].

وعليه، ففي المرحلة الثانية من الحياة، توجب ضرورة التمدّن على أعضاء المجتمع أن يكيِّفوا سلوكهم مع المقررات الاجتماعية، وأن يُشبعوا غريزة حب الذّات في إطار القانون والأخلاق، وأن يحقّقوا رغباتهم ضمن حدود مصالح المجتمع، وأن يمتنعوا عن القيام بما يؤدّي إلى ضَياع حقوق الآخرين.

**المرحلة الثالثة ـ الحياة الإنسانية:** في ظل تعاليم المربِّين اللاّئقين من ذوي القلوب الطاهرة، ينال بعض الأفراد مقام كرم النفس ونبل الطبع، ويتمتّعون بالسموّ المعنوي والسجايا الإنسانية. هؤلاء لا يريدون أنفسهم في الحياة الاجتماعية لأنفسهم فقط، بل هم يولون عنايتهم للآخرين أيضاً، ويتحدّثون بضمير الجمع بدل ضمير المفرد، ولا يفتأون يفكرون بحبّ الآخرين وإرادة الخير لهم، ولا يتقاعسون عن مدِّ يد العون لهذا وذاك بكل كرم وعلوِّ همّة، ولا يحصرون أنفسهم في حدود الرغبات الفردية والأنانيات القانونية والأخلاقية. هؤلاء هم الذين يمثلون الإنسان الحقيقي الذي يعيش كإنسان يقضي عمره الغالي في صالح الأعمال ومكارم الأخلاق والسجايا

---

(١) سلسلة ماذا أعلم؟ تربية الأطفال المشاكسين: ٧٠.

الإنسانية الرفيعة.

### العلماء ومراحل الحياة

«(مندوبيران) وهو من الفلاسفة الغربيّين الإلهيِّين. عاش في القرن الثامن عشر. يقول عن مراحل حياة الإنسان: لحياة الإنسان ثلاث درجات أو مراحل: المرحلة الحيوانية، والمرحلة الإنسانية، والمرحلة الملكوتية. المرحلة الحيوانية هي التي تتمحور حول الانفعالات الحسّيّة، تلك الانفعالات التي تتباطأ بحكم العادة. في هذه المرحلة لا يكون الإنسان قد تنبَّه إلى (أنانيته) بعد، وتكون حياته انفعاليَّة وتخيُّليّة، كما هي الحال عند الأطفال. أما المرحلة الإنسانية فهي المرحلة التي يبدأ فيها الإنسان بالتفكُّر والتعقّل، وتكون له إرادة وحرية اختيار، ويدرك (أنانيته) إدراكاً جيّداً. أمّا المرحلة الملكوتية فهي المرحلة التي يتجاوز فيها الإنسان النظر إلى نفسه وأنانيته، ويروح يبحث عن الله، لأنه يكون على مفترق طريقيّ عبادة الهوى وعبادة الله، ويستطيع أن يتَّصل بكليهما. فإذا أستسلم للانفعالات استهلكته الطبيعة، وإذا ربَّى في نفسه قواه الروحية اقترب من الله»(٢).

وتحدَّث (فرويد) عن مراحل الحياة الثلاث، تحت عنوان (شخصية الإنسان)، وأطلق على كل مرحلة اسماً معيناً وبحث فيها بحثاً مسهباً وفيما يلي خلاصة لذلك:

«بحسب اعتقاد (فرويد) كل شخصية كاملة تتألف من ثلاثة أنظمة أصلية: الـ (هو) والـ (أنا) والـ (أنا الأعلى).

إنَّ ما يقوم به الـ (هو) حصراً؛ هو الإسراع برفع الانفعالات التي تظهر في (النظام) نتيجة لحافز داخلي أو خارجي.

ويقوم الـ (هو) بإشباع المبدأ الابتدائي الأصلي في الحياة، والذي يسميه

---

(٢) سير الحكمة في أوربا ٣: ٦٢.

فرويد مبدأ اللذّة.

والـ (هو) مركز للطاقة الروحية الأولية، وموضع للغرائز، واتصاله بالجسم وانفعالاته أكثر من اتصاله بالعالم الخارجي، وهو يفتقر إلى التنظيم بالقياس إلى الـ (أنا) والـ (أنا الأعلى) ، إذ لا يتغير الـ (هو) بمضي الزمن، ولا تؤثر فيه التجربة والتعليم، ولكنه ممكن السيطرة عليه وتعليمه بواسطة الـ (أنا).

ولا يخضع الـ (هو) لقواعد المنطق والاستدلال، ولا يتّصف بأية أُسس أخلاقية ومعنوية. إن كان ما يُعنى به هو سرعة الإشباع وفقاً لمبدأ اللذّة لسدّ حاجة الغريزة. يعتبر الـ (هو) القاعدة لبناء شخصية الفرد، ويحافظ على خصوصية الطفولة فيه خلال سنوات حياته كلها، أي إنه يكون ضعيف التحمّل، ويطلب الإشباع الفوري. الـ (هو) أناني يبحث عن اللذّة، وفجائي الفعل، ويطلب غير المعقول وغير الاجتماعي. إنه الابن غير الصالح للشخصية، وذو سلطة مطلقة تكاد تشبه السحر في تحقيق رغباته.

الـ (هو) يعتبر الجانب المظلم من شخصية الإنسان، والبعيد عن التناول، ولكنه يبرز في مختلف الظروف. إنّ من يخدع شخصاً آخر، أو يرتكب جريمة الاغتصاب، يكون واقعاً تحت سلطة الـ (هو)، كذلك حال من يقضي الكثير من وقته في التخيّلات والتصوّرات الوهمية، فهو يفعل ذلك بأمر من الـ (هو) في نفسه.

الـ (هو) لا يفكر، وانما يريد ويعمل فقط»[٣].

إذن، فهذه المرحلة الأولى في حياة الإنسان، والتي تتحكّم فيها الغرائز والأفعال الآليّة حكماً مطلقاً، يسمّيها (فرويد) مرحلة الـ (هو)، باعتباره الحاكم المجهول الذي يقبع في أعماق وجودنا، يصدر أوامره العنيدة، ويهيمن علينا بالرغم من إرادتنا، ويحقق طلباته بكل قوة واقتدار.

---

(٣) علم النفس لفرويد : ٣٣.

«إنَّ فعاليَّة الـ (هو) ذات الحركة غير الإرادية لا تكفي لحصول أهداف تكاملية كبرى. فلكي ينجح الإنسان في ذلك لا بدَّ له من أن يأخذ بنظر الاعتبار كثيراً من الحقائق الخارجية (الظروف المحيطية)، وأن يخضعها أو يتكيَّف معها ليُشبع حاجاته من العالم الذي يعيش فيه. إن هذا الضرب من التبادل المتقابل بين الإنسان والمحيط الذي يعيش فيه يستوجب وجود (نظام) نفساني جديد، وهو الـ (أنا). في الإنسان المتوازن المنسجم، يكون الـ (أنا) الأداة التنفيذيّة للشخصيّة، ويأخذ على عاتقه السيطرة على الـ (هو) والـ (أنا الأعلى) وإدارتها، ويقيم علاقات شبه تجارية مع العالم الخارجي لمصلحته الشخصيّة وحاجاته ككل. وعندما يقوم الـ (أنا) بأعماله التنفيذية بتعقل، يسود النفس التعاون والتوازن والانسجام.

لا يقع الـ (أنا) تحت سيطرة مبدأ اللذَّة، بل يتبع المبدأ الواقعي. ونقصد بالواقعي ذلك الشيء الذي له وجود عيني. وهدف المبدأ الواقعي هو إفراغ الطاقة ودفعها موقتاً إلى أن يتمَّ إعداد الموضوع الحقيقي. فمثلاً، على الطفل أن يتعلَّم أن لا يضع إيَّ شيء في فمه عندما يحسّ بالجوع. إن عليه أن يعرف المواد الغذائية، وأن يتحمّل الجوع ما دام لم يعثر على ما يؤكل، وإلاّ واجهته تجارب مرَّة ومؤلمة. وهكذا يمكن اعتبار الـ (أنا) بمثابة (نظام) معقَّد من الفعاليات النفسية، يقوم بدور الوساطة بين الـ (هو) والعالم الخارجي»[٤].

مقولات (فرويد) فيما يتعلق بالمرحلتين الأولى والثانية من حياة الإنسان الـ (هو) والـ (أنا) تتفق مع أقوال أكثر الفلاسفة والعلماء وليس فيما بينها اختلاف كبير. ولكن فيما يتعلق بالمرحلة الثالثة، الـ (أنا الأعلى)، ينفصل طريق (فرويد) عن الطريق الذي يسير فيه أغلب علماء النفس، ذلك لأنهم يختلفون مع (فرويد) في نظرتهم إلى الضمير الأخلاقي المسبّب لظهور الاتجاهات الإنسانية السامية، والذي

---

(٤) (ن.م): ٤٢.

يؤلف القسم الأكبر من المرحلة الثالثة من الحياة.

### الضمير

يقول أكثر علماء النفس بالضمير الأخلاقي الفطري، ويرون أنه غير الضمير الأخلاقي المكتسب بالتربية. إنهم يعتقدون أن للضمير الأخلاقي الفطرى جذوراً طبيعية في الإنسان، وأن بني البشر جميعاً مجبولون عليه في طينتهم بصورة متساوية. إن النـاس جميعـاً، على اختـلاف قومياتهم وعنـاصـرهم، يميّزون، عن طريق الهداية التكوينية، بين مبادىء الفضيلة والرذيلة، ويعرفون الحسن والإنصاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، كما يعرفون أيضاً القبح وعدم الإنصاف وخلف الوعد والخيانة. وموطن هذه المعرفة والإدراك هو الضمير الأخلاقي الفطري.

وإلى جانب الضمير الأخلاقي الفطري يوجد الضمير الأخلاقي المكتسب، كما أن لكل قوم وملّة ضميراً خاصاً بهم وفق الموازين والعقائد والآراء الاجتماعية، قائماً على العادات وأساليب السلوك العام. وكثيراً ما يجد الضمير المكتسب لقوم أمراً من الأمور قبيحاً وسيّئاً، بينما يكون الأمر نفسه جميلاً ومقبولاً لدى ضمير قوم آخرين.

هذا الفريق من علماء النفس يرى أنه لبلوغ المرحلة الثالثة من الحياة الـ (أنا الأعلى) يجب أن يستيقظ الضمير الأخلاقي الفطري في الناس، وأن تتفتح في قلوبهم الاتجـاهـات الإنسانية السامية لكي ينالوا مكارم الأخلاق ويطووا مدارج التعالي والتكامل المعنوي.

ينكـر (فرويد) وجود الضمير الأخلاقي الفطري استناداً إلى آرائه المادية، ويعتقد أنَّ منشأ جميع أحكام الضمير هو ما تعلَّمه الطفل من الأوامر والنواهي خلال تربيته الاجتماعية. وهو لا يعترف بوجود اختلاف بين الضمائر المتشابهة عند الناس كافة، والضمائر الخاصة بكل قوم من الأقوام، بل يراها جميعاً مكتسبة.

«يعتقد (فرويد) أن الضمير الأخلاقي ليس سوى (لجام اجتماعي)، وهو لا يمثل عملاً ذاتياً عميقاً للنفس البشرية، بل هو استبطان ساذج للمنهيات

الاجتماعية»[٥].

«يرى (فرويد) أنّه لا توجد في تاريخ البشرية، ولا في تاريخ الفرد، تصورات أوليَّة (للخير) و(الشر)، إذ أن هذه التصورات تصدر، حصراً، من الخارج، أيّ من المحيط الاجتماعي»[٦].

استناداً إلى هذه النظرية المادية يشرح (فرويد) المرحلة الثالثة من الحياة، فيرى أن أخلاق الـ (أنا الأعلى) تنجم عن نواهي الأبوين وسائر الأفراد الأكبر عمراً من الطفل، وفي ذلك يقول:

«الـ (أنا الأعلى) هو القسم الأصلي الثالث لشخصية الفرد، وهو يمثّل جانبه الأخلاقي والقضائي. الـ (أنا الأعلى) هو القانون الأخلاقي للشخص.

يكتسب الطفل من أبويه الموازين الأخلاقية وهي اعتقادهما بالحسن والقبح، أو بالتقوى والمعصية. ونتيجة لهذا الاكتساب يتكون الـ (أنا الأعلى) الذي يمثل في شخصية الفرد القيم والمعتقدات القومية، والمثل الاجتماعية التي يتلقاها الطفل من أبويه. كما أن هناك، فضلاً عن الأبوين، عوامل اجتماعية أخرى تساهم في تكوين الـ (أنا الأعلى)، كالمعلمين، ورجال الدّين، ورجال الشّرطة، وكل من يكون في مقام فوق الطفل، فهؤلاء يمكن أن يكون لهم تأثير في دور العائلة. غير أنّ تأثير هذه العوامل بالنسبة لما يتلقّاه الطفل قبل ذلك من أبويه محدود جدّاً»[٧].

«من الممكن في كثير من الأشخاص أن تظهر الأخلاق بشكل خصلة شديدة وبصورة الـ (أنا الأعلى) بحيث تُخضع الفرد لسيطرتها وسلطتها، يعتقد (فرويد) أن هذا الضمير الأخلاقي انعكاس لنواهي الأجداد تحت تأثير عامل قوي هو حاجة الطفل إلى الحب والحنان من والديه. فالطفل يتصور أنّه إذا لم

---

(٥) سلسلة ماذا أعلم؟ الأمراض الروحيّة العصبيّة: ٦٤.

(٦) مذكرات فرويد: ١٠٥.

(٧) علم النفس لفرويد: ٤٦.

يستسلم لأوامر والديه ونواهيهما، فإنّه سوف يُحرم من حنانهما الذي هو بأشد الحاجة إليه»[٨].

إن الإنسان في فترة الطفولة، وهي المرحلة الأولى من الحياة، لا يشعر بأيّ مسؤولية، ولهذا يكون، مثل الحيوانات، تحت سيطرة حكم الـ (هو)، ويسعى، دون قيد أو شرط، إلى إشباع غرائزه، ولا يتحمّل في أعماله أيّة مسؤولية شرعية أو قانونية. وعند بلوغ أيام الطفولة والمرحلة الحيوانية نهايتها، تبدأ المرحلة الثانية، وهي الحياة الاجتماعية والعقلانية للـ (أنا). في هذه المرحلة يُكلَّف الفرد بأداء واجباته القانونية والتزام التعليمات الأخلاقية، ويتحمَّل المسؤولية عن أعماله. وفي هذه المرحلة يفرض على الـ (أنا) القانوني والأخلاقي الإشراف على الـ (هو) الطبيعي، فتُحدَّد الغرائز والشهوات، ويتم تعديل الحاجات النفسية، ويأخذ الإنسان بتحقيق ميوله مع الأخذ بنظر الاعتبار مصلحة المجتمع واحترام حقوق الآخرين. ثم يتقدم خطوة أخرى من المرحلة الثانية نحو المرحلة الثالثة من الحياة، مرحلة الـ (أنا الأعلى)، ويوقظ في ذاته الضمير الفطري والتوجهات الأخلاقية الرفيعة، فيتخلَّق بكرائم الأخلاق وبالسجايا الإنسانية، فيصبح إنساناً حقيقياً وينال الكمال المعنوي والسموَّ الروحي.

إن السعادة تكون من نصيب الذين يطوون هذه المراحل الثلاث محتفظين بتوازنهم وتعادلهم، ليصلوا في النهاية إلى الكمال الجدير بالإنسان. ولكن، لسوء الحظ، لا يكون النجاح حليف جميع الناس في ذلك، بل يتخلَّف معظمهم عن الركب السائر في مدارج الكمال، كما سيأتي شرحه.

بعد أن يقضي فريق من الناس المرحلة الأولى من الحياة، يظلُّون يطلبون إطلاق الحرية لغرائزهم وشهواتهم، ولايعبأوا بالفضائل الأخلاقية والسجايا الإنسانية، ويريدون الاستمرار في سلوك مرحلة الطفولة ليعيشوا مثل الحيوانات.

سبقت الإشارة في الفصل السابق إلى أنَّ بعض الفلاسفة الماديِّين، منذ أيام ما

---

(٨) مذكرات فرويد: ١٠٣

قبل الميلاد حتى القرن الحاضر، كانوا يدافعون عن نظرية أصالة اللذه، والشهوة، والسلطة، أي عبادة الفرد، ويعتقدون أنّ السعادة تتحقق بإشباع الغرائز، والاستمتاع باللذائذ المادية. كان هؤلاء يرون التعاليم الأخلاقية مجرّد حفنة من التخيّلات الموهومة، ويعتبرونها عائقاً في طريق الحرية، فكانوا يوصون أتباعهم بالاستجابة لنداء الغرائز، وتحقيق رغباتهم، والسعي لبلوغ اللذائذ ما وسعهم ذلك، وأن لا يجعلوا من الفضائل والرذائل في الأخلاق مانعاً في طريق إشباع شهواتهم.

«يقول (نيتشه) الذي يؤيد هذه النظرية: علينا أن نتمتّع بالدنيا، وكلما كان ذلك أكثر كان خيراً. وكل ما يعين على بلوغ هذه الغاية ـ حتى وإن تميّز بالقسوة والعنف والمكر والخداع والاحتراب ـ يكون حسناً، وكل ما يحول دون بلوغ هذه الغاية ـ وإن تميّز بالصدق والاستقامة والمحبة والفضيلة والتقوى ـ يكون قبيحاً»[٩].

## طبيعة الافتراس

إنّ أتباع هذه الأفكار الخطرة اللّا إنسانية لا يعني سوى التخلّق بطبيعة الافتراس وسحق شرف الإنسان. وإذا ما أُبتلي مجتمع إنساني بهذه التعاسة، وأصبحت نظرية (نيتشه) المضلة (وغيره من الماديّين المتطرفين) مقبولة من لدن الأكثرية، يومئذٍ لا يبقى أثر لما يُسمّى بالعقل، والمنطق، والعدل، والإنصاف، والضمير، والأخلاق، والحقّ، والفضيلة، والطهارة، والتقوى، ويغدو الناس أشبه بالحيوانات يفترس بعضهم بعضاً، فيقوم القوي، من أجل تحقيق أنانيته ومصلحته الخاصة، بالقضاء على الضعيف، ويرتكب أنواع الظلم والقهر، ويعتبر ذلك أمراً حسناً ومتّفقاً مع الأخلاق.

إن أتباع هذه النظرية المناوئة للفطرة يقومون، في الواقع، بشطر أنفسهم، ويُخِلُّون بالتوازن الخلقي في ذواتهم. يولي هذا الفريق الغرائز الطبيعية والشهوات

---

(٩) سير الحكمة في أوربا ٣: ١٢٧.

النفسية، أو قل الجانب الحيواني الذي يؤلّف نصف بنيتهم، عناية واهتماماً يتجاوز الحدود المألوفة إلى حد الإفراط. وفي مقابل ذلك يقومون بكبت قوى العقل والضمير الأخلاقي والجانب الإنساني. الذي يؤلّف نصفهم الآخر، ويسبلون عليها رداء النسيان. هؤلاء قد أغمضوا أعينهم وصمّوا آذانهم، لا يسمعون نداء الضمير، ولا يرون الواقع، ولا يستفيدون من الطاقة العقلية لمعرفة الحق والباطل والسير في الطريق الصحيح. يقول القرآن الكريم:

**﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يفْقهونَ بِها ولَهُم أعْيُنٌ لا يُبْصرونَ بِها ولَهُم ءَاذانٌ لا يسمَعُونَ بِها أُولئِكَ كالأنعامِ بلْ هُمْ أضلُّ أُولئكَ هُمْ ٱلغافِلُونَ﴾**[١٠].

عن الإمام علي(ع)، قال: «*فالصُّورةُ صورةُ إنسانٍ، والقلبُ قلبُ حيوانٍ. لا يَعرِفُ بابَ الْهدى فيَتْبَعَهُ، ولا بابَ العَمى فيَصدَّ عنهُ فذلكَ ميتُ الأحياءِ*»[١١].

بناءً على ذلك، فإنّ هذه الفئة الأنانية أسيرةُ غرائزها وشهواتها، وهي لا تريد أن تخطو إلى خارج المرحلة الأولى من الحياة، ولا أن تترك خلقها الحيواني وتستسلم للقيود الأخلاقية التي هي من لوازم الحياة الإنسانية.

وفريق آخر يدخل المرحلة الثانية من الحياة، فيعدِّل من غرائزه وشهواته، ويحترم حقوق الآخرين، ويؤطّر ميوله بإطار الأخلاق الاجتماعية، مع فرق واحد، وهو أن لبعض أفراد هذا الفريق فضائل معنوية وسجايا إنسانية، فيؤدُّون مناهجهم الأخلاقية بدافع من الشعور بالمسؤولية والقيام بالواجب. وهناك بعض آخر لا يُعنَونَ بالفضائل، ولا بالمسؤولية الاجتماعية، وإنّما كل هدفهم من الاستقامة والتزام الموازين الأخلاقية هو المصلحة الخاصة والمنفعة الشخصيّة. ولسوف نشرح في الفصل التالي كيف أن هؤلاء يريدون بسلوكهم المستقيم والتزامهم الأخلاقي، أن يقرِّبوا أنفسهم من المجتمع، وأن يجتذبوا ثقة الآخرين، وأن يهيئوا لأنفسهم مراكز أفضل من المجتمع،

---

(١٠) سورة الأعْرَاف: ١٧٩.

(١١) نهج البلاغة، الخطبة: ٨٦.

لكي ينالوا منافع أكثر. ولكن كلا الفريقين. على كل حال، تتميزان بالاستقامة، ويحققان عملياً التعاليم الأخلاقية، سواء أكانت هذه الاستقامة دافعها الشعور بالمسؤولية وأداء الواجب،أو كانت مدفوعة بالرغبة في اجتلاب المنافع وتحقيق المصالح الخاصة في الحياة.

أمّا الفريق الثالث فأعضاؤه هم أفراد المجتمع الممتازون. فهؤلاء فضلاً عن كونهم يطوون المرحلة الثانية من الحياة بكل جدارة، ويطبّقون المناهج الأخلاقية الاجتماعية على أساسٍ من الفضائل المعنوية وبدافع من الشعور بالمسؤولية والقيام بالواجب، فإنهم يتّجهون إلى المرحلة الثالثة، ويسيرون في ظل مربّين صادقين عظام، في طيّ مدارج السموّ الإنساني، متخلّقين بمكارم الأخلاق. هؤلاء، القليل عددهم، هم الأفراد الأرفع في المجتمع، وهم أنجب تلامذة مدرسة الأنبياء الإلهيّة.

من الواضح أن التعاليم الأخلاقية موجَّهة إلى الفريقين الثاني والثالث، إذ الكلام مع الفريق الأول بشأن الفضائل والرذائل لغوٌ لا طائل فيه، لأن هذا الفريق يرى في التعاليم الأخلاقية مجموعة من الأوهام، ويعتقد أن سعادة الإنسان تتحقق في حرية الغرائز وفي كثرة الحصول على اللذائذ وإشباع الشهوات. ولكن بما أن التعاليم الأخلاقية للفريق الثاني تستند إلى الضرورة الاجتماعية. وللفريق الثالث تستهدف نيل السموّ الإنساني، فإن المناهج الأخلاقية لهذين الفريقين لا بدَّ أن تختلف بعض عن بعض.

«في هذا الموضوع يقول (هنري برجسن) وهو من علماء اللاّهوت الغربيّين: الأخلاق قسمان:

الأول: هو الذي تفرضه الطبيعة كرهاً للحفاظ على المصلحة العامة والهيئة الاجتماعية، والثاني: هو تلك الأخلاق التي تخلق النفوس القدسية بطريق القوة الجاذبة التي تأتي من العالم الأعلى. وهذا أمر إلهي، وهو التقدم والكمال المحض للفرد وللمجتمع على السواء.

القسم الأول هو أخلاق السكون، والقسم الثاني هو أخلاق الحركة. الأول

يمكن التعبير عنه بالكلمات، والثاني يصعب تبيان حقيقته. الأول لا يفيض من الفرد، بل من الهيئة الاجتماعية، وهو أمر دنيوي. والثاني، وإن يكون ذا علاقة بالدنيا، ولكنه أمرٌ إلهي، ولما كان لكل فرد طريق للاتصال بالباطل، فإنّه يفيض من النفوس ذوات البواطن، أي إن تلك الأخلاق تفيض من أفراد إلى أفراد آخرين»(١٢).

السيد برجسن يفصل بين الأخلاق الدنيوية، التي هي ضرورة اجتماعية تفرضها للمحافظة على الأمن، والأخلاق الإنسانية التي هي فيض إلهي تخلق في الإنسان نفساً قدسية. هذا العالم الذي يولي في كلامه اهتمامه إلى الجسم والروح والمادة ومعنى الإنسان بصورة مجتمعة معاً ومتوازية، يرى أن الأخلاق الدنيوية ضرورية ولازمة لبقاء الحضارة، وضمان الحياة المادية. أما الأخلاق الإنسانية. فيتحدّث عنها لنيل الكمالات المعنوية والسموّ النفسي.

## رأي الإسلام

أما في مدرسة الإسلام السماوية، فالأخلاق الحميدة تقسم إلى قسمين: الأول محاسن الأخلاق، والثاني مكارم الأخلاق. إن الأخلاق التي هي أساس العلاقات الاجتماعية، والباعثة على نيل المنافع المادية وتحسين الحياة، هي من محاسن الأخلاق. والأخلاق التي هي معيار الإنسانية وتنمّ عن نيل الطبع وسموّ الروح، هي من مكارم الأخلاق.

وبعبارة أخرى، الأخلاق الطيبة تُوصف في الأحاديث الإسلامية والروايات بحسن الخلق، ومحاسن الأخلاق، ومكارم الأخلاق، مع فارق أن عبارة حسن الخلق غالباً ما تأتي في قبال سوء الخلق، ولكن محاسن الأخلاق تأتي إلى جانب مكارم الأخلاق.

---

(١٢) سير الحكمة في أوروبا ٣: ١٨٣.

في المـواضـع التي كان أئمة الإسلام يريدون الكلام على الأخلاق الحسنة بمعناها الجامع الشامل لبيان أهميتها وقيمتها في التعاليم الإسلامية؛ كانوا يستخدمون تعبـير «حُسْن الُخلق» بالمقارنة مع «سوء الخلق» ولكي يحثُّوا أتباعهم على التحلّي بالصفات الحميدة والسجايا المطلوبة، ويحذروهم من الصفات الذميمة، كانوا يعددون الفَـوائد المادية والمعنوية لحسن الُخلق، إلى جانب ذكر مفاسد سوء الخلق وأضراره الدنيوية والأخروية.

قال رسول الله(ص): *«مِنْ سعادةِ الرَّجُلِ حُسْنُ الخُلقِ، ومنْ شقاوتِهِ سُوءُ الخُلقِ»*[١٣].

وعن أبي عبـدالله الصـادق(ع)، عن النبي(ص)، قال: *«إنَّ الخُلقَ الحسَنَ يُذيبُ الذُّنوبَ كما تُذيبُ الشَّمسُ الجَمَدَ، وإنَّ الُخلقَ السَّيِّئ ليفسِدُ العملَ كما يفسِدُ الخلُّ العسَلَ»*[١٤].

وعندما كان أئمة المسلمين يريدون تعريف الناس على السموّ المعنوي وكمال النفس ليبيّنوا للمجتمع القيم الإنسانية الرفيعة، كانوا يتحدّثون عن مكارم الأخلاق بمـوازاة الكـلام على محاسن الأخـلاق، قائلين لأتباعهم إن الهدف السامي لقادة المدرسة الإسلامية لا يقتصر على تربية المسلمين على الأخلاق الاجتماعية الطيبة، بل يرمي، إضـافـة إلى ذلـك، إلى تربيتهم على السجايا الإنسانية وحملهم على بلوغ الخصائص الإنسانية.

عن الإمـام زين العابدين(ع) قال: قال رسول الله(ص): *«بُعِثْتُ بِمكارمِ الأخلاقِ ومَحاسِنِها»*[١٥].

عن الإمام علي(ع)، قال: *«ذلِّلوا أخلاقكُم بالَمحاسِنِ، وقُودُوها إلى*

---

(١٣) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٨٣.

(١٤) مشكاة الأنوار: ٢٢١.

(١٥) (ن.م): ٢٤٣.

*المكارِم»*[١٦].

محاسن الأخلاق أساس الحياة الطيبة وداعية لتوطيد العلائق الاجتماعية، وهي تحمل الناس على تبادل الاحترام والأدب، وتفيض الودَّ والمحبة على المجتمع، وتبعث في الحياة الدفء والنشاط، وتجعل الحياة الدنيا هانئة لجميع طبقات الشعب. إن الإنصاف بمحاسن الأخلاق يكاد يكون ميسوراً لجميع الناس، فكل امرئ يستطيع بالمراقبة والمران أنْ يتخلَّق بالأخلاق الاجتماعية الحسنة، فيتعامل مع الناس بحرارة، ويؤدي واجباته بجدارة، ليتمتع بثمارها المفيدة.

قلت لأبي عبدالله الصادق(ع): ما حدُّ حُسنِ الُخلقِ؟ قال: *«تُلَيِّنُ جانبك، وتطيِّبُ كلامكَ، وتْلقى أخاكَ ببشرٍ حَسنٍ»*[١٧].

مكارم الأخلاق هي تلك الصفات التي تمنح الإنسان السموّ المعنوي، وتهبه الكمال النفساني، وتخرج التوجهات الإنسانية الرفيعة من القوة إلى الفعل. إلّا أن بلوغها من الصعوبة بمكان. فلا يبلغ التخلُّق بمكارم الأخلاق إلّا الذي استطاع أن يتغلَّب على هوى النفس، ويكبح جماح الغرائز العنيدة، ويرفض الرغبات غير الإنسانية، ويحرر نفسه من أسر الشهوات.

جاء رجل إلى الصادق جعفر بن محمَّد(ع) فقالَ لهُ: يا بنَ رسولِ الله، أخبرْني بمكارمِ الأخلاق، فقالَ: *«العفوُ عمّنْ ظَلَمكَ، وصِلَةُ مَنْ قطَعَك، وإعطاءُ مَنْ حرمَكَ، وقولُ الحقِّ ولَوْ على نَفسِك»*[١٨].

إن طهارة البدن واللباس، وتنظيف الأسنان، والبشاشة والتبسُّم، واحترام الناس، وأدب الكلام، وعيادة المريض، وتعزية المصاب، وصفات أخرى من هذا القبيل هي من محاسن الأخلاق، ومن عوامل المحبَّة الاجتماعية. ولكن ليس أيٌّ منها دليل على

---

(١٦) تحف العقول، الحراني: ٢٢٤.

(١٧) معاني الأخبار، الصدوق: ٢٥٣

(١٨) أمالي الصدوق: ١٦٩ .

أن صاحبها صادق ويريد وجه الله.

«يقول (ويل دورانت): كان (اناتول فرانس) يرى الأخلاق في حفظ الصحة، ولكن قد يلتزم شخص جميع تعليمات النظافة وحفظ الصحة، ثم يكوّن ثروته من الإتجار بالمخدّرات. أو داعر يتقيد بمبادىء علم الصحة، ثم يرجّح الفحشاء على الزواج، ويفضّل رعاية صغار الكلاب على الأطفال ورعايتهم، ويرى دمار البلاد خيراً من عزتها وقوتها»[١٩].

إن رعاية الحقّ والفضيلة، وتنفيذ العدالة، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، والتضحية، والكرم، والإيثار، والمواساة، وسائر الصفات الإنسانية الرفيعة هي من مكارم الأخلاق، ودليل على السموّ المعنوي. إن إتصاف الشخص بهذه الصفات يحكي عن إنسانيته، وهي شاهد على نبله وعظمته النفسية. إن الذين تطبّعوا على مكارم الأخلاق، واكتسبوا السجايا الإنسانية، يتمتعون بإرادة قوية وعزم حاسم، ولا يضعفون أمام الشهوات والأهواء النفسية، ويصعب حملهم على الانحطاط والضعة وإضاعة شخصياتهم المعنوية وتلويث أذيالهم بالآثام اللّا إنسانية.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*مَنْ أَحبَّ المكارِمَ اجْتَنَبَ المحارِمَ*»[٢٠].

إن الكائن البشري مزيج من الجسد والروح، من المادة والمعنى، من الغريزة والعقل. إنّه كائن ذو جانبين، جانب بشري، وآخر إنساني. محاسن الأخلاق هي التي تضمن للإنسان الحياة البشرية وتحسين الحياة المادية. ومكارم الأخلاق تعمل على إحياء الجانب الإنساني في الإنسان، وإكمال جهاته المعنوية. إن السعادة الحقيقية والشاملة تكون من نصيب الذين يعنون بكلا جانبيّ الحياة المادي والمعنوي معاً، فيسعون لبلوغ الكمال من الجانبين، ويستمتعون بمزايا الحياة البشرية والإنسانية.

وهذا النهج الجامع الكامل قد وضعت بنوده مدرسة الإسلام السماوية، وما برح

---

(١٩) مباهج الفلسفة: ١١٣

(٢٠) الإرشاد، المفيد: ١٤١.

أئمة المسلمين الكرام يدعون أتباعهم إلى محاسن الأخلاق ومكارمها، وكانوا يشيرون إلى كلا الجانبين على السواء، وإن كانوا يشيرون خلال ذلك إلى أن مكارم الأخلاق أشدُّ تأثيراً في ضمان النجاة وسعادة الإنسان من محاسن الأخلاق. وسوف نورد في هذا الفصل بعض الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الإسلامية التي تتناول الجانبين، إضافة إلى ذكر بعض أقوال العلماء في هذا الشأن.

لمحاسن الأخلاق تأثير كبير في خلق الفوائد المادية للحياة البشرية وتحسينها. تعتبر محاسن الأخلاق في الحياة الدنيوية والعلاقات الاجتماعية رمز النجاح والتوفيق، وهي طريق الوصول إلى فوائد أكثر وحياة أفضل.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*في سعةِ الأخلاقِ كُنوزُ الأرْزاق*»(٢١).

وعن العالم الإمام موسى بن جعفر(ع)، قال: «*لَا عيشَ أغنى من حُسنِ الخُلْقِ*»(٢٢).

ومحاسن الأخلاق تكون في المحيط الاجتماعي أساس الطمأنينة والإحساس بالأمن وراحة البال وهدوء الأعصاب. ففي المحيط الذي يشعر أفراده بالمسؤولية ويتخلّقون الأخلاق، تكون أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم مصونة ولا تُعرَّض للاعتداء، ولهذا يكون الناس أقل قلقاً واضطراباً وغضباً ومخاصمة وجدالاً، وغير ذلك مما يسبب إصابة الجسم والنفس بمختلف الأمراض. في مثل هذا المجتمع تسيّر الطاقات البشرية في مجاري العمران والتطوير، ويجري العمل للمصلحة المشتركة ولتحسين الحياة. وبالنتيجة يحظى الجميع بحياة طبيعية، ويقضون حياتهم بسلامة وطول عمر.

قال الإمام الصادق(ع): «*البرُّ وحُسنُ الُخلقِ يَعمُرانِ الدّيارَ ويزيدانِ في الأعْمارِ*»(٢٣).

---

(٢١) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ١٣٠.

(٢٢) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٨٢.

(٢٣) الكافي ٢: ١٠٠.

محاسن الأخلاق سر المحبوبية، وطريق النفوذ في الآخرين. وهي تؤلّف بين القلوب، وتُحكم العلائق المعنوية. والمؤدب ذو الأخلاق يحظى دائمًا بحب الناس ومودتهم، وتعامله الطبقات كافة بحرارة وبشاشة، وتنظر إليه بعين التقدير والاحترام.

عن الإمام الصادق(ع)، قال: *«قال لقمانُ: يا بُنيَّ حَسِّنْ مَع جميعِ النّاسِ خُلْقَكَ. إن عدِمَكَ ما تصِلُ بهِ قرابتَكَ وتتفضَّلُ بهِ على إخوانِكَ، فلا يعْدَمنَّكَ حُسنُ الخلْقِ وبسطُ البِشرِ، فإنَّهُ منْ أحسنَ خُلْقَهُ أحبَّه الأخيارُ وجانبهُ الفُجّارُ»*[٢٤].

يقول علي الاسكافي: كنت حاجب أمير بغداد وكنت أؤدي الوظائف المتعلقة بالحجابة. وقد ساءت أوضاعي وأخذ الأمير يشك بي، وقد أصدر أمراً بسجني ومصادرة أموالي كلها. وسجنت فترة من الزمن وعانيت الذلّة واليأس والألم.

وفي أحد الأيام أخبرني شرطة السجن بمجيء إسحاق بن إبراهيم الطاهري رئيس شرطة بغداد وذلك لاحضاري فانتابني القلق كثيراً وخفت على حياتي فيأست من الحياة ثم اقتادوني إليه فسلَّمتُ عليه بكل احترام، ضحك إسحاق عليَّ وقال: إن أخي عبدالله بن طاهر بعث لي برسالة من خراسان يطلب فيها شفاعتك، لقد وافق أمير بغداد على شفاعتك. وأصدر الأمير أمراً بإطلاق سراحي من السجن واسترجع جميع أموالي. ثم قال لي: الآن تستطيع الذهاب إلى بيتك. فشكرت الله ومن شدة الفرح سقطت دموعي.

في اليوم الثاني ذهبت لزيارة الأمير إسحاق الطاهري وشكرته على صنيعه الحسن ودعوت الله له بالخير وقلت له: إني لم أحضر لزيارة عبدالله وهو لا يعرفني، فما هو السبب في عطفه عليَّ وعنايته بي. فقال: قبل عدة أيام وصلت رسالة من أخي وكتب فيها ما يلي: كانت مكاتيب أمير بغداد قبل الآن تُشعر باللطف والمودة والمحبة وكان حاجب الأمير يكتب عبارات رائقة وكانت تلك الرسائل السبب في استحكام العلاقات الحسنة وتقوية العواطف والأُلفة فيما بيننا وبعد مدة تغير تعبير الرسائل

---

(٢٤) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٨٣.

وبدت فيها الخشونة والسماجة.

ويقول: إن هذه التغيرات كانت من قبل الأمير حيث عزل الحاجب وسجنه واستبدله بغيره ولكن الحاجب السابق كان شخصاً عارفاً بوظيفته وله أُسلوب خاص بكتابة الرسائل وكان يراعي مراتب الأدب والاحترام فتجب حمايته ومعرفة معصية الحاجب، فإذا كانت معصيته قابلة للعفو فأنا أعفو عنه، وإذا كان إخراجه بسبب مال فيسدد من حسابي واطلب من الأمير العفو عنه وإرجاعه إلى عمله السابق فأنا قد أديت رسالة أخي إلى الأمير، ومن حسن الحظ فقد قُبلت شفاعته عند الأمير.

بعد هذا التفصيل من قبل إسحاق الطاهري، أعطاني عشرة آلاف درهم قال هذه هدية الأمير لحبه لك. وبعد عدة أيام رجعت إلى عملي السابق حاجباً للأمير ورجعت عزتي مرة أخرى وحلّت مشاكلي واحدة تلو الأخرى»[٢٥].

لقد سقط كاتب أمير بغداد، وكان يمكن أن يبقى طوال عمره في التعاسة وسوء الحظ، ولكنه كان متخلّقاً بمحاسن الأخلاق. في أيام اشتغاله كان يلجأ إلى محاسن أخلاقه، يلتزم جوانب الاحترام والأدب في ما يكتب من رسائل، فكان هذا سبباً في نجاته. وأمير خراسان الذي كان يحمل ذكريات طيبة عن أخلاقه الحسنة ورسائله الوديّة، ويحبُّه لذلك، قام بالتشفُّع له، وعمل على إطلاق سراحه من السجن، وإعادة أمواله إليه، وإرجاعه إلى وظيفته، كل ذلك من أجل قلمه المؤدب ومضامين رسائله الدافئة. فلا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن حسن خُلق هذا الكاتب وأدبه أعادا إليه كرامته ومقامه، وأبدلا ذلّه عزّاً.

قال الإمام علي(ع): *«رُبَّ عَزيزٍ أذلَّهُ خُلقهُ، ورُبَّ ذليلٍ أعزَّهُ خلقُهُ»*[٢٦].

بناءً على ذلك فإن الالتزام بمحاسن الأخلاق أمر ضروري للمحافظة على الأمن الاجتماعي وتحسين الحياة. جميع أفراد المجتمع مكلّفون، دينياً وعلمياً، بأن

---

(٢٥) جوامع الحكايات: ٢٧١.

(٢٦) سفينة البحار، القمي، «خلق»: ٤١١.

يحترموا حقوق الآخرين وحدودهم، وأن يطابقوا بين مصلحتهم والمصلحة العامة، وأن يصلحوا من غرائزهم، وأن يمتنعوا عن القيام بما تمليه عليهم رغباتهم التي تتعارض مع الأخلاق. محاسن الأخلاق تزيد الرزق، وتربي الثروة، وتجلب العزّة الاجتماعية، وتعمر البلاد، وتحبّب صاحبها إلى الناس. ولكن أئمة الإسلام تحدّثوا عن مكارم الأخلاق أيضاً، بالإضافة إلى كلامهم على محاسنها، بهدف إيصال أتباعهم إلى المرحلة الثالثة من الحياة، بتخلّقهم بالسجايا الإنسانية الرفيعة.

تختلف محاسن الأخلاق عن مكارمها في جوانب عدة:

فمحاسن الأخلاق وسيلة للرفاه في الحياة الدنيا المادية، ومكارم الأخلاق هي طريق الوصول إلى السموّ المعنوي.

محاسن الأخلاق تُسبغ على الحياة البشرية النظام والانضباط، ومكارم الأخلاق تشبع في الإنسان ميوله الإنسانية الرفيعة.

محاسن الأخلاق كثيراً ما تنسجم مع حبّ الذات المشروع والميول الفردية، ومكارم الأخلاق أقرب إلى أن تتوجه نحو حبّ الآخرين.

التزام محاسن الأخلاق دليل على الشعور بالمسؤولية الاجتماعية، والتزام مكارم الأخلاق دليل على النبل والتكامل الإنساني.

وعليه، فيمكن القول، مع علماء النفس، بأن تطبيق محاسن الأخلاق دليل على الوصول إلى مرحلة الـ (أنا)، والتخلّق بمكارم الأخلاق دليل على الوصول إلى مرحلة الـ (أنا الأعلى) الشامخة.

إن المتخلّقين بمحاسن الأخلاق الواصلين إلى مرحلة الـ (أنا) لا يستسلمون لغريزة الغضب وحب الانتقام إذا ما نالهم سوء من أحد، ولا يتبعون الـ (هو)، بل يعملون بما يشير عليهم القرآن به:

﴿وجزاءُ سيّئةٍ سيّئةٌ مثلُها﴾[٢٧]. فالمسيء يستحق من العقاب بقدر إساءته،

---

(٢٧) الشورى: ٤٠.

لا أكثر.

والمتخلّقون بمكارم الأخلاق الذين وصلوا مرحلة الـ (أنا الأعلى)، إذا ما أُسيء إليهم، فإنهم يتنازلون عن حقهم الخاص، إذا كان ذلك في صالح المجتمع، فيعفون عن المسيء، ويعملون بما يشير عليهم به الجزء الثاني من الآية القرآنية نفسها:

﴿فمن عَفا وأصْلَحَ فأَجرُهُ علَى ٱللهِ﴾[٢٨].

كان أنبياء الله متحلّين بمكارم الأخلاق، وقد أمرهم الله أن يربُّوا أتباعهم على الصفات الإنسانية العالية، وأن يربُّوا فيهم مكارم الأخلاق التي هي من صفات الـ (أنا الأعلى)، وأن يمتّعوهم بنعمة كرامة النفس الثمينة وعظمة الطبع ونبله.

عن الإمام أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: *«إن الله عزَّوجلَّ خصَّ رسلَهُ بمكارمِ الأخلاق، فامتَحِنُوا أنفسكُمْ؛ فإنّ كانتْ فيكُم فاحمَدُوا الله واعلموا أنَّ ذلكَ من خيرٍ، وإن لم تكُنْ فيكُم فاسألُوا الله وارغبوا إليه فيها»*[٢٩].

عن الإمام الرضا(ع)، عن آبائه، قال: قال رسول الله(ص): *«عليكُم بمكارمِ الأخلاقِ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ بَعثني بهَا»*[٣٠].

إن لحب الآخرين وللميول الإنسانية العالمية ـ وهي أساس كرامة النفس وعظمتها ـ جذوراً فطرية في ذات الإنسان، فإذا ما روعيت وتمت تربيتها تربية سليمة، وصل الإنسان إلى مرحلة التخلُّق بمكارم الأخلاق. غير أن حبَّ الذّات والدوافع الغريزية من القوة والسيطرة بحيث إنها تتسلَّط على وجود الإنسان برمَّته، ولا تفسح المجال لحب الآخرين وللميول الإنسانية الأخرى للقيام بأيّ نشاط، بل تكبتها وتلقي عليها رداء النسيان.

---

(٢٨) (ن.م).

(٢٩) الكافي، الكليني ٢: ٥٦.

(٣٠) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٢٨٣.

إن الذين يحبون ذواتهم ويعبدونها إنّما هم إلى الطبيعة الحيوانية أقرب، فهم دائمًا متوجّهون إلى أنفسهم ولا يفكّرون إلّا بها، ويغفلون غيرها، وفي تحقيق رغباتهم النفسية يبذلون كل سعي لإشباع غرائزهم وضمان ملذاتهم وشهواتهم، وفي سبيل إزالة العوائق عن طريقهم لا يتورّعون عن ارتكاب الأعمال الغاضبة الفظّة من هدمٍ وتخريبٍ وحقدٍ وانتقام وما إلى ذلك.

وثمة آخرون من عظماء الرجال المحبّين للناس يسيرون في طريق الإنسانية وأخلاقها، ويُعنَون بسعادة الآخرين، وتقديم العون والمساعدة لهم. إنهم رجال الإحسان والمواساة في موضع إعانة الضعفاء ومساعدة المحتاجين، ويوفّرون للفقراء ومسائل العيش على قدر إمكانهم، وقد يؤثرونهم على أنفسهم، من باب الكرم والسخاء. وفي حالات وقوعهم هدفاً لأذى الآخرين، فهم فضلاً عن كونهم لا يندفعون لافتراس المؤذي والانتقام منه ورد الإساءة بمثلها، فإنهم في قبال تلك الإساءة يعاملون المسيء بالإحسان، وبهذا يساهمون في إصلاح أخلاق المسيئين، وهذا هو معنى مكارم الأخلاق.

### هدف الأنبياء

تلقّى الأنبياء الإلهيُّون الأوامر الإلهيّة بتربية المجتمعات البشرية تربية إنسانية، وتلقينهم التحلّي بمكارم الأخلاق، وتذكيرهم بما نسوه مما هو في فطرتهم، وإيقاظ حبّ الآخرين في نفوسهم، واستثارة هممهم العالية المكبوتة فيهم، وتحويل ضمائرهم الغافلة إلى ضمائر واعية، وإقامة مدارسهم التربوية على أساسٍ من الفطرة الإنسانية السامية.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*...فبعثَ فيهم رسلَهُ، وواترَ إليهِم أنبياءَهُ، ليستأدُوهُم ميثاقَ فطرتِهِ، ويذكِّروهُم مَنسِيَّ نعمَتِهِ*»[٣١].

---

(٣١) نهج البلاغة، الخطبة: ١.

فلكي يحارب أئمة الإسلام عبادة الذّات والطبيعة الحيوانية، ويمهدوا الطريق لحب الآخرين والأخلاق الإنسانية أمام الناس ليتخلّقوا بمكارم الأخلاق، كانوا يحثّون أتباعهم، من جهة، على ممارسة التعاون والإيثار، وهما من مكارم الأخلاق، ويؤكدون ذلك كثيراً، ويطالبونهم، من جهة أخرى، بالتحلّي بالنبل والعفو الأخلاقي، وهي من الصفات الإنسانية السامية، ويحذرونهم من أخطار حب الانتقام الذي هو دليل طبيعة مفترسة. وهناك بشأن هذين القسمين روايات وأحاديث كثيرة، نستشهد ببعض منها:

### القسم الأول: التعاون والسعي في قضاء حوائج الناس

عن الإمام علي(ع)، قال: «*يَا عجَباً لرجلٍ مسلمٍ يجيئُه أخوهُ المسلمُ في حاجةٍ فلا يرى نفسه للخيرِ أهلًا، فلَو كانَ لا يَرجُو ثواباً ولا يَخْشى عقاباً، لقد كانَ ينبغي لَهُ أن يُسارعَ إلى مكارمِ الأخلاقِ فإنّها مما تدلُّ على سبيلِ النّجاة*»[٣٢].

عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبدالله الصادق(ع) يقول: «*أيُّما رجلٍ من أصحابنَا استعانَ به رجلٌ من إخوانِه في حاجةٍ فلم يبالغْ فيهَا بكلّ جُهْدِهِ فقدْ خانَ الله ورسولَه والمؤمنين*»[٣٣].

### القسم الثاني: العفو الأخلاقي والامتناع عن الانتقام

«*... يا ابنَ جُندُبٍ، صِلْ مَنْ قطعَكَ، وأعطِ مَنْ حرمَكَ، وأحْسِنْ إلى من أساءَ إليكَ، وسَلّمْ على مَنْ سَبَّكَ، وأنْصفْ مَنْ خاصمَكَ، واعفُ عمَّنْ ظلَمَكَ*»[٣٤].

«*اللّهمّ صلِّ على محمّدٍ وآله، وسدّدني لأن أُعارضَ من غَشَّني بالنُّصحِ، وأُجزىَ من هجَرَني بالبِرِّ، وأُثيبَ منْ حرمَني بالبَذْلِ، وأُكافىءَ مَنْ قطعَني بالصِّلةِ، وأُخالفَ من*

(٣٢) المحجّة البيضاء، الكاشاني ٤: ١٢١.

(٣٣) وسائل الشيعة، العاملي، كتاب الأمر بالمعروف: ٩٨.

(٣٤) تحف العقول، الحراني: ٣٠٥.

*اغتـابَني إلى حُسْنِ الذِّكْرِ، وأنْ أشْكُرَ الحسنَةَ، وأُغضِيَ عن السَّيِّئَةِ»* (٣٥).

إن مقابلة إساءات الناس بالإساءة والانتقام منهم مدعاة إلى تفاقم الكدر، واشتداد الحقد والعداء، وعلى عكس ذلك، فإنّ الإغضاء عن الزلل الأخلاقي عند الآخرين، ومقابلة إساءاتهم بالإحسان، يؤديان إلى إزالة الكدر، وتبديل العداء حباً، وحمل المسيئين على الامتناع عن سلوكهم اللاّ أخلاقي، ودفعهم إلى طريق الطهارة والفضيلة. بيدَ أن إطفاء نار الغضب، وكبحَ جماحِ حبِّ الانتقام، من الصعوبة بمكان كبير، لا يقدر عليهما إلاّ أصحاب النفوس الكبيرة ومكارم الأخلاق، فهم الذين يخلق بهم أن يردُّوا على إساءات الآخرين بحسن السلوك.

**﴿ولاتَسْتَوي ٱلحسَنَةُ ولا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدفَعْ بٱلَّتي هِيَ أحسَنُ فإذا ٱلَّذي بينَكَ وبيْنَهُ عداوَةٌ كأنَّهُ وليٌّ حميمٌ * ومَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ٱلَّذينَ صبرُوا وما يُلقَّاهَا إلاَّ ذو حَظٍّ عظِيمٍ﴾** (٣٦).

أخبرني أبو محمَّد الحسن بن محمَّد، قال: حدَّثني جدّي، قال: حدَّثني محمَّد بن جعفر وغيره، قالوا: وقف على علي بن الحسين(ع) رجل من أهل بيته، فأسمعه وشتمه، فلم يكلّمْهُ. فلما انصرف،قال لجلسائه: *قد سمعتم ما قال الرَّجل، وأنا أُحبّ أن تبلغوا معي إليه حتى تسمعوا مني ردّي عليه*.

قال: فقالوا له: نفعل، وقد كنّا نحبُّ أن تقول له ونقول. قال: فأخذ نعليه ومشى وهو يقول: «**﴿وٱلكاظِمينَ ٱلغَيظَ والعافِينَ عن النَّاسِ واللهُ يُحبُّ ٱلمحسنين﴾**» (٣٧).

فعلمنا أنه لا يقول له شيئاً. قال: فخرج حتى أتى منزل الرجل، فصرخ به، فقال: قولوا له: هذا علي بن الحسين. قال: فخرج إلينا متوثباً للشرّ، وهو لا يشكُّ أنَّه إنّما جاء مكافياً له على بعض ما كان منه. فقال له علي بن الحسين(ع): *« يا أخي، إنَّك*

---

(٣٥) الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق.

(٣٦) فُصّلت: ٣٤ و ٣٥.

(٣٧) آل عمران: ١٣٤.

*كنت وقفت عليَّ آنفاً وقلت وقلت، فإن كنت قد قلتَ ما فيَّ، فأنا أستغفرُ الله منه، وإن كنتَ قلتَ ما ليسَ فيَّ، غفرَ الله لكَ».*

قال: فقبَّل الرجل ما بين عينيه وقال: بلى، قلتُ فيكَ ما ليسَ فِيكَ، وأنا أحَقُّ به[٣٨].

كان الإمام زين العابدين(ع) قادراً على التحدّث مع ذلك الرجل بخشونة، وعلى معاقبته بموجب الموازين الشرعية، ولكنه فضلاً عن كونه لم يشتدَّ في الكلام معه ولم يعاقبه، فإنَّه واجهه بكل نبل وأدب، وقابل عمله السيّىء بالإحسان، فناداه أوَّلاً بـ: يا أخي، فأوجد بذلك جوّاً من المحبَّة والتفاهم، ومن ثمّ أشار إلى أقواله. وعلى الرغم من وضوح الحقيقة، ومن معرفة كليهما بمن هو المذنب، فإنَّ الإمام السّجاد(ع) لم يتهمه بالذنب، بل طلب من الله المغفرة للمذنب الحقيقي، بادئاً بنفسه.

بعمله الكريم هذا عفا الإمام عن ذنب الرجل، وطلب له المغفرة، ودعا له بالخير، وبذلك قابل عمله السيّىء بالإحسان، فكانت النتيجة أن ثاب ذلك الرجل الجريء إلى صوابه، واعترف بذنبه أمام الحاضرين، وترك بعد ذلك الافتراء والخصام.

إن تلامذة المدرسة الإسلامية، الذين تعلَّموا دروس النبل والفضيلة من أئمة الـدين، حذوا حذو قادتهم ومارسوا مكارم الأخلاق في تعاملهم الاجتماعي، فكانوا يقابلون المسيء بالسجايا الإنسانية وبالعفو الأخلاقي، فيدفعونه بذلك نحو السير في طريق الاستقامة والطهارة.

حُكي أنَّ مالكاً الأشتر كان مجتازاً بسوق الكوفة وعليه قميص خام وعمامة منه، فرآه بعض السوقة فازدرى بزيه، فرماه ببندقة تهاوناً به. فمضى ولم يلتفت. فقيل له: ويلك، أتدري بمن رميت؟ فقال: لا. فقيل له: هذا مالك، صاحب أمير المؤمنين(ع). فارتعد الرجل ومضى إليه ليعتذر منه، فرآه وقد دخل مسجداً وهو قائم يصلي. فلما انفتل، أكب الرجل على قدميه يقبلها، فقال: ما هذا الأمر؟ فقال: أعتذر إليك مما

---

٣٨. الإرشاد، المفيد، ٢٤٠

صنعت. فقال: لا بأس عليك. فوالله ما دخلت المسجد إلّا لأستغفرنَّ لك[٣٩].

لو أنَّ ابناً واجه أباه، أو أيَّ شخص واجه أرحامه، بارتكاب مثل هذه الإهانة، فإنَّ الذين وجهت إليهم الإهانة، وإن كانوا من أرحام المهين، ما كانوا ليقفوا مكتوفي الأيدي إزاء ذلك. وإذا كانت صلة الرحم تمنعهم من إنزال العقاب به، فإنهم كانوا، في الأقل، ينظرون إليه بغضب وحنق، كحدٍّ أدنى من ردِّ الفعل. غير أنّ مالكاً الأشتر، المتخلّق بمكارم الأخلاق ونبل الطبع، تخطّى العواطف الرحمية، وزاد عليها بعدم اتّخاذ أيَّ إجراء إزاء العمل المهين الذي ارتكبه ذلك الرجل الجاهل، بل دعا الله بكل خلوص نيّة وحب للخير أن يغفر للرجل.

قال الإمام علي(ع): *«الكَرَمُ أعطَفُ مِنَ الرَّحِمِ»*[٤٠].

## متى تستعمل مكارم الأخلاق؟

ولكيلا ينتقد بعض الجهلاء التعاليم الإسلامية، أو يقوم بعضهم عن سوء نيّة بلوم الأخلاق الإسلامية، لا بدَّ لنا في ختام البحث من أن نشير إلى نقطة مهمَّة، وهي أنَّ في الدين الإسلامي المقدَّس لا يعتبر الإحسان المالي والمواساة والعفو والتغاضي ذوات قيمة معنوية وإنسانية، إلّا إذا مورست في مواضع جديرة بها وبالنسبة لأشخاص يستحقونها، حتى تكون ذات تأثير مثمر من الناحية الفردية والاجتماعية. أمّا إذا كان هناك أشخاص تجعلهم الإعانات المالية يخلدون إلى الكسل والبطالة، ويتربَّون تربية وضعية، ويبقون كَلّاً على المجتمع، أو أن التغاضي عن إساءاتهم والعفو عنهم يزيدهم جرأة واعتداءً، فيرتكبون أعمالهم اللا أخلاقية السيِّئة بمزيد من التطاول والاجتراء، فهؤلاء ليسوا جديرين بنيل العطف والمحبة والعواطف الإنسانية ولا بأن تشملهم مكارم أخلاق الفضلاء من الرجال. إن الإعانات المالية والأخلاقية

---

(٣٩) مجموعة ورّام ١: ٢.

(٤٠) نهج البلاغة، الحكمة ٢٣٩

لأمثال هؤلاء لا تكون مذمومة فحسب، بل هي مضرَّة، وقد حذَّر منها أئمة الدين أتباعهم، كما ورد في كثير من الروايات.

في الوصية التي أوصى بها الإمام علي(ع) ولده الحسن(ع)، دعاه إلى التحلّي بالسجايا الإنسانية، مشيراً إلى بعض مكارم الأخلاق، ثم أوصاه مباشرة بقوله:

*«وإيّاكَ أن تضعَ ذلكَ في غيرِ موضِعِهِ، أو أن تفعلَهُ بغيرِ أهلِهِ»*[٤١].

«في مسيرة الإنسان نحو تكامله لا بدّ أن تنحدر غريزة حب الذّات نحو الضعف، وتقوى صفة حبّ الآخرين، حتى يصبح الناس مستعدين لتقديم كل أنواع التضحية بعض لبعض من دون أن ينتظر أحد من أحد أن يضحّي له بكل شيء. ولكن هنا لا بدَّ من الحذر لئلا يصبح حبُّ الآخرين وسيلة لتخريج أُناس ناقصين عاطلين بطّالين يكونون عالة على الآخرين، لأن ذلك بذاته سيكـون حائلاً دون التكامل. فلا بدَّ أن يعتبر كل فرد نفسه مسؤولاً عن معيشتـه، وأن تكـون له حرية العمـل طبقاً لهذه المسؤولية، هذا مع أن من التكامل الإنساني أن يحسَّ الفرد بمسؤوليته نحو أفراد المجتمع مثلما يحسَّ بها نحو أفراد عائلته في بيته. ولكن ينبغي ألّا ننسى أن الأفراد في الهيئة الاجتماعية ليسوا كلهم أطفالاً تجب تربيتهم في الأحضان، ويؤخذ بأيديهم في كل الأمور، بل يجب تركهم لكي يسيروا على أقدامهم بأنفسهم»[٤٢].

كثـيراً ما اتفق في صدر الإسـلام أن فقـراء أو معاقين كانوا يدخلون على النبي(ص)، أو على الأئمـة الـطاهـرين(ع)، يشكون حالهم وفقرهم، ولكن أئمة المسلمين كانوا بدلاً من أن يقدّموا لهم المعونات المالية، يحثّونهم على العمل.

يقول زرارة: جاء رجل إلى الإمام الصادق(ع)، قائلاً: إن يده غير سليمة ولا يستطيع أن يتقن بها عملاً، وإنه لا مال عنده كي يشتغل بالتجارة، وإنه إنسان معدم

---

(٤١) نهج البلاغة، الرسالة: ٣١.

(٤٢) سير الحكمة في أوربا ٣: ١١٥.

ومحتاج. فقال له الإمام: «*اعْملْ واحملْ على رأسك واسْتَغْنِ عن النّاس*»[٤٣].

لقد رأى الإمام أن الرجل يستطيع أن يعمل برأسه السالم، حسب العادات المحلية، فيحمل عليه الأحمال، لذلك لم يرض له أن تتحطّم شخصيته وعزّة نفسه بذلّ السؤال ليكون كَلّاً على المجتمع.

إن العفو عن المسيء والتغاضي عن أعماله الرديئة، في مواضع مناسبة وبحق من هو أهل لذلك، من الأمور الممدوحة، ولكن عندما يكون هذا العفو والإغضاء على خلاف المصلحة ويسبب الضرر لا يكون ممدوحاً فعله.

عن الإمام علي بن الحسين(ع)، قال: «*وحقُّ مَنْ ساءَكَ أنْ تعفُوَ عنْهُ، وإنْ علِمْتَ أنَّ العَفْوَ يضُرُّ، انتصَرْتَ*»[٤٤].

عن أبي جعفر محمَّد بن علي(ع) قال: كان علي(ع) إذا صلّى الفجر لم يزل معقباً إلى أن تطلع الشّمس، فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس فيعلمهم الفقه والقرآن، وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك، فقام يوماً فمر برجل فرماه بكلمة هجر ـ قال: ولم يسمّه محمَّد بن علي(ع) ـ فرجع عوده على بدئه حتى صعد المنبر وأمر فنودي: الصَّلاة جامعة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«*أيُّها النَّاس إنّه ليسَ شيء أحبُّ إلى الله ولا أعمّ نفعاً من حلم إمامٍ وفقهه، ولا شيء أبغضُ إلى الله ولا أعمّ ضرراً من جهل إمامٍ وخرقه، ألا وإنه لم يكن له في نفسه واعظ لم يكن له من الله حافظ، ألا وإنه من أنصف من نفسه لم يزده الله إلا عزّاً، ألّا وإن الذلّ في طاعة الله أقرب إلى الله من التعزز في معصيته: أما إني لو أشاء لقلت*، فقال رجل: أو تعفُو وتصفَحُ فأنتَ أهلٌ لذلكَ. فقال: عفوت وصَفَحْتُ»[٤٥].

كثيراً ما اتفق في حياة الإمام علي(ع) أن تجرّأ عليه بعض الجهلة وافتروا عليه

---

(٤٣) المحجّة البيضاء، الكاشاني ٣: ١٤٣.

(٤٤) مكارم الأخلاق، الطبرسي ٢٣٤.

(٤٥) بحار الأنوار، المجلسي ٤١: ١٣٢.

بعض الأقـاويل، فعفا عنهم الإمام وقابل إساءتهم بالإحسان، إذ إن العفو عنهم والتغاضي عن إساءاتهم لم يكن لينتج عنهما أيَّ ضرر، بل كانا أحياناً يعتبران نوعاً من العقاب لهم يحملهم على ترك هذه الرذيلة. ولكن في مثل هذه الحالات كان العفو مع السكوت يسبب أضراراً، لأن العفو من دون قيد ولا شرط كان قميناً بأن يُحمل على ضعف الإمام، وكان هذا ربما حمل المسيء على المضي في إساءاته أكثر. ولهذا عزم الإمام على تعنيف المسيء وإخراج فكرة الأعمال العدوانية من رأسه.

كان الإمـام(ع) يومئـذٍ هو رئيس الـدولـة، وكان بإمكانه أن يطبِّق الحدود الإسلامية بحقه، ولكنه لالتزامه مكارم الأخلاق، ولعدم رغبته في إغلاق باب الندم وطلب العفو في وجه الرجل، عاد إلى المسجد ودعا الناس إلى التجمع، ووضع الرجل أمام الرأي العام، فتحدَّث أوّلاً عن حلمه وفقهه، ومن ثم أفهم الناس، بصورة غير مباشرة، أن حدثاً قد وقع، وأن إمامهم قد تحمَّل الحدث صابراً عارفاً بالتعاليم الإلهيّة، ودعاهم إلى المسجد ليطلعهم على الأمر. ثم استدعى الرجل المذنب للحضور أمام الناس، وقال له: إن لي أن أقول ما يقال. إلاّ أن الرجل، الذي كان من ذوي السوابق السيئة، وجد نفسه معرّضاً لخطر كبير، وأدرك أن الإمام إذا كشف حاله وأطلع الناس على ما قاله قبل ساعة، فإن المجتمع سوف ينبذه، فتصبح الحياة صعبه عليه ومريرة، وسيبقى حتى نهاية عمره سجين الرأي العام. لذلك، وقبل أن ينهتك ستره وتسقط كرامته، بادر إلى التحدّث عن عفو الإمام وإغضائه، ونعته بأنه رجل العفو والتغاضي، طالباً بذلك عفوه، فاستجاب له الإمام بكل نبل وعظمة، وعفا عن ذنبه.

إن الإمام(ع)، باستنصاره الرأي العام، قد عاقب الرجل في الواقع، وحطّم غروره وعناده، وأوقفه عن الاستمرار في أعماله السيِّئة، وإن عفا عنه في النهاية، ولكن هذا العفو الذي كان بطلب من المذنب تضمّن اعترافه بالذنب وتذلُّله في الطلب. وبديهي أن مثل هذا العفو يختلف عمّا لو بادر الإمام بعرضه أوّلاً.

نخلص من هذا البحث إلى أن الناس من حيث الأخلاق ينقسمون إلى ثلاث فئات:

**الفئة الأولى:** هم الذين يحبّون ذواتهم ويركضون وراء اللذّة، ويشبهون في أخلاقهم وطبائعهم الحيوانات، فيرون الأخلاق في حرية تحقيق الأهواء والشهوات، وفي إشباع الغرائز بغير قيد ولا شرط. هؤلاء ينظرون إلى الإنسان من الناحية المادية ومن حيث صفاته البهيمية فقط، دون أن يلتفتوا إلى جوانبه الإنسانية السامية. السعادة عند هؤلاء هي التمتع باللّذائذ، وإشباع الشهوات، وتحقيق الأهواء النفسية، ولا يقيمون وزناً للفضائل الأخلاقية، ولا للسمو المعنوي، أو السجايا الإنسانية.

أتباع اللذّة لم يعرفوا الإنسان كما هو، ولم يفهموا جميع أبعاد وجوده، ولم يحكموا عليه من وجهة نظر واقعية، ولهذا السبب راحوا يدافعون عن شهواته ورغباته الغريزية التي تمثّل جانبه الحيواني وبُعده المادي الخارجي فقط، وأهملوا النظر إلى جانبه الأخلاقي والمعنوي الذي هو جانبه الإنساني وبُعده الروحي الباطني، وتناسوه كلياً.

نخلص من كل ذلك إلى أنّ هذه الفئة ترى أن هدف الإنسان هو الاستمتاع الفردي وتحقيق الأهواء، وعلى حد قول (نيتشه): كل شيء يساعد على بلوغ هذا الهدف فهو حسن،وحتى وإن اتّصف بالعنف والقسوة والمكر والخداع والحرب والخصام، وكل ما أعاق بلوغ هذا الهدف فهو سيّئ، حتى وإن اتّصف بالصدق والاستقامة والمحبة والود والفضيلة والتقوى. لذلك فإن هذه الفئة ترى الأخلاق عائقاً في طريق الحرية، ومانعاً من إشباع الغرائز، وأن التعاليم الأخلاقية ليست سوى مجموعة من الأوهام والتخيّلات. من الواضح، إذن، أن يكون الكلام مع هؤلاء في الأخلاق لغواً باطلاً.

**الفئة الثانية:** هم الذين يعرفون القيم الأخلاقية، ويدركون معنى الفضائل والرذائل الأخلاقية، ويتّصفون إلى حدّ مّا بمحاسن الأخلاق. هؤلاء يعلمون أن سعادة الفرد تقوم بسعادة المجتمع، وأن هذا الترابط يُوجب على الفرد أن يعدّل من غرائزه، وأن يكيِّف مصالحه طبقاً لمصلحة المجتمع، وأن يحقق حاجاته النفسية ضمن

رعاية حقوق الآخرين.

ومع أن كثيرين من أفراد هذه الفئة أيضاً محبُّون للذّات ويميلون إلى عبادة الفرد، وهدفهم من حسن الخلق هو الفائدة والانتفاع، فإنَّهم يختلفون عن الفئة الأولى من حيث احترامهم للمبادىء الأخلاقية إذ يعترفون بأن الفضائل خير والرذائل شر، ولا يرغبون في ارتكاب كل قبيح من أجل الحصول على المنفعة أو لدفع الضرر، ولا أن يطيعوا غرائزهم دون قيد ولا شرط، بل إنهم يسعون قدر الإمكان إلى جعل أعمالهم تنسجم مع الموازين الأخلاقية، وإلى تجنّب الأعمال المنافية للفضيلة.

**أمّا الفئة الثالثة:** فهم، بالإضافة إلى اتّصافهم بمحاسن الأخلاق، يتّصفون بمكارم الأخلاق أيضاً. هؤلاء الناس الحقيقيون يتّصفون بالصدق والسموّ المعنوي، ويتّسمون بمحاسن الأخلاق بدافع من شعورهم بالمسؤولية وأداء التكاليف، كما أنهم يتحلّون بمكارم الأخلاق باعتبارها من لوازم عظمة النفس الكريمة، ولهذا يتم تعاملهم مع الناس على أساس السجايا الإنسانية.

هؤلاء لا يكتفون بمحاسن الأخلاق، ولا يعتدون على حقوق الآخرين، بل يتنازلون في كثير من الأحيان عن حقوقهم الخاصة لمصلحة الآخرين، ويسبغون عليهم لطفهم وإحسانهم أو عفوهم والتغاضي عن إساءاتهم. هؤلاء العظام المحبُّون للآخرين هم رجال المواساة والإيثار في تعاملهم مع الفقراء، حتى أنهم يتكفّلون بمعايشهم، وفي تعاملهم مع المسيئين إليهم تراهم أيضاً رجال العفو والتسامح، فيتنازلون عن معاقبتهم، بل إنهم يردُّون إساءتهم بالإحسان.

يصف القرآن الكريم في عدد من الآيات أخلاق المؤمنين الحقيقيين وأتباع مدرسة الإسلام الصادقين، ويشير في النهاية إلى صفتيّ الإحسان المالي والعفو الأخلاقي باعتبارهما علامتين بارزتين لحب الآخرين ولمكارم الأخلاق فيقول:

﴿وأنفقُوا مِمّا رزقْنَاهُم سِرّاً وعَلانيةً ويدْرَؤُن بٱلحسنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولئِك لَهُم

عُقبَى ٱلدَّارِ﴾[٤٦].

في ما سبق من شرح وتوضيح لاحظنا أن أئمة الإسلام العظام قد أوصوا أصحابهم من ذوي النفوس الكريمة الفاضلة بأن يطبقوا مكارم الأخلاق في الموضع الصحيح وبالنسبة لمن هم أهل لها ويستحقونها، لكيلا يتمكّن الأشخاص غير الصالحين من استغلالهم، فتكون النتيجة إضراراً بالفرد وبالمجتمع.

(٤٦) الرّعد: ٢٢.

# الفصل الثالث

*«الخُلقُ الحسَنُ جَمالٌ في الدُّنْيا ونُزْهَةٌ في الآخرةِ، وَبهِ كَمالُ الدّينِ وَالقُرْبَةُ إلى اللهِ تعالى»*

*الإمام الصادق(ع)*

## الأخلاق النفعية أو الإيمانية

يقسم مجموع أعمالنا وأفعالنا الباطنية والظاهرية إلى قسمين اثنين:

**القسم الأول**: هو الأفعال الطبيعية والنشاطات اللّا إرادية التي تحدث تلقائياً في كياننا، مثل حساسيّة الأعصاب وحركة القلب، والدورة الدموية، وأمثال ذلك.

**القسم الثاني**: هو الأفعال التي يقوم بها الإنسان بإرادته واختياره، مثل القراءة، والتفكّر، والبحث والتحقيق، والتكلّم والكتابة، وما إلى ذلك من الأفعال الاختيارية.

إن أفعال القوى والغرائز اللّا إرادية التي تحدث تلقائياً ومن دون إرادة منّا، تقع بقضاء الله الحكيم في نظام الخليقة. هذه الأفعال هي التي تحافظ على الحياة الطبيعية، وهي سبب استمرارها، وهي مشتركة بين الإنسان والحيوان. أما الأفعال

الإرادية التي تنجم عن إرادة الإنسان، الصائبة أو غير الصائبة، ونواياه وتصميمه، من أجل تحقيق أهداف صحيحة أو غير صحيحة، دليل على حرية الإنسان، التي تختص بالإنسان وحده.

إن أعمال الإنسان الإرادية المحسوبة، تبيِّن حقيقة أن الإنسان ليس مثل الحيوان، سجيناً ضمن نطاق غرائزه، ولا هو في كل أفعاله يصدر عن الدوافع اللّا إرادية التلقائية، بل إنه ينفّذ عدداً من أعماله بعد إعمال فكره وعقله بصورة علمية وبمحض اختياره ورغبته. إن حرية العلم هذه هي مقياس أفضلية الإنسان وامتيازه، إذ إن الإنسان قد استطاع تحت ظل هذه الحرية، أن يكتسب العلوم، وأن يعرف العلة والمعلول في العالم، وأن يسير على طريق السموِّ والتكامل، وأن يجدِّد بناء مظاهر الحياة لتحسين معيشته.

يُعدُّ السلوك الأخلاقي عند الناس من قسم الأعمال الإرادية، ويقوم بدور أساس في رفع مكانة الفرد في المجتمع أو في الحظِّ منها، وما أكثر الذين بلغوا السعادة وحالفهم النجاح خلال القرون الطويلة بسبب اتّصافهم بالأخلاق الحميدة، ونالوا الكمال الذي كانوا جديرين به، وما أكثر الذين انحدروا، لسوء أخلاقهم، عن مواقع الكمال اللائقة التي كانوا يتسنّمونها، وأنهوا أيام أعمارهم في التعاسة وسوء الحظ.

### الفعل الباطني والخارجي

يقع الفعل الإرادي عن عمد وقصد، فلا بدَّ أن يكون لمثل هذا الفعل هدف تقرَّر عن وعي. إن من يريد أن يقوم بعمل مقصود وبإرادته، يبدأ أولاً بدراسة جوانب العمل الإيجابيّة والسلبيّة، ويحدد النتيجة التي يريدها منه، ثم يقرر القيام بالعمل، ويقدّم عليه. ولذا، فإن الأعمال التي تقع في الخارج بالإرادة والاختيار ترتبط بنوايانا التي تسبق العمل في قرارنا الداخلي، ولكننا لا نكون قادرين على تنفيذها ما لم نعزم عزماً قاطعاً على التنفيذ.

قال فريق من العلماء بفصل النيّة، التي هي فعل باطني بالنسبة للأعمال

الاختيارية، عن الفعالية الخارجية باعتبارها تقع في الخارج، وقسّموا الأعمال الباطنية والظاهرية إلى قسمين مستقلّين ومتمايزين. وعلى أساس من هذه النظرية ظهر السؤال القائل: هل الأخلاق الحميدة هي الآراء والأفكار الطاهرة التي هي من الأمور الباطنية؟ أم إنها الأفعال والأقوال الطيبة التي هي من الأمور الخارجية؟ أو: هل الإنسان الفاضل وذو الأخلاق هو ذلك الذي يملك روحاً طاهرة وضميراً منزَّهاً، أم هو ذلك الذي ينفذ عملياً الواجبات الأخلاقية، ويراعي في تعامله مع الناس مبادىء الفضيلة؟ وهناك من يؤيد هذا الجانب، ومن يؤيد الجانب الآخر.

«يقول (جون ديوي) في ذلك ما يلي:

يقسّم بعض من علماء الأخلاق نشاط الإنسان إلى قسمين متضادَّين، مشيرين إلى جوانب باطنية وأخرى ظاهرية، أو نفسية وجسمية. إن الذين يعتقدون بهذه الازدواجية الأخلاقية يريدون أن يرسموا خطّاً فاصلاً بين الفعل ودافعه، أو بين السلوك وشخصية الإنسان.

يرى هؤلاء أن الشخصية أو دوافع الأفعال من الأمور الباطنية والعقلية المحضة، وينسبون الفعل والسلوك إلى خارج العقل، ويعتبرون هذين الوجهين الإنسانيَّين منفصلين كليّاً بعض عن بعض، ثم يعتبر بعض هؤلاء أن الجانب الباطني والعقلي هو الأخلاق، بينما يعتبر بعضهم الآخر أن الجانب الخارجي أو العملي للإنسان هو الأخلاق»[1].

«ثمّة من يقصرون الأخلاق على تربية الكمال المطلوب في العقل، ولا يبدون اهتماماً بالعامل الخارجي الذي هو ميدان نشاط البشر، قائلين إن الدوافع الباطنية هي المهمة، حتى وإن لم يكن لها تأثير في العالم. وقد ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر آراء تشبه هذا في ألمانيا، مما أدّى بـ (كانت) إلى أن يعتبر الخير الأخلاقي هو حسن النيّة، وعزل

---

(١) مقدمة على فلسفة التربية والتعليم: ٢٢٧.

النيّة عن عواقبها العملية المنظورة. وكان هذا سبباً في أن ينكر علماء المان، بعد ذلك، وجود عالم عينّي حقيقي، وقالوا: إن العالم والمجتمع من تجلّيات «العقل المطلق».

في مقابل هذه النظرية الأخلاقية ـ التي تنظر إلى الأهداف والنوايا بمعزل عن نتائجها العملية ـ ظهر ردُّ فعل بصورة نظرية أخلاقية أخرى باسم نظرية «اللذّة» أو «النفعيّة»، وقال أصحاب هذه النظرية: إن حالاتنا الباطنية لا أهمية لها أخلاقياً، وإنّما المهمُّ هو الأعمال والتأثيرات والتبدُّلات التي تصدر عنّا، وأخذوا يهاجمون الأخلاق الباطنية، ويسفّهون مبادئها، ويعتبرونها خاصة وثانوية، زاعمين أن الأخلاق ذات الموازين الكليّة هي المعتبرة، وأن هذه الموازين لا يمكن استخراجها إلاّ من نتائج سلوك الإنسان ونشاطاته»[٢].

كثير من علماء النفس والأخلاق يخالفون نظرية ازدواجية الأعمال الإرادية في كونها باطنية وظاهرية، ويرون أن فصل نشاط البشر إلى باطني وظاهري لا وجه له ومردود، ويعتقدون أن التفكير والعمل، فيما يتعلق بالأفعال الإرادية، عملية متصلة ومترابطة وذات وجهين، عقلي وخارجي، وأن النشاط الإرادي يبدأ من الإرادة أوّلاً، وهي الوجه العقلي، وينتهي بالتنفيذ الذي هو الوجه الخارجي.

«يقول (جون ديوي) الذي يؤيد هذه النظرية: سلوك الإنسان حدث واحد ومستمر، ينبع من حالة غير معينة تتصف بالتردُّد، وتنتهي بحالة معينة ومتميزة وقاطعة. إنَّ الفعّالية الإنسانية تشمل في البداية التجاذب والتدافع والمساومة الباطنية الوظيفية. ثم على أثر ذلك تظهر حالة واحدة وظيفية تؤدي فعلاً معيَّناً. وبالطبع يمكن أن نصف الوجه الواعي لعمل الأجهزة الوظيفي بأنه الوجه العقلي أو النفسي، ونعتبره منفصلاً عن الوجه الآخر، ولكن ينبغي ألاّ ننسى أنَّ الوجه العقلي أو النفسي ليس سوى وجه واحد من السلوك

---

(٢) (ن.م): ٢٣٠.

الإنساني، وأنه مرتبط بالوجه الآخر الذي يستدعي استعمال الطاقة لتغيير المحيط، شئنا ذلك أم أبينا»[٣].

## معنى الإيمان

أئمة الإسلام الكرام كثيراً ما تحدّثوا في تعاليمهم عن الارتباط بين الباطن والظاهر، وذكروا نيّة العمل والعمل نفسه جنباً إلى جنب باعتبارهما مترابطَين. وحتى بالنسبة للإيمان ـ وهو أمر باطني ونفسي محض كما يبدو، وليس له سوى جانبه المعنوي ـ يرون أنه لا يختلف عن ذلك، فيذكرون لفظ اللسان وعمل الجوارح إلى جوار ما انعقد عليه القلب، واعتبروهما أجزاءً من الإيمان.

عن أبي الصّلت الخراساني، قال: سألت الرضا(ع) عن الإيمان، فقال: *«الإيمانُ عقدٌ بالقلبِ، ولفظٌ باللّسانِ، وعملٌ بالجوارحِ، ولا يكونُ الإيمانُ إلّا هكذا»*[٤].

إلّا أنّ بعض المسلمين يفصلون، دون علم ووعي، بين النيّة والعمل، متصوّرين أنّ الإيمان من الشؤون التي تختص بالنفس، ولا علاقة له بأعمال الجسم، ولذلك يقومون بأعمال غير مشروعة، ويظلمون أنفسهم، ويعتدون على حقوق الآخرين، ويرتكبون أنواع الآثام دون وازع. وهم، لكي يسوّغوا أعمالهم المغلوط فيها، يقولون إن الإيمان في القلب لا في العمل، غافلين عن أن أعمالنا الإرادية التي نحققّها في الخارج إنّما هي بتصميم وأمر من باطننا. إنّ من يؤمن بالله وبتعاليم القرآن الكريم حقّاً يكون مركز اتّخاذ القرار وإصدار الأوامر فيه قد استسلم، في الواقع، إلى الله تعالى، وأصبح تابعاً للتعاليم الإلهيّة من دون قيد ولا شرط. إن مثل هذا الإنسان، فضلاً عن كونه لا يصدر إلى جوارحه أمراً بارتكاب ذنب، ولا يقرر أمراً يخالف رضى الله

---

(٣) (ن.م): ٢٢٨.

(٤) معاني الأخبار، الصدوق: ١٨٦.

تعالى، فإنّه يحاول قدر إمكانه أن يتجنّب حتى التفكير في المعصية. وبناءً على ذلك، فإنّ من يرتكب إثماً إمّا أن يكون فاقداً للإيمان، وإمّا أن يكون ضعيف الإيمان ولا يستطيع مقاومة السلطان والطغيان، وإمّا أنه عندما يرتكب الإثم يغفل عن ذكر الله والإيمان، وإلّا فإنّ صاحب الإيمان القوي يتذكر الله في اللّحظات التي ينجذب فيها نحو المعصية، فلا يرتكب الإثم.

عن الإمام الرضا(ع)، قال: «*لا يسرِقُ السارِقُ حيَن يسرِقُ وهوَ مؤمِنٌ، ولا يشرَبُ الشارِب حيَن يشرَبُ الخمرَ وهوَ مؤمِنٌ*»(٥).

بنـاءً على ذلك فإن النيّة والعمل، في الإسلام، مترابطان، ولهذا نجد القرآن الكريم في كثير من آياته يقرن الإيمان بالعمل الصالح ويذكرهما معاً، مشيراً بذلك إلى أنَّ الشرط الأساس للسعادة هو الربط بين الباطن والظاهر وإيجاد الانسجام بين الإيمان المعنوي والأعمال الظاهرية.

ولما كانت النيّة هي بذاتها عملاً نفسانياً، والأعمال الظاهرية أعمالاً جسمية، فإن أئمة الإسلام أشاروا في بعض أقوالهم إلى النيّة بصفتها عملاً أيضاً، كما استعملت لفظة «العمل» لتشمل كل الفعاليات الباطنية والظاهرية ككل، مع إسباغ الأفضلية على النيّة، أي إن العمل الباطني أفضل وأرفع من العمل الجسمي الظاهري.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*...والنيَّةُ أفضلُ منَ العملِ ، ألَا وإنَّ النيَّةَ هيَ العَمَلُ*»(٦).

عن أبي عمـرو الزبيري، عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: قلت له: أيُّها العالِم، أخبرني أيُّ الأعمال أفضل عند الله؟

قال: «*ما لا يقبلُ اللهُ شيئاً إلّا بهِ*.

قلت: وما هو؟

(٥) تحف العقول، الحراني: ٤٢١.

(٦) وسائل الشيعة، العاملي، باب استحباب نيّة الخير: ٦.

قال: *الإيمان بالله الّذي لا إلهَ إلّا هو أعلى الأعمال درجة، وأشرفها منزلة، وأسناها حظّاً.*

قال، قلت: ألا تخبرني عن الإيمان، أهو قول وعمل، أم قول بلا عمل؟

فقال: *الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل، بفرضٍ من الله بيّنٍ في كتابه، واضحٍ نوره، ثابتة حجته، يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه.*

قال: قلت: صفه لي، جُعلت فداكِ، حتى أفهمه.

قال: *الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه.*

قلت: إن الإيمان ليتم وينقص ويزيد؟

قال: نعم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: *لأنّ الله تباركَ وتعالى فرضَ الإيمانَ على جوارح ابن آدم وقسّمه عليها وفرّقَهُ فيها، فليسَ من جوارحهِ جارحةٌ إلّا وقد وكِّلتْ من الإيمانِ بغير ما وكِّلتْ بهِ أُختها، فمنها قلبُهُ الذي به يعقِلُ ويفقَهُ ويفهَمُ، وهوَ أميُر بدنهِ الذي لا تَردُ الجوارحُ ولا تصدرُ إلّا عن رأيه وأمرهِ...»*[٧].

والجوارح في اللغة هي الأعضاء التي بها يقوم الجسم بفعالياته الإرادية والتي يكسب بها الخير والشر.

هذا الحديث يشمل الجانبين المقصودين، وهما اعتبار الإيمان فريضة على الجسم والروح، وأن الناس مكلّفون بتنفيذ هذا الواجب، باطنياً وظاهرياً معاً، وهذا يوضّح قضية الترابط بين النيّة والعمل. والجانب الآخر هو أن الإمام(ع) قد قال:إن الإيمان عمل، واعتبر النشاط الفكري والباطني مثل الأعمال الظاهرية الجسمية. ومن هذا نتبيّن أن أئمة الدين قد أطلقوا في بعض الحالات لفظة «العمل» على الفعاليات

---

(٧) الكافي، الكليني ٢: ٣٣

الباطنية والمعنوية، بما فيها النيّة.

وبالرجوع إلى الأخبار الدينية، يتبيَّن لنا بوضوح أن الأخلاق في الإسلام ليست هي النيّة والتفكير الباطني وحده، ولا هي العمل الجسمي وحده، بل هي أحداث متصلة وممتدة، تبدأ من التفكير وتنتهي بالعمل، أو كما جاء بالتعبير الديني: الأخلاق هي النيّة والعمل المترابطان، أو أن الأخلاق مجموع الأعمال الباطنية والظاهرية معاً.

من الأمور المهمة التي تجب مراقبتها في سلوك الناس الأخلاقي بدقة هو معرفة دوافعهم وأهدافهم، ذلك لأن ما يحرك الناس إلى اختيار سلوك أخلاقي معيَّن يختلف باختلاف الأفراد، وهذا الاختلاف هو الذي يحملنا على تقسيم الناس إلى فئات مختلفة تمتاز بعض عن بعض من حيث الأخلاق.

بعبارة أخرى: إن جميع الأعمال الأخلاقية الحسنة أو السيئة التي يقوم بها الناس في الخارج ناشئة عن نياتهم الباطنية وقراراتهم الداخلية والناس في هذا متساوون. ولكنهم يختلفون من حيث منشأ النيّة عندهم، وماهيته، والدافع الذي دفعهم إلى اتّخاذ مثل هذا القرار.

بعض لا يكون دافعهم سوى حبّ الذّات وإشباع الغرائز. وهؤلاء لا يهتمون بمصلحة المجتمع، ولا بالشعور بالمسؤولية ولا بالقيم الإنسانية، وإنَّما كل غايتهم هو الاستمتاع والاستزاده من اللذّة، ولا يهتمون إلّا بشهواتهم.

وبعض آخرون دافعهم إلى الأخلاق هو اجتلاب المنفعة. وهؤلاء، على الرغم من أنهم، مثل السابقين، لا يقيمون وزناً للمسؤولية ولا للقيم الإنسانية، فإنَّهم يراعون مصالح المجتمع إلى حدٍ ما ويرون أن سعادتهم مرتبطة بسعادة المجتمع.

وثمة فريق ثالث من الناس يتحلَّون حقاً بالفضيلة والأخلاق، ودافع هؤلاء في سلوكهم الأخلاقي هو الشعور بالمسؤولية وأداء التكاليف. وهؤلاء أُناس يحترمون حقوق الناس وحدودهم، ويلتزمون مكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية. ولسوف نبحث في هذا الفصل طراز تفكير كل فرقة من هذه الفرق الثلاث ليتّضح الموضوع.

## الأخلاق عند الأنانيّين

**الفريق الأول:** غاية الأنانيين المفرطين هو البحث عن اللّذة وإشباع غرائزهم من دون قيد ولا شرط، وهم لا يؤمنون بالفضائل والرذائل الأخلاقية، ولا يقيمون وزناً للأخلاق الحميدة والإحسان، ولا يرون الأخلاق الذميمة قبيحة. ميزان الخير والشر عندهم هو لذتهم وألمهم، وسعادة الإنسان أو تعاسته تكمن في نجاح الفرد أو إخفاقه. ولهذا تراهم لا يفكّرون إلّا في أنفسهم. ولا يبحثون إلّا عن الاستزادة من اللذائذ. إنّهم لا يرون الآخرين، ولا يهتمون بحقوقهم. ينظر هؤلاء إلى كل شيء يعين الإنسان على النجاح ويؤدي إلى بلوغ المرام على أنه هو الخير، حتى وإن كان من السيّئات الأخلاقية، ويعتبرون كل شيء يحول دون استمتاعهم ونجاحهم، ويمنعهم من تحقيق شهواتهم وأهوائهم النفسية، حتى وإن كان من الفضائل، على أنه هو الشر.

«(تـومـاس هوبز) واحد من فلاسفة الغرب الماديين الذين يؤيدون هذه النظرية المتطرفة، يقول:

نحن أيضاً، مثل الحيوانات، مقيّدون في أسر طلبات النفس المسيطرة علينا ولا تترك لنا الخيار. والعقل لا يكبح جماح النفس، فلا يكون في الإنسان من دافع سوى الحبِّ والكره، والخوف والرجاء وكل تحرك يقع في النفس إذا كان يتلاءم والحياة ويناسبها، فالإنسان يريده ويرحِّب به، وإذا كان يتعارض مع ذلك ولا يرتضيه، فليس مرغوباً فيه ويهرب الإنسان منه. وكل ما يدفع الإنسان للقيام بعمل ما إنّما هو للبحث عن اللّذة والابتعاد عن الألم ليس غير. إذن، فميزان الأخلاق قائم على الخسارة والربح، أما الخير والشر فأُمور نسبية، أي إن حسن الأشياء وقبحها يكون بحسب نفعها وضررها، وإن الحسن والسيِّىء والعدل والظلم، لا حقيقة لها بذواتها، بل كل ما فيه منفعة ولذة للفرد هو الحسن والعدل. وعليه، فإن أعمال الإنسان مبنية على الأنانية»[٨].

(٨) سير الحكمة في أوربا ٢: ٧٤.

هذه النظرية، نظرية حبّ الإنسان لذاته أخلاقياً، قال بها السفسطائيون قبل المسيح، وفي العصور المتأخرة أيَّد ذلك بعضهم، وكان (نيتشه) من أقوى المدافعين عن هذه النظرية. ولكن الأقوام والملل البشرية، قديماً وحديثاً، رفضتها، ولم يسبق أن انبثق مجتمع يتبع تلك النظرية في أية فترة من الزمان، إذ أن هذه النظرية اللّا عقلانية واللّا إنسانية التي تقوم على حرية الغرائز والشهوات من كل قيد وشرط تتعارض وأُسس المدنية، وتبتعد عن سعادة الإنسان المادية والمعنوية ولئن اتفق يوماً أن تطبق هذه النظرية في أحد المجتمعات، فإن ذلك المجتمع سوف يربّي أفراده على الصفات الحيوانية والافتراسية، ويدفع بهم إلى طريق الفساد والهلاك والجريمة والهدم والعدوان، وتكون النتيجة فناء ذلك المجتمع على أيدي أفراده.

«جدد (نيتشه) مذهب السفسطائيين اليونانيّين الذين كانوا يقولون في الأخلاق: إن مقياس الحسن والسيِّىء هو الإنسان نفسه، فكل ما تتقبله النفس الإنسانية وتريده فهو حسن، وما هو خلاف ذلك فهو سيِّئ. وهذا هو المذهب نفسه الذي عارضه بشدة سقراط وافلاطون قبل (نيتشه) بألفين وأربعمئة سنة. مذهب (نيتشه) هذا يؤدي إلى الفردية، أي إن كل فرد يسعى لرفع نفسه فوق الآخرين، دون أن يُعنى بالمحافظة على حسن العلاقات معهم، ولا يفتأ يزيد من قوته وقدرته لكي يتمكن من الاعتداء على الآخرين والاستعلاء عليهم وهذا عنده هو معنى الحياة»[٩].

أصحاب هذه النظرية يعارضون كل قيد قانوني أو أخلاقي، ويرونه حائلاً بينهم وبين حريتهم في إشباع شهواتهم وغرائزهم، ويعتقدون أن سعادة الإنسان في إتباع هوى النفس، وإرضاء الميول من دون قيد ولا شرط، وإلغاء جميع التعاليم الأخلاقية والقانونية. يرى هؤلاء أن الخُلُقَ الطيب هو تلك الصفة التي تتناغم مع الرغبات النفسية وتؤدي إلى مزيد من النجاح للإنسان، وأن الخلق السيِّىء هو ما لا

---

(٩) (ن.م) ٣: ١٣٠.

ينسجم مع هوى النفس، ويحدُّ من التلذذ وإشباع الشهوات.

وعلى الرغم من أن (فرويد) هو نفسه يغالي في طلب حرية الغرائز ويتجاوز في ذلـك حد الاعتدال، فإنّه مع ذلك يعارض نظرية عبادة الفرد، ويرى أن إلغاء القرارات الاجتماعية يؤدي إلى هلاك الإنسان والقضاء على أُسس المدنية، وفي ذلك يقول:

«إنـه ليقتضي الكثير من قصر النظر ونكران الجميل حتى يتمنّى المرء القضاء على المدنية والحضارة، إذ لا يبقى بعد ذلك سوى الطبيعة، تلك الطبيعة التي يكون تحمُّلها أقسى وأكثر عناء. من البديهي أن الطبيعة لا تلزمنا بالضغط على غرائـزنـا، بل تطلق لها الحرية الكاملة، ولكنها بدلاً من ذلك تستخدم أُسلوبها الخاص في تقييدنا، فتقوم بتسليط الإنسان للقضاء على الإنسان نفسه عن طريق القسوة والظلم والعنف، وقد يتم هذا أحياناً خلال عملية إشباع الغرائز. فبسبب هذه الأخطار اقتربنا بعض من بعض وأقمنا هذه الحضارة»(١٠).

عن الإمام علي(ع)، قال: «*مَنْ أطاعَ نفسَهُ في شهواتِها، فقَدْ أعانَها على هلكَتِها*»(١١).

## الأخلاق عند النفعيّين

**الفريق الثاني**: إن الدافع الذي يدفع النفعيين إلى التزام الموازين الأخلاقية هو الفـائـدة الخاصة والاستزادة من المنفعة، وذلك لأن أخلاق النفعيّين تقوم، مثل أخـلاق الأنـانيين، على أسـاس من الأنانية وحبّ الذّات، مع فرق واحد، هو أن الأنانيّين لا يؤمنون بالفضائل والرذائل الأخلاقية، ولا يحترمون حقوق الآخرين، ولا يفكّرون

(١٠) مذكرات فرويد: ١٢٠.

(١١) فهرست الغرر: ١٨٨.

إلّا بأنفسهم، ولا يتورّعون عن الاعتداء على حقوق الناس في سبيل نجاحهم في تحقيق أُمنياتهم. أمّـا النفعيون فإنّهم يرون سعادتهم في سعادة المجتمع، وهم يُعنون بالآخرين فيما يُعنَون بأنفسهم، يلزمون أنفسهم باحترام حقوق الناس. ولكي يجلبوا المزيد من الربح وترفير حياة أهنأ لأنفسهم، يطبقون مبادىء الفضائل، ويتجنّبون الرذائل الأخلاقية.

أكثر الناس في عالمنا اليوم من هذا الفريق الثاني الذي يمارس النفعية في الأخلاق. وبسبب من ضعف في إيمانهم وفي معتقداتهم الدينية، نسوا الجوانب المعنوية والإنسانية في الأخلاق، ولم يعودوا ينظرون إلى الأخلاق الحميدة إلّا من حيث المنظور النفعي المـادي والمصلحـة الدنيوية، فهم يريدون حسن الخلق من أجل اكتساب المحبوبية عند الناس، وتمكين شخصياتهم، وجلب الثقة بهم، واجتذاب المنافع المادية. فإذا كانـوا يراعون أُصول الأخلاق والأدب في أقوالهم وسلوكهم، فيفون بالوعد، ويؤدُّون الأمانة، ويلتزمون الصدق والاستقامة والعدل والإنصاف، فليس ذلك من باب الشعور بالمسؤولية وأداء التكاليف الانسانية، بل لأنهم عرفوا أن مصالحهم ومنافعهم الدنيوية تكمن في حسن الأخلاق، فاستخدموا حسن الخلق وسيلة لإشباع رغباتهم ولنيل اللذائذ والأهواء النفسية.

أنشأ (ديل كارنيجي) قبل سنوات مدرسة للأخلاق في نيويورك، وألّف كتاباً باسم «كيف نجد الأصدقاء» لقي استقبالاً حافلاً. كان في مدرسته وكتابه ينظر إلى الأخلاقيات من حيث منظور حبّ الذّات والنجاح المادي، ولا يُعنى بها إلّا من زاوية فوائدها الدنيوية وقدرتها على تحسين أحوال المعيشة، من دون أن يتنازل بالبحث قيام الأخلاق بصنع الإنسان ومنحه السموّ النفسي الذي هو الهدف الأصلي للأخلاق، كما أنّـه لم يتطرّق إلى حبّ الآخرين والتضحية التي هي دليل النبل المعنوي وشرف النفس. لذلك لم يحصل تلامذته على شيء من عزّة النفس وكرامتها، ولم يتعلّموا من مدرسته وكتابه دروس مكارم الأخلاق ولا السجايا الإنسانية، بل كل ما فازوا به منه

كان مزيداً من الزبائن، ومزيداً من الإنتاج، ومزيداً من الربح. وهذا ما يشير إليه بنفسه في مقدّمة كتابه، فيقول:

«على أثر التعليمات الواردة في هذا الكتاب استطاع كثير من البائعين أن يزيدوا من مبيعاتهم، وكثير منهم استطاع أن يجد عملاء جدداً، مع أنهم قبل ذلك ذهبت مساعيهم لجلب الزبائن أدراج الرياح. وكثير من أرباب العمل استطاعوا، بهذه التعاليم، أن يفوزوا بمقام محترم بين مرؤوسيهم. ففي العام الماضي اعترف لنا أحد مدراء المعامل أن منحه علاوة خمسة آلاف دولار سنوياً جاء ببركة تعاليمنا في دروسنا. ومدير آخر يعمل في شركة غاز فيلادلفيا، كان على وشك أن يُطرد من منصبه بسبب سوء خلقه وعدم قدرته على إدارة مرؤوسيه، ولكنه بدورسنا، لم يحل دون طرده فحسب، بل نال ترقية في مركزه»[١٢].

ترى هل أن الأخلاق القائمة على الربح والمنفعة تكون مقياساً للفضيلة؟ وهل الذي يتّخذ من الأخلاق وسيلة للمنفعة المادية، من دون أن يكون فعلاً شاعرًا بالمسؤولية في تعامله الأخلاقي مع الآخرين، يصحُّ أن نصفه بأنَّه إنسان أخلاقي؟ وهل مثل هذه الأخلاق يمكن أن تحمل الناس على التزام الحقّ والعدالة، وتجعلهم في كل زمان ومكان يعملون بصدق وإخلاص؟ هذه الأسئلة أجاب عنها (كانت) فيما يلي:

«لكي يكون عمل المرء ذا قيمة أخلاقية، لا يكفي أن يكون ذلك العمل موافقاً للتكليف، بل يجب أن يكون بحسب التكليف، وإلاّ فمن الممكن أن يكون عملٌ ما حسناً ثم لا يكون أخلاقياً. فمثلاً استقامة التّجار في معاملاتهم شيء حسن، ولكن إذا كان هدفهم تجارياً محضاً، فعملهم ليس أخلاقياً، بل مصلحياً. كذلك الذي يحسن إلى الناس بسبب من رقة قلبة أو لاكتساب محبتهم، فهو يكون قد قام بعمل حسن، ولكنه ليس عملاً أخلاقياً، إذ إن هذا الشخص نفسه لو انقلب إلى شخص قاسي القلب، أو لقي أذىً من الناس،

---

(١٢) كيفية كسب الأصدقاء: ٨.

فمن المحتمل أنه يمتنع عن الإحسان إلى أحد. ولكن إذا لقي رجل الأذى من الناس ولكنه مع ذلك قام بالإحسان إليهم بحسب تكليفه، يكون عمله هذا أخلاقياً. وإليكم هذه العبارة من أقوال (كانت) قال:

كنتُ وأنا أحلم، أظنُّ أن الحياة تمتع، فاستيقظت لأرى أنها تكليف»[١٣].

## الأخلاق عند ذوي الفضائل

**الفـريق الثالث**: أمّا الدافع الذي يدفع ذوي الأخلاق والفضائل للتمسّك بالمقاييس الأخلاقية فهو الشعور بالمسؤولية وأداء التكليف الإنساني، وأغلب هؤلاء هم من المؤمنـين بالله ومن أتباع الأديان الإلهيّة. ولكي نزداد تعرُّفاً على هذه الفئة الممتـازة، ولتتضح نظرتهم إلى القضايا الأخلاقية أكثر، نبادر بالكلام عن الفضائل والـرذائل من حيث وجهة النظر الإسلامية، وندرس رأي المسلمين في الأخلاقيات المحمودة والمذمومة.

إنّ المؤمنـين الحقيقيّين وأتباع الإسلام الصادقين ينفِّذون منهجهم الأخلاقي إطاعةً لأمر الله تعالى، والدافع الأصلي لهم إلى ذلك هو أداء تكليفهم الشرعي بتنفيذ الأوامـر الإلهيّة، وذلـك لأن حُسن الخلق، في الدين الإسلامي المقدَّس، واحد من الشؤون الدينية الأساس، وهو جزء من التكاليف المفروضة على المسلمين. وكما يقول أئمة المسلمين: حُسن الخلق مجلبة لرضى الله، ووسيلة للنجاة يوم القيامة، ويُوجب نيل رحمة خالق الكون. وفي هذا أخبار كثيرة عن رسول الله(ص) والأئمة الطاهرين(ع).

عن النبيِّ(ص)، قال: *«حُسنُ الُخلق نصفُ الدِّين»*[١٤].

وعن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: *«إنَّ حُسنُ الُخلقِ منَ الدِّينِ»*[١٥].

---

(١٣) سير الحكمة في أوربا ٢: ١٦٠.

(١٤) مشكاة الأنوار: ٢٢٣.

(١٥) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٨٢.

وعن الإمام علي(ع) أنه قال لولده: «*إن الله عزَّ وجلَّ جعلَ محاسنَ الأخلاقِ وصلةً بينهُ وبين عبادِهِ*»[١٦].

وعن الإمام الصادق(ع)، قال: «*الخُلقُ الحسنُ جمالٌ في الدُّنيَا، ونزهَةٌ في الآخرةِ، وبهِ كمالُ الدين، والقربةُ إلى الله تعالى*»[١٧].

وعن رسول الله(ص)، قال: «*ما يُوضعُ في ميزانِ امرئٍ يومَ القيامةِ أفضلُ منْ حُسنِ الخُلقِ*»[١٨].

لا بدّ من أن نشير هنا إلى أن المنافع الدنيوية لحسن الخلق لم يغفل عنها في الإسلام، وأن أئمة المسلمين كانوا عند شرح القيم المعنوية والروحية للأخلاق الحميدة، يذكرون فوائدها الظاهرية أيضاً، مثل دور الأخلاق الحميدة في إيجاد المحبوبية الاجتماعية، وتحسين المعيشة والرفاه المادي.

قال رسول الله(ص): «*يا أيُّها النَّاسُ إنّي أعلمُ أنَّكُم لا تَسعُونَ النَّاسَ بأموالِكُم، ولكنْ بالطلاقَةِ وحُسنِ الخلْقِ*»[١٩].

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*حُسنُ الخُلق يزيدُ في الرِّزْقِ*»[٢٠].

عن الإمام علي بن الحسين(ع)، قال: «*القولُ الحسنُ يُثري المالَ، ويُنمِي الرِّزقَ، ويُنسيءُ في الأجلِ، ويُحبِّبُ إلى الأهلِ، ويدخلُ الجنَّةَ*»[٢١].

وعليه، فإن الهدف الأصلي لحسن الخلق في الإسلام هو: إطاعة أوامر الله تعالى، وأداء التكاليف الشرعية، وجلب رضى الخالق عزَّ وجلَّ. والنتائج المعنوية للأخلاق الحميدة هي: تكامل الروح، وطهارة الفكر، والسموّ المعنوي، والتغلّب على هوى

---

(١٦) (ن.م): ٢٨٣.

(١٧) (ن.م): ٨٣.

(١٨) وسائل الشيعة، العاملي، كتاب الحجّ: ٢١٩.

(١٩) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٨٣.

(٢٠) مشكاة الأنوار: ٢٢١.

(٢١) أمالي الصدوق: ٢.

النفس، والتخلُّق بالفضائل؛ ونيل النجاة الأبدية.

وفوائده الدنيوية هي: انتشار المحبة، وحسن العلائق الاجتماعية، واكتساب المحبوبية، وزيادة الربح المادي والرفاه في العيش.

وبعكس ذلك، فإنَّ سوء الخلق يجلب للبشرية التعاسة والشقاء، ويحرم الإنسان من السعادة المادية والمعنوية.

قال رسول الله(ص): *«إن جبرئيلَ، الروحَ الأمين، نزلَ عليَّ من عندِ ربِّ العالمَين، فقالَ: يا مُحَمَّدُ، عليكَ بحسنِ الخلق، فإنَّ سوءَ الخلقِ ذهبَ بخيرِ الدُّنيا والآخِرةِ»*[٢٢].

ولكي يتبيّن فضل الخلق الإيماني على الخلق النفعي، نُجري مقارنة بين الفريقين الأول والثاني، مشيرين إلى بعض مما بينهما من تباين. غير أن الفريق الأول لا يستحق أن يقرن بالفريقين الثاني والثالث، لأن أفراد هذا الفريق هم عُبّاد الغرائز وعبيد الشهوات، ونتيجة سلوكهم الأناني هي تربية الطبائع الحيوانيّة، وحب الافتراس، وقمع الفضيلة والسجايا الإنسانيّة. فهذا الطراز من التفكير اللّا عقلاني والمعادي للمجتمع، لا يستحق أن يطرح كنظرية أخلاقية للبحث والدرس. لذلك نمتنع عن الخوض فيه أكثر من هذا.

## اختلاف الأخلاق النفعية والإيمانيّة

إن أول اختلاف بين الخلق الإيماني والخلق النفعي يظهر في النيّة. لقد سبق أن قلنا إنَّ العمل، في الإسلام، تابع للنيّة، وهي أفضل من العمل، فالعمل يقوم بالنيّة، وهي أساسه، وحسبما تقول الأحاديث، إن قيمة أعمال المسلمين العبادية الخارجية والأخلاقية، رهينة بكيفية العمل الباطني وكيفية التفكير والنيّة، فكلما كانت النيّة أطهر، والخلوص المعنوي أقوى، كانت قيمة العمل أعلى:

---

(٢٢) وسائل الشيعة، العاملي، كتاب الحجّ: ٢٣١.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«النِّيَّةُ أساسُ العَمَلِ»*[٢٣].

لقد تعلم أتباع الإسلام في مدرسة الإسلام أن العمل قائم بالنيّة، ونيّة العمل يجب أن تكون خالصة لله وبقصد إطاعة أوامره تعالى. يقول أئمة المسلمين: إن شرط قبول الله تعالى العمل هو خلوص النيّة وطهارة الضمير، واتباع الشريعة المقدّسة.

عن رسول الله(ص)، قال: *«لا يُقبَلُ قولٌ إلَّا بعَمَلٍ، ولا يُقبَلُ قولٌ وَلا عَملٌ إلَّا بنيَّةٍ، وَلا يُقْبَلُ قَوْلٌ وعَمَلٌ ونِيَّةٌ إلَّا بإصَابَةِ السُّنَّةِ»*[٢٤].

إن الأديان السماوية قائمة على أساس الإيمان بالله، الله المحيط بكل كليّات عالم الوجود وجزئياته، وما من شيء يخفى على ذاته المقدّسة، الله العالم بباطن الإنسان وظاهره، والعارف بنوايا الناس وأعمالهم، والمطّلع على خيانة الأعين ومكنونات السرائر.

﴿يعلَمُ خائنَةَ الأعيُنِ ومَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾[٢٥].

كان أنبياء الله ينفذون إلى قلوب الناس بقوة الإيمان، ويزرعون تعاليمهم في أعماق نفوسهم، فيبدأون أوّلاً بجعلهم يؤمنون بإله عالم قادر، ويوقظون فيهم الشعور بالمسؤولية، ويبلّغونهم أوامر الله تعالى في التكاليف العبادية والواجبات الأخلاقية، ومن ثم كانوا يطلبون، اعتماداً على العلم الإلهيّ، من الذين قاموا بتربيتهم، النيّة الطاهرة والعمل النزيه.

إنّ رجلاً أعرابياً أتى النبيّ(ص)، فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذْكَرَ، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله(ص): *«مَنْ قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هيَ العُليا فهوَ في سبيلِ اللهِ»*[٢٦].

---

(٢٣) فهرست الغرر: ٣٩٨.

(٢٤) بحار الأنوار، المجلسي ١٥: ٧٦.

(٢٥) سورة غافر: ١٩.

(٢٦) دستور الأخلاق في القرآن: ٥٦٦.

## تطهير الضمير

عن النبي(ص)، قال: «*من باتَ وفي قلبهِ غشٌّ لأخيهِ المسلمِ، باتَ في سخطِ الله، وأصبحَ كذلكَ، حتّى يتوبَ*»[٢٧].

بناءً على ذلك، تكون النيّة، في الأخلاق الإلهيّة، مقدمة على العمل، والأفكار الأخلاقية ـ وهي فعاليات باطنيّة ـ لها الأفضلية على الأعمال الأخلاقية كفعاليات ظاهرية. يريد أئمة الإسلام أن يصبح الإنسان إنساناً حقيقياً، وأن يفكر تفكيراً إنسانياً، وأن يتجذَّر السلوك الأخلاقي في أعماقه، ويعتبر التزام السجايا الإنسانيّة من واجباته، وأن تصدر أعماله المحمودة عن نوايا طاهرة. لذلك كانوا في مناهجهم التربوية يبدأون من بواطن الناس، فيزيلون الرذائل من قلوبهم بقوة الإيمان، ويوصلون ضمائرهم بالفضائل، ويزرعون مكارم الأخلاق في أعماق نفوسهم.

في الأخلاق النفعية لا تأثير لحسن النيّة ولا لطهارة الضمير، والمقياس الوحيد للأخلاق هو سلوك الناس الظاهري. لا يقيم النفعي وزناً للشعور بالمسؤولية ولا يحترم القيم الإنسانيّة، ولا يهتم بمشاعر الناس ونواياهم الباطنيّة، ولا يقصد من وراء حسن الخلق الوصول إلى السموّ المعنوي والكمال النفساني، بل كل همّه من التمسّك بالمقاييس الأخلاقية هو الاستزادة من المنفعة ومن الرفاه المعيشي. إن هذا الإغفال للجوانب المعنوية السامية هو واحد من أسباب انهيار الخلق الاجتماعي في عصرنا الحاضر، وانحطاط الحياة المعنوية في عالمنا اليوم.

«يقول العالم الفرنسي (ادجار يوش): يريد المجتمع من أفراده ان يكونوا ذوي وضع أخلاقي ظاهري، دون أن تكون لمشاعرهم الباطنيّة أهمية عنده. إننا إذا شاهدنا الناس يطابقون أعمالهم مع القوانين الاجتماعية، فذلك ليس دليلًا على حسن أخلاقهم، والمجتمع لا يهمه أن يعرف إن كانت المحظورات ثابتة في أعماق الناس حقاً أم لا.

---

(٢٧) أمالي الصدوق: ٢٥٧.

في عالمنـا اليوم ليست المحظورات الاجتماعية أكثر من مزحة اختبارية لإجبار الناس على أن يكونوا ذوي وجهين ويكتموا ما في ضمائرهم، بينما هي لا ترفع من المستوى الأخلاقي عند الناس أبداً. والحكم على أفعال الناس يتم استناداً إلى الظاهر، دون الالتفات إلى الدافع الباطني».

فهؤلاء النفعيون يتّخذون من الأعمال الظاهرية معياراً للأخلاق، ولا يحسبون حساباً للنيّة التي هي أساس الأعمال الظاهرة. فالشخص الذي يفتقر إلى الأخلاق الحميدة والشعور بالمسؤولية في باطنه، ولكنه يتظاهر بالتخلُّق بهذه الأخلاق لاجتذاب اهتمام الآخرين به. أو لخداع هذا وذاك أحياناً، يعتبر في نظر هؤلاء شخصاً حسن الخلق.

أمّـا في الإسـلام؛ فإنّ معيار الأخـلاق هو الأنسجام بين الباطن والظاهر، والإنسان الحميد الخصال هو ذلك الذي يكون ذا نيّة طاهرة وتفكير أخلاقي، ويعمل في الـظاهـر أيضـاً طبقـاً للموازين الأخلاقية والسجايا الإنسانيّة. وهذا من جملة الاختلافات بين الخُلُقَين: الديني والنفعي.

الاختلاف الآخر بين الأخلاق الإيمانيّة والأخلاق النفعية هو أنّ الأخلاق الإيمانيّة قائمـة على مبـدأ الشعور بالمسؤولية والسجايا الإنسانيّة، ولها منافع مادية فرعية. أمّـا في الأخـلاق النفعية فالفائدة هي الأصل، بينما يكون التزام الموازين الأخلاقية والواجبات الإنسانيّة أمراً تبعاً وثانوياً. ولا تتبين آثار هذا الاختلاف إلّا عندما يقع تضادٌّ بين الواجب الأخلاقي والمنفعة المادية، ففي مثل هذه الحالات يقف المرء على مفترق طريقين.

**الأول**: هو طريق الحقّ والفضيلة.

**والثاني**: هو طريق الربح والمنفعة.

فإذا أراد أن يكون إنساناً يحترم السجايا الإنسانيّة، ويرعى مبادىء الأخلاق والفضيلة، فإنّ عليه أن يغض النظر عن المنفعة غير المشروعة، وإذا أراد أن يتبع أهواءه ويشبع رغبته في الانتفاع، ويركض وراء المادة، فإنّ عليه أن يغض الطرف عن

الحقّ والفضيلة، ويقترف ما يشاء من المخالفات.

إن النفعيّين الذين لا يملكون دافعاً إيمانياً، لا يشعرون بالمسؤولية، بل إنَّ دافعهم إلى السلوك الأخلاقي ليس سوى الاستزادة من المنافع المادية. عندما يجدون الفضـائـل تتعارض مع الغرائز وتسدُّ طريق المنافع، أو إذا رأوا أن التزام الموازين الأخلاقية يجلب عليهم الضرر،فإنهم يتركون سبل المكارم، ويتغاضون عن السجايا الإنسـانية، ويسيرون في طريق غير طريق الأخلاق، ويرتكبون الأعمال الفاسدة واللا إنسانية في سبيل الوصول إلى منافعهم الخاصة،ولسوء الحظ ترى هذا الأسلوب شائعاً اليوم في دنيانا هذه، وكثير من الناس يفعلون ذلك في السلم وفي الحرب.

«يقـول (لكنت دونـوئي): إنَّ بعض الـلا دينيِّين الـذين هم أخلاقيون بطبيعتهم يقـولون: بما أن المشكلة الأساس هي إطاعة القوانين الأخلاقية، فإنّنا إذا استطعنا أن نطبِّق هذه القوانين عمليّاً فلن نكون بحاجة إلى الدِّين. وهذا يعني فقدان العقائدية، إذ إن الإنسان يشكُّ دائماً في القوانين التي لا يعرف مصدرها. ثم إن مثل هذا السلوك دليل على عدم فهم أصل المشكلة إذ المقصود هو أن يتكامل الإنسان من الداخل حتى يستطيع أن يفكر تفكيراً أخلاقياً، وليس المقصود أن نحمل الإنسان على أن يؤدي حركات أخلاقية. فما لم يكن سلوك كل شخص دليلاً على تكـامله الباطني العميق، فإن أعماله ستكون سلسلة من القيود المصطنعة والمتفق عليها والمؤقتة التي تتهاوى عند أول ذريعة مناسبة. فعندما تفرض القواعد الأخلاقية فرضاً عشوائياً، وإن تكـن ذات قيمة عملية، فإنّها لن تستطيع الوقوف بنجاح في وجه الدوافع الحيوانية»[٢٨].

إن المؤمنين الذين يقصدون من التخلُّق بالأخلاق الحسنة أداء التكاليف الإلهيّة وإطاعة أوامره، لا يفتأون يراقبون أعمالهم، وإذا ما اتفق أن كان التزامهم الأخلاق يؤدي إلى ضررهم، أو يتعارض مع مصالحهم، فإنَّهم يُقدمون رضى الله تعالى، فيتحمَّلون

---

(٢٨) مصير البشرية: ٢١٦.

الضرر ويتنازلون عن المنفعة، ويواصلون مسيرتهم في طريق الحقّ والفضيلة لتنفيذ الأوامر الإلهيّة، ولا يتخلّون عن تمسكهم بالأخلاق في أداء تكاليفهم. وهذه الحالة كثيراً ما تتكرر في حياة أئمة المسلمين وأتباعهم الحقيقيّين.

كان رسول الله(ص)، قبل الهجرة، يغتنم فرصة تجمع القبائل والعشائر العربية التي كانت تفد على مكة من كل حدب وصوب، ليزورهم في مضاربهم، يدعوهم إلى عبادة الله الأحد، وإلى التحرر من العبودية للأصنام، ويعلن لهم رسالة نبوته.

ومرة، عندما كان التجمع قد اشتد في مِنى، بدأ بإعلان دعوته، متجهاً أوّلاً إلى مضارب بني كلب، ومن ثم إلى مضارب بني حنيفة، عارضاً على هاتين القبيلتين الدخول في الإسلام، ولكنهما رفضتا دعوته وردّتاه فاتجه إلى بني عامر وعرض عليهم الإسلام. وكان رجل من رؤسائهم اسمه (بحيرة) قد جذبه مظهر الرسول الكريم(ص) ولهجته الرصينة النافذة، فقال: لو أُتيح لي أن أستميل هذا الرجل عن قريش إليَّ، لاستطعت بقدرته أن أُسيطر على العرب جميعاً واستحوذ على اطاعتهم. ثم التفت إلى رسول الله(ص) وقال:

«أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: *الأمرُ إلى اللهِ يضعُهُ حيثُ يشاءُ*.

فقال له: أفتُهدَفُ نحُورُنا للعربِ دونكَ فإذا أظهركَ اللهُ كانَ الأمرُ لغيرِنا؟ لا حاجةَ لنَا بأمرِك. فأبُوا عليهِ»[٢٩].

لم يكن بنو عامر يدركون ما في قلب رسول الله(ص) فلم يفهموا معنى أن يكون الأمر لله يضعه حيث يشاء. ولو أن نبيَّ الإسلام قَبلَ يومذاك ما طلبه (بحيرة) لكان يَعِدُ بني عامر بالأمر من بعده، ويحيي آمالهم بالمستقبل، ولإلتفَّ حوله أبناء تلك القبيلة، يضعون تحت أمره كل ما كان فيهم من قوة وسلاح، ولكان الإسلام ينتشر بسرعة، وكان هذا بذاته يعد نجاحاً كبيراً، وفائدة عظمى. ولكن قائد الإسلام،

---

(٢٩) سيرة ابن هشام: ٤٢٤.

المبعوث من الله لتربية الإنسان، والقدوة في مكارم الأخلاق، ما كان ليخطو خطوة لا تتّفق وشرف الإنسانية. ولا يَعِدَ بما لا حقيقة له.

إنه يطيع الأوامر الإلهيّة، ومعياره للحسنة والسيئة هو رضى الله تعالى وسخطه، لا المنفعة الشخصية. لذلك أشاح بوجهه عن المصلحة الخاصة، رعايةً لمكارم الأخلاق والشرف الإنساني، فأطلع (بحيرة) على الحقيقة الصادقة: «الأمر لله يضعه حيث يشاء».

على الرغم من أن ظاهر الحدث كان يعني أن فرصة ثمينة قد أفلتت من يد رسول الله(ص)، وأن بني عامر قد امتنعوا عن قبول الإسلام. ولكن النتيجة الحقيقية لذلك كانت ثمينة وقيِّمة، لأن قائد الإسلام قد كشف بردِّه عن أهمية السجايا الإنسانية أمام أتباعه، وضرب لهم أروع مثل في تحمل مسؤولية الأمر الإلهيّ ولزوم التمسّك بالواجب الأخلاقي.

## كيف يفكّر النفعيون

إذا ما شاء النفعيُّون وأصحاب الأخلاق النفعية أن يتناولوا هذا الموضوع بالدرس، لحكموا بأنه كان على النبي(ص) أن يعهد بالأمر إلى بني عامر من بعده، لأنهم كانوا سينحازون إليه بهذا الأمل، ويضعون طاقاتهم تحت تصرفه يستخدمها كما يشاء، فإذا لم ينجح الإسلام، أو إذا قضي على النبي(ص) نفسه خلال المعارك، انتفى موضوع الحكم من بعده أصلاً، ولما قيل شيء عمن يخلفه. وأمّا إذا نجح الإسلام وتقدَّم وانتشر، وانتصر رسول(ص) فإنه يستطيع حينذاك أن يخبر بني عامر، من موقع القوة، بأن الأمر لله يضعه حيث يشاء، ويحملهم على أن يَحُلّوه من وعده، لأنهم ما كان لهم بدٌّ من الإذعان بعد أن يكون الأمر قد استتب للنبي(ص) وانتهى كل شيء. وإذا ما عارضوا أسكتهم بالوعد والوعيد، فإذا تمردوا، قضى عليهم قضاءً مبرماً بما تكون لديه من قوة.

إن هذا اللون من التفكير ناجم عن الأنانية والنفعية والتنكُّر لمكارم الأخلاق وللقيم الإنسانية. وإنه لمن سوء الحظ أن يتبع كثير من الناس اليوم هذا الطراز من

التفكير، فيقيسون حسن الأخلاق وسوءها بالمنافع والمضار الشخصية. ولربما لا يجاهر هؤلاء بأفكارهم هذه، ولكنهم يطبقونها عملياً، ويدوسون الأخلاق بأقدامهم في سبيل منافعهم، وينبذون قيم الحقّ والفضيلة، ويرتكبون كل عمل لا إنساني من دون أن يردعهم رادع. وهذا الانحراف الأخلاقي هو بذاته من أكبر عوامل تعاسة الإنسان في الحياة المعاصرة.

لقد صادف الإمام علي(ع) في حياته الكثير من أمثال هذه الحالات التي تكشف كل حالة منها عن الأخلاق الإلهية، وتبيّن مدى الشعور بالمسؤولية، وتضرب مثلاً للسجايا الإنسانية. وإنّنا هنا نشير إلى حالة من تلك الحالات، وقعت في حرب صفين:

صفين أرض تقع غرب نهر الفرات بين «الرقة» و«بالس»، حيث دارت رحى حرب ضروس بين جيش الإمام علي(ع) وجيش معاوية، أصابت كلا الطرفين بخسائر كبيرة، فقد جاء في بعض الروايات أن جيش علي(ع) ضمَّ تسعين ألف جندي، بينما بلغ جيش معاوية مئة وعشرين ألفاً[٣٠].

كانت أرض صفين مرتفعة عن نهر الفرات، فكانوا يستخدمون الدِلاء للاستقاء. ولكن في المناطق المزدحمة بالقوافل وبالأنعام والأغنام التي ترد الماء لم يكن للدِلاء نفع كبير، فكان الناس قد شقوا طريقاً في المناطق المنخفضة للوصول إلى شريعة الماء بحيواناتهم وإبلهم فيردونها ويحملون من الماء ما يحتاجونه في رحلتهم.

في صفين كانت الشريعة عريضة تفي لسقي كلا الجيشين دون عناء، ولوصول الفرسان إلى الماء، هم وخيولهم، ولحمل ما يحتاجون من الماء.

وقبل اندلاع حرب صفين، عزم معاوية بن أبي سفيان على الاستيلاء على شريعة الفرات، ومنع جيش علي(ع) من الوصول إلى الماء، للتضييق عليهم، والانتصار في الحرب. ونفّذ معاوية عزمه، فوكل لحراسة الشريعة جيشاً قوامه أربعون

(٣٠) معجم البلدان، «صفين».

ألف جندي بإمرة أبي الأعور، ليمنعوا جيش علي(ع) عن الماء.

وإذ حاول نفر من جنود الإمام الوصول إلى الماء، منعهم جنود معاوية، وتجالدوا ساعة، ثم عاد جنود الإمام إلى معسكرهم دون ماء. وانتشر خبر ضرب الحصار على شريعة الفرات، فغضب جنود الإمام، وأرادوا أن يبدأوا الهجوم بأسرع ما يمكن لطرد جيش معاوية من شريعة الماء، ولكن الإمام(ع) لم يكن يريد أن يكون هو البادىء بالحرب، فيحتكم إلى السيف قبل إتمام الحجّة على معاوية وجيشه.

ولكي يبين الموقف، استدعى عبدالله بن بديل، وصعصعة بن صوحان، وشبث بن ربعي، وطلب إليهم الذهاب إلى معاوية ليقولوا له إنه لم يأت بجيشه ليحارب على الماء، فليأمر معاوية جنوده بإخلاء طريقهم إلى الماء.

إنطلق أعضاء الوفد إلى معاوية وأبلغوه رسالة الإمام(ع)، وتحدّثوا بأنفسهم عن الأمر أيضاً، وراحوا يحذِّرون معاوية من إراقة الدماء وإشعال الفتنة. كما أن بعضاً من حاشية معاوية الذين حضروا المجلس أوردوا بعض الكلام، وكان بعضهم شديد المعارضة لاحتكار الماء، غير أن معاوية ظل مصرّاً على موقفه ورد الوفد خائباً.

رجع أعضاء الوفد وشرحوا للإمام ما جرى في مجلس معاوية. وإذ سمع الجيش بالخبر اشتد به الغضب وتهيأ لخوض معركة دامية.

وبعد أن أرخى اللَّيل سدوله وغطّى الظلام كلَّ شيء، خرج الإمام علي(ع) من خيمته يتفقّد العسكر، فسمع الجنود في خيامهم يتحدّثون عن ظلم معاوية، ومحاصرة شريعة الماء، ومشكلة العطش. كانوا يترنَّمون بالشعر الحماسي، ويتحاورون في شؤون الحرب، وهم ينتظرون صدور الأمر بالحرب.

وعند عودته إلى خيمته، دخل عليه الأشعث بن قيس، ثمَّ مالك الأشتر، وأخذا يشرحان ظروف فقدان الماء واستعداد الجنود للمباشرة بالحرب، وطلبا من الإمام أن يصدر أمره بالهجوم على جيش معاوية لتحرير شريعة الماء، وإنهاء هذه الحالة الشائنة. كان الإمام قد أوفد وفده إلى معاوية وأتمَّ الحجّة عليه دون أن ينصاع معاوية للحقّ، فلم يجد الإمام(ع) بدّاً من أن يأمر ببدء الحرب، فخاطبهم قائلاً:

*«فإن القومَ قدْ بدأوكُم بالظلمِ، وفاتحوكُم بالبْغي واستقبلوكُم بالعدوانِ...»*

عاد مالك والأشعث إلى جنودهما قائلين لهم: من لا يخاف الموت فليتهيأ لبزوغ الفجر. فتطوّع لذلك نحو اثني عشر ألف جندي. وبدأت الحرب عند بزوغ الشّمس. وكانت حرباً شديدة، قتل فيها من الجانبين خلق كثير، ولكن قتلى جيش الشام كانوا أكثر عدداً. وانتصر جيش الإمام(ع)، ودحر جيش معاوية وانهزم، ووقعت شريعة الماء بيد جيش الإمام.

بعد هذه الهزيمة سأل معاوية عمرو بن العاص: ما رأيك؟ ألا ترى أن عليّاً سيمنع الماء عنّا؟ فرد عليه عمرو بن العاص قائلاً: لا أرى علياً يمنع الماء عن مخلوق.

مضى على ذلك يومان من دون حادث بشأن الماء. وفي اليوم الثالث أرسل معاوية وفداً مؤلفاً من اثني عشر رجلاً إلى الإمام علي(ع) يستجيزونه في الاستسقاء، فقال قائلهم في حضرة الإمام(ع):

«ملكتَ فامنَحْ، وجُدْ علينا بالماءِ، وأعفُ عمَّا سلفَ منْ معاويةَ».

فقال لهم الإمام(ع): عودوا إلى معاوية وأبلغوه أَن أحداً لا يمنعهم عن الماء. وأمر أن يُنادى بذلك بين الجنود. فاستتب الهدوء على شط الفرات ثلاثة أيام. يرده كلا الطرفين. ولكن عادت إلى معاوية فكرة الاستيلاء على الشط واحتكار الماء. فبادر إلى خدعة يبعد بها جنود الإمام عن مواضعهم عند الشريعة، ليحتل مواضعهم. فأمر أن يكتب على شاخص خشبي: «يحذركم أحد عباد الله المحبّين لأهل العراق من أن معاوية ينوي أن يكسر سد الفرات ليغرق الجنود على الشط، فكونوا على حذر». وفي الليل وُضع الشاخصُ في قوس ورمى به بين الجنود العراقيين. وعند طلوع الفجر لحظ أحد الجنود الشاخص وقرأ ما عليه، وناوله لغيره، حتى أوصلوه إلى الإمام(ع)، فقال: *«هذه خدعة من خدع معاوية، إنّه يريد ارعابكم ليشتتكم»*.

وعند الصبح شاهد العراقيون مئتين من جنود معاوية الأشداء يحملون المعاول والمجارف، يقدمون إلى حيث سدّ الفرات، وبدأوا التخريب فيه وهم يتصايحون، فصدَّق العراقيون مقولة صاحب الشاخص،وأنه قد نصح لهم،فارتأى القادة

ورؤساء القبائل أن الصلاح في ترك شريعة الماء لينجوا بأنفسهم من خطر محتمل. ولم يأت المغرب حتى كانت الشريعة قد أُخليت من الجند ومما حولها من الخيام والمرابض.

وعند منتصف الليل أمر معاوية جنوده باحتلال الشريعة، وأن ينصبوا خيامهم بمكان خيام جند الإمام(ع). وعند الصبح أدرك العراقيون أن معاوية قد خدعهم، وخجلوا من عدم تصديق رأي الإمام، وندموا على ما فرط منهم، وجاء بعض الرؤساء يطلبون العفو من الإمام، ووعدوه ببذل كل ما يستطيعون لجبر هذا الكسر الشائن.

وتقدم مالك والأشعث يخطبان في الجنود الذين كانوا يحسُّون بالخجل وبالغضب، فأثارتهم خطبهما وأهاجتهم، حتى أنهم جرّدوا سيوفهم من أغمادها، وتعاهدوا على الموت، وانحدروا نحو الميدان كالأسود الهائجة، واشتبكوا مع جند معاوية في حرب ضروس دموية، فقتل عدد من الجانبين، ولم ينقضِ النهار حتى ضعف جنود معاوية عن المقاومة وولوا الأدبار حتى مسافة ثلاثة فراسخ، وانتصر جيش الإمام علي(ع) انتصاراً كاسحاً، واستعاد سيطرته على شط الفرات.

وتقدم الأشعث إلى الإمام علي(ع) يهنئه بالانتصار ويستأذنه في منع الماء عن جيش معاوية، فرفض الإمام ذلك وقال: إن الماء يجب أن يكون في متناول الجميع. ولكيلا يظن معاوية أنه ممنوع من الماء، لم ينتظر الإمام مجيء وفد من معاوية، بل بادر بإرسال مبعوث يخبر معاوية بأنه لا يقابل عمله القبيح بمثله، وله أن يستقي لجنوده كالسابق(٣١).

## الأخلاق النفعية والأخلاق الإلهيّة

هذا معاوية يدوس بقدمه مبادىء الفضيلة والأخلاق في سبيل شهواته الأنانية ومصالحه المادية، فيمنع الماء عن الآلاف من الجنود وحيواناتهم، ويفرض عليهم العطش، ويضحّي بأرواح الكثيرين من أجل الوصول إلى السلطة لإشباع شهوة

---

(٣١) ناسخ التواريخ، حالات أمير المؤمنين: ٢١٧.

الرئاسة عنده.

وهـذا علي(ع)، يبدأ بالنصح والإرشاد لإباحة ماء الفرات، ومن ثم يتوسّل بالعمل العسكري. ولكنّه لا ينتقم بعد الانتصار، ولا ينسى الكرامة الإنسانية وعظمة النفس، فلا يرتضي لجنـود العـدوان أن يبقوا عطاشى، ولا يردُّ على أعمال معاوية القبيحة اللا أخلاقية بمثلها.

يتّضـح الاختـلاف بين الأخـلاق الإلهيّة والأخلاق النفعية في هذه الحكاية التاريخية بكل جلاء، والمقارنة بين عمل معاوية اللا أخلاقي ورد فعل الإمام علي(ع) الإنسـاني، تكشف عن الحقيقـة القـائلة بأن النفعيين، عندما يتضارب واجبهم مع مصلحتهم، يضربون الواجب عرض الحائط، وينحازون إلى أهوائهم ورغباتهم، ومن أجـل نيل أهـدافهم المادية لا يتورعون عن ارتكاب أعمال غير إنسانية تتعارض والأخلاق. غير أن رجال الله يتّبعون أوامر الله في كل الأحوال، ويقومون بواجباتهم الأخلاقية، ولا يستسلمون لرغباتهم الطبيعية ومصالحهم المادية، ولا يحقّقون حاجاتهم النفسية إلّا في حدود الأوامـر الإلهيّة، وهم فضلاً عن كونهم لا يضحّون بالسجايا الإنسـانية من أجـل المنـافـع غير المشروعة، فإنهم يفضّلون مكارم الأخلاق على مصالحهم المشروعة نفسها.

## الأخلاق والشعوب المتقدمة

واليوم، نجـد في الشعوب المتقدمة الكثيريـن الــذين يتخلّقون بالأخلاق النفعيّة، ولكنك في الظروف العادية تجدهم إنسانيين في أخلاقهم، يلتزمون الفضائل، يحبـون الآخـرين ويعـاملونهم بلطف، ولا يتوانون عن إعانة الضعيف، ومساعدة المحتاج، ومعالجة المريض، ويتبرعون بالدم لمن يحتاجه حالما يُعلن عن ذلك في وسائل الإعـلام العامة، فتراهم يهرعون إلى المستشفى للتبرع بالدم مجاناً، لعلهم ينقذون إنساناً من الموت. بل إن الحيوانات أيضاً تحظى بعطفهم ورحمتهم. فهناك في أنحاء

كثيرة من الغرب جمعيات للرفق بالحيوان ورعايته، يجتهد أعضاؤها في الدفاع عن الحيوانات وحمايتها، ومنع إيذائها، وتوفير الراحة والرعاية لها.

قبل سنوات قرأت في الصحف أن رجلاً كان يسوق سيارته بسرعة، فارتطم عصفور بزجاج السيارة الأمامي وسقط ارضاً فأوقف الرجل سيارته، وترجّل ليرى ما حلّ بالعصفور، فوجده ما يزال حيّاً، ولكن رجله مكسورة ولا يستطيع الحركة، فتألم لذلك كثيراً، وحمل العصفور، وغيّر مسيره وأوصل العصفور إلى المستوصف البيطري، وطلب من مسؤولي المستوصف، بلهجة يبدو عليها التأثير الشديد، أن يبذلوا عنايتهم لمعالجة الحيوان.

إن هؤلاء الذين يتحدّثون عن حب الإنسان، ويؤسسون الجمعيات للرفق بالحيوان، يواظبون على التزامهم الخصال الإنسانية واحترامهم للحقّ والفضيلة، ما دامت الأخلاق لا تقف حجر عثرة في طريق مصالحهم، ولا تضر بمنافعهم الخاصة. فإذا اتفق يوماً أن حصل تضارب بين الشعور بالمسؤولية ورغباتهم، بحيث إن التزام المبادىء الأخلاقية استوجب كبح جماح بعض ميولهم وغرائزهم، فإنهم يضربون بالأخلاق عرض الحائط، ويتخلّون عن الفضائل، ويرتكبون كل عمل منافٍ للأخلاق في سبيل تحقيق أمنياتهم ورغباتهم.

وهؤلاء هم الغربيون الذين ارتكبوا في الحرب العالمية الثانية الأعمال الوحشية من أجل التفوّق وإرضاء نزواتهم، فدمّروا المدن بقنابلهم الحارقة والانفجارية والذرية، وقتلوا المدنيين الأبرياء العزّل من كل دفاع بكل قسوة، أبادوا المرأة والرجل والشيخ والشاب والمريض والسليم والصغير والكبير.

هؤلاء هم الغربيون الذين عاملوا أسرى الحرب في بلادهم معاملة غير إنسانية، فكانوا يحرقونهم أو يخنقونهم أو يعذبونهم، ويعاملونهم كما تُعامل الحيوانات المختبرية لإجراء التجارب عليهم.

وهذا الغرب اليوم، على الرغم من أنه لا يخوض حرباً عالمية، ما يزال أسير أعماله اللا إنسانية التي تتعارض والأخلاق، وما يزال منغمساً في دوامة التعاسة وانعدام

الأمن. لا يمضي يوم إلاّ وقد أُرتكبت فيه مئات الجرائم المختلفة في أوربا وأمريكا، حيث يقوم الناس بكل عمل إجرامي ويدوسون على كل القيم الإنسانية في سبيل إرضاء غرائزهم وأنانياتهم وشهواتهم وحبِّهم للثروة والانتقام والاعتداء والهدم.

«قبل أيام عرض التلفزيون الفرنسي فلماً يمثل مشاهد من أعمال الاختطاف وقتل الرهائن. ثم عرض التلفزيون لقاءات مع عدد كبير من الفرنسيين تحدَّثوا عن الإرهاب وطرق مكافحته ومعاقبة الإرهابيِّين. وكاد الذين تحدّثوا أن يجمعوا على ضرورة معاقبة هؤلاء بالإعدام، تلك العقوبة التي ألغتها غالبية الدول الأوربية من قانونها.

لقد كان اتفاق أصحاب المقابلات في ذلك مما يدعو إلى الدهشة، حتى أن أحد المعلِّقين المعروفين أعرب عن أسفه وتأثره من أن يرى الرأي العام ينحاز إلى استعمال الأساليب القاسية ضد الحريات الفردية إلى هذا الحد. إن هؤلاء الغربيين المتقدمين هم الذين كانوا ينادون بالعودة إلى عقاب الإعدام»(٣٢).

## الشعور بالمسؤولية

إن القوانين القاسية وتشديد العقاب لا تحل عقدة العالم، ولا يمكن بها إيصال الإنسان إلى السعادة. بل لا بد من مكافحة الأفكار الشّيطانية، وتطهير قلوب الناس من الميول السيئة. ينبغي زرع الأخلاق الإيمانية مكان الأخلاق النفعية، لكي يرى كل امرئٍ نفسه مسؤولاً أمام الله، فليتزم الصدق ويقوم بالواجب بدافع من إيمانه.

في القرآن المجيد والأحاديث الشريفة الكثير الكثير مما يدور حول الإيمان بالله، ويوم القيامة، وطهارة الضمير، وحسن النيّة، والقيم الأخلاقية والتربوية. أمّا الآيات والأحاديث التي تتناول القوانين الجزائية والعقابية فقليلة معدودة، لأن الإسلام يريد الفرد أن يكون إنساناً، وأن ينطلق بدافع من طاقته الداخلية نحو الإيمان والشعور

---

(٣٢) صحيفة اطلاعات، العدد: ١٤٨٩١.

بالمسؤولية في طريق الطهارة والفضيلة. إن الإسلام لا يريد الفرد أن يكون، مثل الحيوانات، لا يسير في طريقه إلّا بالضرب بالسياط ولا يترك الإساءة إلّا خوفاً من العقاب.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«إنَّ العاقلَ يتَّعظُ بالأدبِ، والبهائِمُ* لا *تتَّعظُ إلّا بالضَّربِ»*(٣٣).

الإيمان بالله يدعو إلى السكون، وقانون العقوبات يدعو إلى السكوت. الإيمان بالله يخلق في كل مكان وزمان اطمئناناً باطنياً. ولكن القوانين الجزائية تخلق اطمئناناً خارجياً على قدر تنفيذها. إنَّ الأمن الحقيقي، الذي هو أساس سعادة الإنسان، إنّما يحصل في ظل الإيمان بالله والشعور بالمسؤولية أمام الله.

**﴿ ٱلَّذينَ ءَامنوا ولم يلبِسُوا إيمانَهُم بِظُلْمٍ أُولئِكَ لهم ٱلأَمْنُ وهمْ مهتدونَ﴾**(٣٤).

وهكذا نجد الخلق النفعي مبنياً على جلب المنافع المادية، وإرضاء غريزة حب الذات. والخُلق الإيماني مبني على جلب رضى الله وأداء الواجبات الشرعية. الخلق النفعي لا يجلب السعادة للإنسان، لأنه يعجز عن منع الإنسان من ارتكاب الذنب والفساد عند طغيان الغرائز وفورة الشهوات. أمّا الخُلق الإيماني فهو بذاته أساس سعادة الفرد والمجتمع وسلامتهما، لأنه قادر على كبح جماح الغرائز العنيدة، وتصحيح مسار شهوات النفس ورغباتها، ويتيح للإنسان أن يتمتع بالحياة الإنسانية والأخلاق السليمة.

*«اللَّهُمَّ أنتَ السَّلامُ، ومنكَ السَّلامُ، وإليكَ يعودُ السَّلامُ، ودارُكَ دارُ السَّلامِ، حَيِّنَا رَبَّنا منكَ بالسَّلامِ»*(٣٥).

---

(٣٣) فهرست الغرر: ٤٠٨.

(٣٤) سورة الأنعام: ٨٢.

(٣٥) مفاتيح الجنان، أعمال مسجد الكوفة.

# الفصل الرابع

*«مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَمَنْ سَمِعَ رَجُلًا يُنَادِي: يَا لَلْمُسْلِمِينَ! فَلَمْ يُجِبْهُ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ»*

*رسول الله (ص)*

## الأخلاق الطبيعية ونظرية التكامل

في الإنسان ـ بالإضافة إلى الغرائز الطبيعية والرغبات النفسية المشتركة بينه وبين الحيوان ـ بعض الميول والتوجهات الرفيعة الخاصة. وهذه الميول والتوجهات، التي هي أُسس الصفات الإنسانية، وحبِّ الآخرين، ومكارم الأخلاق، قد جُبِلَتْ في طينة الإنسان، ولها في باطن كل فرد جذور فطرية.

إن الذي يتربّى تربية صحيحة منذ طفولته، وتتفتح الميول الإنسانية في ضميره، يكون منذ البداية إنساناً، ويحيا إنساناً، ويتحلّى بالقيم الإنسانية. ومثل هذا الإنسان يكون محبّاً للآخرين، كريم النفس، نبيلاً، منزَّهاً عن الأنانية وحبِّ الذّات، متمسِّكاً بمكارم الأخلاق، ذا سجايا حميدة، ملتزماً دائماً بالواجبات الإنسانية والأخلاقية في أعماله وتصرفاته.

## حب الآخرين وطبيعة الإنسان

إنّ الذين لم يتربوا تربية صحيحة، ولم تنمُ الإتجاهات الإنسانية في بواطنهم، فإنهم، وإن لم يتّصفوا بمكارم الأخلاق يحسُّون بطبيعتهم بالسرور والارتياح من سلوك أصدقائهم، وبإزاء ما يرونه من أعمال التضحية، والنبل، والتعاون، والإيثار، والعفو، والتسامح، والتمسّك بالشرف والطهارة، من جانب أُناس فضلاء، يبادرون إلى الثناء على ذلك واستحسانه، وينظرون إليهم بعين التكريم والاحترام، وإذا لم يظهروا تحسُّرهم على عدم اتّصافهم هم بمثل تلك الصفات الإنسانية السامية، فإنّهم، في الأقل، يعترفون بأنهم لا يملكون ما عند ذوي النفوس الكريمة من نبل وكرم نفس.

سبق القول بأن السلوك الأخلاقي لمحبيّ الذّات يتعارض مع مكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية، لأنهم لا يهتمون إلاّ بالجانب الحيواني من ذواتهم، ولا يفكرون إلاّ في كيفية إشباع غرائزهم وشهواتهم. يرى هؤلاء أن الأخلاق الحسنة هي كل ما يحقق للفرد نجاحه وتمتعه ويزيد من لذّته، وأنّ الأخلاق السيئة هي كل ما يمنع اللذّة ويحول دون الازدهار والانشراح النفسي.

## الأنانيون

إن الأنانيِّين فضلاً عن كونهم لا يهتمون بحب الآخرين، ولا يقومون بأيّ عمل من أجل مدِّ يدِ العون للمحتاجين والعطف على المتألِّمين، فهم إن وجدوا أن الاعتداء على حقوق الآخرين والعدوان عليهم يرضي غرائزهم، ويشبع أهواءهم، ويزيد من لذتهم، فإنهم يجوّزون ذلك العدوان من الناحية الأخلاقية، ويسمحون لأنفسهم باغتصاب حقوق الآخرين، وهكذا نجدهم متخلِّقين بالخلق الحيواني ومتطبّعين بالطبائع الافتراسية، ولا علاقة لهم بتنمية الميول الإنسانية النبيلة، وبنيل مكارم الأخلاق.

والأخلاق النفعيّة أيضاً قائمة على حبِّ الذّات واجتذاب المنافع المادية. وأصحاب هذا الخلق يفتقرون إلى السموِّ المعنوي والكمال الروحاني، إذ إن ما يدفعهم

إلى الالتـزام بالمبـادىء الأخـلاقية ليس هو الشعور بالمسؤولية، ولا العمل بالقيم الإنسانية، بل كل هدفهم هو الاستزادة من المنافع والعيش في رفاه. لذلك فإنّهم عندما يجدون تضـاربـاً بين ما يجب عليهم وما يحبّون، يغيّرون سلوكهم، ويتركون عملياً واجباتهم الأخلاقية والإنسانية، راكضين وراء غرائزهم وشهواتهم، ولا يتورعون عن ارتكاب الأعمال اللا إنسانية واللا أخلاقية في سبيل نيل منافعهم المادية. من الواضح أنّ أخلاقاً كهذه لا تستطيع أن تصنع من الفرد إنساناً، ولا أن تربّي فيه السجايا الإنسانية العالية، لتخلق منه إنساناً يؤثر على نفسه ويحب الآخرين.

## الأخلاق النفعية

لسوء الحظ، هذا الخلق النفعي، الذي يفتقر إلى القيم الفاضلة، والذي يتميز بالرياء والظاهر المرائي، قد استطاع النفوذ في الأوساط الإسلامية، واستمال بعض المسلمين النفعيين المحبّين للدنيا. ولقد تنبأ الرسول الكريم(ص) في حياته بمجيء مثل هذا اليوم على الأمة الإسلامية.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «*سيأتي على أُمّتي زمانٌ تخبُثُ فيهِ سرائرُهُم وتَحسُنُ فيهِ علانيَتُهم طَمعاً في الدُّنيا، لا يريدُونَ بهِ ما عندَ اللهِ عزَّ وجل، يكونُ أمرهُم رياءً*»[1].

ليس في العقيدة الشيوعيّة بحث عن مكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية، ولا فيهـا كلام على الإنسانية وتربية الإتجاهات الإنسانية الرفيعة، فقادة هذه المدرسة ينظرون إلى الأخلاق بمنظار المادة وحده، ويربطون كيفيتها حصراً بكيفية علاقات الإنتـاج والخصـائص الاقتصـادية، دون أن يضعوا في الحساب شيئاً من الأخلاق الحميدة التي هي إمارة الشرف الإنساني ونبل الإنسان وكرم نفسه.

---

(١) منتخب الأثر: ٤٢٦.

## الأخلاق والشيوعيّة

«الأخلاق، من وجهة النظر الماركسية ـ اللينينيّة، تقوم، مثل كل المظاهر العقـائدية الاجتماعية، على أساس من العوامل الاقتصادية في المجتمع، إذ يقول (إنجلز): إن الناس يستقون نظرياتهم الحقوقيّة من الظروف الاقتصادية، بعلم منهم أو بدونه»[٢].

«إن الماركسية ـ اللينينيّة تستنبط مفهوم الأخلاق من فهمها التاريخ فهما مادياً، فالأخلاق، عندها، مظهر من مظاهر الضمير الاجتماعي الذي يتمثّل في خصائص علاقات الإنتاج.

والأخـلاق، كالعلم، والفلسفة، والدِّين، والفن، والحقوق، وسائر عناصر العقيدة الاجتماعية، تتبع خصائص المجتمع الاقتصادية، بحيث إنه إذا طرأ أيُّ تغير في حياة الأفراد المادية، طرأ تغير في الأخلاق، وكان دورها متناسباً مع التغـيرات الاقتصادية. إن أفعال الأفراد وسلوكهم، وكذلك نظريات العلماء الأخـلاقية، في كل عصـر، تبـيّن خصـائص النـظام الاجتماعي والأوضاع الاقتصادية لذلك العصر»[٣].

ليس هناك من شك في أن للوضع الاقتصادي في كل مجتمع تأثيراً كبيراً في أخلاق ذلك المجتمع وسلوكه، إذ إن الأخلاق العامة، في كل زمان، تقع تحت تأثير الـظروف الاقتصـادية لذلك الزمان، وإن أخلاق الناس تتغيّر بتغيُّر تلك الظروف الاقتصادية، ويتبدل طبقاً لها سلوكهم. إلّا أنَّ هذا لا يعني أن الاقتصاد هو العامل الـوحيد في صياغة أخلاق المجتمع، وأنه ليست هناك عوامل أخرى. ولكن أتباع المـدرسـة الشيوعية يرون أن الـظروف الاقتصادية هي البنية الأساس للأخلاق، ويعتقدون أن جميع الموضوعات الأخلاقية، في الماضي والحاضر، إنّما تنبع من تطورات الأوضاع الاقتصادية.

---

(٢) المجلة الدولية، المجلد ١، العدد ٥: ٤٣.

(٣) (ن.م): ٤٧.

«نحن الشيوعيين نقول: إن كل نظرية أخلاقية وضعت حتى الآن هي، في نهاية المطاف، نتيجة للوضع الاقتصادي في المجتمع»[٤].

## دفاع الشيوعيين

إن أصحاب هذه النظرية، لكي يسوّغوها، ويثبتوا علاقة الأخلاق بالوضع الاقتصادي، يتناولون حالة (السرقة) ـ وهي من السيّئات الأخلاقية ـ بالدرس والبحث في وجود هذه الحالة وعدم وجودها في ظروف اقتصادية مختلفة، وتحدّثوا عن ذلك بإسهاب:

«إن سبب السرقة، بالدرجة الأولى، هو الحاجة. والحاجة وليدة الملكيّة الخاصة لوسائل الإنتاج. وعليه، فإذا ما أُلغيت الملكية الخاصة، التي هي أصل (الحاجة)، فإنّ السرقة ستختفي تلقائياً. إن الملكية الخاصة ملغية في المجتمع الشيوعي، وتقوم مقامها ملكية أخرى هي الملكية الاجتماعية والاشتراكية. لذلك فإن وسائل الإنتاج، في النظام الشيوعي، ليست من الملكية الخاصة للأفراد، فلا يمكن لشخص أن يستحوذ على شيء هو ملك شخص آخر، فلا يتحقق عمل «السرقة» اللا أخلاقي. ومن البديهي أنه إذا ما قُضي على «السرقة» بجميع مظاهرها، فإنّ الوصية الأخلاقية: (لا تسرق!) تصبح غير ذات موضوع»[٥].

## الحاجة وظاهرة السرقة

كاتب هذا المقال يظن أنّ الحاجة هي وحدها سبب حصول السرقة، وأن سبب الحاجة هو الملكية الخاصة. واستناداً إلى هذا التصور غير الواقعي يصل إلى النتيجة المغلوط فيها والقائلة: إنه إذا ما أُلغيت الملكية الخاصة واستبدلت بالملكية الاجتماعية،

---

(٤) ن.م: ٤٨.

(٥) ن.م: ٥٠.

فإنّ السرقة تزول تلقائيّاً.

إننا نعلم أن جانباً كبيراً من السرقات، سواء كانت بالواسطة أو بدون واسطة، ليس متسبباً عن الفقر والظروف الاقتصادية، بل هو ناجم عن قصور التربية، وغلبة الغرائز، والفقر الأخلاقي، وعوامل نفسية أخرى. هنالك أثرياء كبار، ولكنهم يسرقون بسبب من طمعهم وحبهم للمال. وهناك آخرون يسرقون للانتقام، أو الحقد، أو الحسد، وما أشبه ذلك. بل إن هناك من يعتبر السرقة عملاً بطولياً، فيسرق ليسبغ على نفسه هذه الصفة، ولإثبات وجوده. وعليه، فالسرقة ليست ـ دائماً وأبداً ـ وليدة الظروف الاقتصادية والفقر المالي، بل إن العوامل النفسية والأخلاقية قد تدفع بعضهم إلى السرقة.

ولربما تنبّه الكاتب نفسه إلى هذا الأمر، فأشار إلى ذلك في سياق كلامه، إذ يقول في بداية مقاله: «إن سبب السرقة، بالدرجة الأولى، هو الحاجة...» وهذا يعني أن للسرقة عللاً متعددة تقف (الحاجة) على رأسها، ثم تليها العلل الأخرى. ولكنه في مقاله لم يشر إلى العلل الأخرى التي تلي (الحاجة) في الدرجة.

يقول الكاتب بصراحة: «إن الملكية الخاصة ملغية في المجتمع الشيوعي، وتقوم مقامها ملكية أخرى هي الملكية الجماعية والاشتراكية». وبناءً على ذلك، ينبغي أن تكون السرقة قد قضي عليها نهائياً في المجتمع الشيوعي، بسبب إلغاء الملكية الخاصة، التي هي السبب الأصلي للسرقة، وقيام نظام اشتراكي مقامها وأصحبت وسائل الإنتاج في يد المجتمع.

يجب أن نسأل كاتب المقال: هل الحالة هي الآن كذلك؟ ألم يعد أحد يسرق في الدول التي استقر فيها النظام الماركسي؟ هل الأموال العامة والخاصة لم تعد تتعرّض للسرقة في المجتمعات الاشتراكية؟ وهل لم يعد أحد يُقدَّم للمحاكمة بتهمة السرقة؟ إليكم الخبرين التاليّين جواباً عن هذه التساؤلات:

«بكين ـ رويتر: تفيد البيانات الرسميّة أنّه قد تمّ إعدام شخصين بتهمة السطو على أحد المصارف، تلك الجريمة التي لم يسبق لها مثيل في الصين حتى

الآن.

وفي (جانكشا) عاصمة مقاطعة (هونان) شوهد عدد من الشاحنات المليئة بالمجرمين الذين كُتبت جرائمهم على لوحات تدلَّت من أعناقهم، ومن بين تلك الجرائم القتل. وقد شوهدت في هذه المدينة ملصقات جدارية ذُكر فيها خبر سرقة من أحد المصارف، جاء فيه أن اللصوص قد قتلوا حارس المصرف ببندقية رشاشة، وهربوا بعد سرقة أربعةٍ وثلاثين ألف يوان. والظاهر أنهم لم يُلقَ القبض عليهم بعد»[٦].

«موسكو - يونايتدبريس: حكمت إحدى المحاكم في (باكو) بالإعدام على خمسة أشخاص، وبالسجن على تسعة وخمسين آخرين، وذلك بتهمة الاشتراك في أكبر حادث اختلاس من خزينة الدولة في الإتحاد السوفيتي.

في محاكمة المختلسين التي استمرت ثمانية عشر شهراً وجِّهت إليهم تهمة اختلاس تسعة ملايين روبل عن طريق الاستغلال.

هذه المجموعة التي بلغ عددها (٦٤) شخصاً كانت تعمل في مصنع لتجفيف الخضر، وأربعة معامل للأسماك، في آذربايجان السوفيتية، وتحت قيادة الأمين العام للحزب الشيوعي في منطقة (لنكران). وقد قال المدَّعي العام في اتهامه: إن المتهمين كانوا يتسلَّمون الأموال من الحكومة المركزية لشراء مئة ألف طن من البذور أو شتلات الخضر لزرعها في المزارع. ولكن التحقيقات دلَّت على أن هؤلاء لم يصرفوا تلك الأموال لشراء الشتلات، بل وضعوها في جيوبهم»[٧].

إن هذا الاختلاس الكبير الذي وقع في مجتمع اشتراكي يفنِّد الزعمين الرئيسَّين لكاتب المقال المذكور.

الأول: أنه يبيِّن أن الحاجة ليست هي الدافع الوحيد للسرقة، إذ إن هؤلاء الثمانية والستين سارقاً لم يسرقوا بسبب حاجتهم وفقرهم، بل لا بدّ أن يكون هناك

(٦) صحيفة كيهان. العدد ٩٩٥١

(٧) صحيفة اطلاعات. العدد: ١٤٨٩٥.

دافع آخر حملهم على القيام بهذا العمل اللا قانوني واللا أخلاقي.

والثاني: هو أنّه يتبيّن من الخبر أن إلغاء الملكية الخاصة، وإقامة حكم اشتراكي، وتنفيذ الملكية الجماعية، لم يقض على حوادث السرقة، بخلاف زعم الكاتب، بل إن الاعتداء على أموال الآخرين ما يزال جارياً، لأن الانتهازيّين وعبيد الغرائز والشهوات يكونون معرَّضين للإغراء وارتكاب السرقة وغيرها من السيّئات الأخلاقية إرضاءً لتلك الغرائز والشهوات المخالفة للقانون والأخلاق، وإن النظام الشيوعي غير قادر على التأثير في أعماق الناس بحيث يكبح جماح غرائزهم العنيدة، ويمنعهم من الفساد والآثام الأخلاقية.

## خطأ النظرية

في الحقيقة يبدو أن كاتب المقال هو نفسه يعلم في دخيلته بخطأ نظريته، أو أنه، في الأقل، يشك في صحتها، لأنه لو كان مؤمناً بأن سبب السرقة هو الحاجة، وأن الحاجة ناجمة عن الملكية الخاصة، لقال بكل ثقة إنّه على أثر إلغاء الملكية الخاصة من المجتمعات الشيوعية، وتنفيذ النظام الاشتراكي، وانتقال وسائل الإنتاج إلى يد المجتمع،لم يعد هناك أثر لحوادث السرقة بجميع مظاهرها، وَفَقَدَ النهي الأخلاقي: «لا تسرق!» موصوعه. ولكن الكاتب لم يجز لنفسه أن يقول هذا، لأنه كان يعلم أن هذا القول غير صحيح ويخالف الحقيقة والواقع. لذلك فهو بعد أن أشار إلى المجتمع الشيوعي، وإلغاء الملكية الخاصة، وتنفيذ الملكية العامة، عاد، في معرض استخلاص النتائج، إلى تغيير مجرى الحديث، وبدلاً من أن يتحدّث عن العلاقات الاجتماعية عند الشيوعيّين، ويتناول أخلاقهم العملية بالدرس، يكتفي بذكر فكرة عقلية عامة، فيقول: ومن البديهي أنه إذا ما قضي على «السرقة» بجميع مظاهرها، فإن الوصية الأخلاقية «لا تسرق!» تصبح غير ذات موضوع.

ليست لهذه الجملة أيّة علاقة بنظرية كاتب المقال، وليست مؤيدة لمقولته في أنّه بإلغاء الملكية الخاصة، واشتراكية وسائل الإنتاج، سوف تزول السرقة تلقائياً، لأننا

نعلم أن هذا المبدأ النظري لم يطبّق عملياً في أيٍّ مجتمع شيوعي، وأن السرقة، بكل مظاهرها، ما زالت باقية، وإن الوصية الأخلاقية «لا تسرق!» ما زالت محتفظة بمفهومها وموضوعيتها.

الحقيقة هي أن أسلوب تفكير قادة الشيوعية في الاقتصاد أشبه بأفكار (فرويد) بالنسبة للغريزة الجنسية، فيه مبالغة، وهو بعيد عن الصحة. إن هذين متطرفان في نظريتهما وبعيدان عن رؤية الواقع.

## فرويد والغريزة الجنسية

(فرويد) أخطأ في نظريته عن الغريزة الجنسية، وأعطى للدافع الجنسي أهمية تفوق ما يستحق في الواقع، فقد أقام فكرته على أساس مبدأ اللذة، واعتبر سعادة الناس وشقاءهم منوطين بكيفية إشباع غريزة التلذّذ ونجاحهم أو عدم نجاحهم في إرضاء الشهوة الجنسية، وأهمل النظر إلى العوامل الأخرى.

كذلك هم قادة الشيوعية في خطأ نظرتهم إلى الاقتصاد، عندما أقاموا فكرتهم على المبدأ الاقتصادي، وأعطوا لدور الاقتصاد في المجتمع البشري أهمية تتجاوز الحد، فقالوا بأن العلم، والفلسفة، والدين، والأخلاق، والفن، والقانون، وجميع العناصر المادية والمعنوية في العقائد الاجتماعية عموماً إنّما تستند إلى العامل الاقتصادي، وأغفلوا العوامل الأخرى.

وبتأثير هذا التطرّف والمبالغة قام فريق من العلماء في العالم بتوجيه النقد إلى الفرويدية والشيوعية، كما قامت هاتان المدرستان إحداهما بوجه الأخرى، وأخذت كل واحدة تفنّد جوانب من نظرية الأخرى وترفضها.وفيما يلي شيء من ذلك:

## الشيوعيون ونظرية فرويد

كان لنظرية فرويد غير الواقعية عن الغريزة الجنسية تأثير في مبادىء الطب النفسي وأساليبه العلاجية. كان فرويد يعتقد أن جميع الذين يصابون بالاختلالات

النفسية لا بدّ أنهم في السابق قد نزلت بهم إخفاقات جنسية، لذلك يكون على الطبيب المعالج أن يتوصّل إلى معرفة الإخفاقات الماضية عن طريق التعمّق الباطني والتحليل النفسي للمرضى، ليُتاح له تقديم العلاج المناسب.

«يقول (إشتفن تسويك): يعتقد فرويد أن أنواع الشذوذ المختلفة واختلالات التوازن النفسي تنشأ من الغريزة الجنسية، وأن على الطبيب النفسي أن يطّلع على جميع حوادث ماضي المريض»(٨).

لقد رفض كثير من علماء النفس والأطباء النفسانيِّين الشيوعيِّين وغير الشيوعيِّين نظرية فرويد هذه، وقالوا: إن سبب الاختلالات النفسية ليس الغريزة الجنسية وحدها، بل هناك عوامل أخر يمكن أن تكون باعثاً على ظهور تلك الاختلالات من الشذوذ وفقدان التوازن النفسي.

«إن علماء النفس والأطباء النفسانيِّين الشيوعيِّين، باستخدامهم المادية الديالكتيكية، والنتائج العملية لتجارب (بافلوف) و (بشتريوف) في الفيزياء وعلم النفس، قد وجّهوا ضربات مدمِّرة لنظرية فرويد في علم النفس والتحليل النفسي، وشرحوا جوانبها المثالية وغير المنطقية.

وقد هاجم الأكاديمي (بلاتوف) رأي فرويد في كون الغريزة الجنسية هي أساس جميع الاختلالات النفسية، فقال:

إن ملاحظاتنا وتجاربنا خلال سنوات طويلة تثبت أن الاختلالات الإجبارية ناجمة عن دوافع مختلفة من المحيط الخارجي، وهي ليست ـ كما يقول فرويد في نظريته السفسطائية ـ ناجمة، حصراً، عن الدوافع الحياتية. إن الاختلالات الحياتية (الهستيرية) ليست ـ كما يقول فرويد ـ تنبع من الغريزة الجنسية فقط، بل هي نتاج تأثير جميع ظروف حياة الفرد في ذهنه، ومنها الدافع الجنسي»(٩).

---

(٨) كتاب فرويد: ٦٩

(٩) علم النفس لفرويد: ٢٢.

## فرويد والشيوعيون

وفي الوقت نفسه هاجم فرويد نظرية قادة الشيوعية، قائلاً: إن الاقتصاد، فضلاً عن كونه لا يشكل أساس الحضارة، فإنّه لا يخلق جميع عناصر العقائد الاجتماعية، وأنكر أن يكون له ذلك الدور المهم والبارز أيضاً، وقال:

«إن العوامل المادية، كالثروة والتوزيع ومصادرها، وغير ذلك من الأمور الاقتصادية، لا يمكن أن تكون العامل الأصلي للحضارة وتطوراتها، بل إنها لا يمكن حتى أن يكون لها دور مهم ليستحق الذكر في هذا الأمر.

ذلك لأن روح العصيان والطغيان والتمرّد، التي تثور في الناس بسبب القيود وعدم إشباع الغرائز والميول، تعرّض العوامل المادية لخطرها الدائم، أي إن الأفراد الذين يؤلّفون فئة اجتماعية، والتي يفرض عليها الغضب والقهر فرضاً، يهددون كل الأمور المادية، التي نريد أن نعتبرها من مميزات الحضارة، بالاضمحلال والانهدام، ولهذا قلنا إن العوامل الاقتصادية ليس لها دور في بناء الحضارة، ذلك لأن هذه العوامل التي يقال إنها بنّاءة هي نفسها تنقلب تحت أرتفه الظروف إلى عوامل مخربة ومبيدة»[١٠].

## تفنيد نظرية الشيوعيّين

ليس ثمّة شك في أن الغريزة الجنسية من الغرائز القوية جداً في الإنسان، وأنّ لكيفية إشباعها دور كبير في سعادة المرء وتعاسته. بيْدَ أن هذه الغريزة ليست القاعدة الأصلية للسعادة، ولا هي الدافع الأكبر لمختلف شؤون الحياة، ولقد أخطأ فرويد في تقويمها. كذلك هو حال العامل الاقتصادي، فهو أحد أهم العوامل التي تبني المجتمع، وللظروف الاقتصادية دور مهم في تكييف حياة الإنسان وأخلاقه. ولكن العناصر المادية والمعنوية في العقائد الاجتماعية ليست كلها وليدة العامل الاقتصادي،

---

(١٠) (ن.م): ٢٧.

ولا تعتمد سعادة الإنسان على هذا العامل وحده، وقد بالغ الشيوعيون في ذلك وأفرطوا.

إنَّه لمن سوء الحظ أن نجد كلا الفرويديِّين والشيوعيِّين، بنظرياتهم المغلوط فيها والمضلِّلة هذه، يستصغرون شأن الإنسان ويحتقرونه، ويدوسون بأقدامهم على القيم الإنسانية. فالفرويدية تهبط بالإنسان من علياء الإنسانية إلى حضيض الحيوانية، وتجعل جميع شؤونه المادية والمعنوية منحصرة بالشهوة الجنسية، وتحيطه بغريزة اللذّة من جميع جهاته، بينما ينظر الشيوعيون إلى الإنسان من منظور مادي، مهملين جانبه الروحي، ويسجنونه في الإطار الاقتصادي.

## أئمة الإسلام والأخلاق

نخلص من هذا البحث إلى أن عبّاد الفردية، والنفعيِّين، والفرويديِّين، والشيوعيِّين، فضلاً عن كونهم لم يشيروا بشيء إلى مكارم الأخلاق، ولم يتقدموا خطوة واحدة في طريق إحياء الإتجاهات الإنسانية الرفعية، فإنهم، على العكس من ذلك، بقيامهم بصورة تتجاوز الحد ومبالغ فيها في الدفاع المفرط عن الجوانب الحيوانية في الإنسان وشؤونه المادية، قد عمدوا، قولاً وفعلاً، إلى قمع الجوانب المعنوية والقيم الإنسانية فيه، وأسلموها إلى وادي النسيان. غير أن أنبياء الله عموماً، ونبيّ الإسلام خصوصاً، كانوا يعنون بتربية السجايا الإنسانية عناية فائقة، معتبرين ذلك من بين واجباتهم الرئيسية، فكانوا يسعون إلى أن يربُّوا الإنسانية في الناس، وأن يساعدوهم على التخلُّق بمكارم الأخلاق.

لقد كان أئمة الإسلام لا يفتأون يذكِّرون الناس بأن الأخلاق الكريمة مرضيَّة عند الله تعالى ومحبوبة لديه، وأن الصفات الذميمة مبغوضة عنده ومكروهة لديه. ولكي يجعلوا أتباعهم متَّصفين بالمعاني السامية والكمالات الروحية، كانوا يحثُّونهم على تعلُّم مكارم الأخلاق لأنُّها مدعاة لمرضاة الله تعالى، وينهونهم عن السيِّئات الأخلاقية لأنها مجلبة لسخط الله تعالى.

عن رسول الله(ص)، قال: «*إنّ الله يحبُّ مكارِمَ الأخلاقِ ويُبغِضُ سَفسَافَها*»[١١].

وعن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*عليكُم بمكارِمِ الأخلاقِ فإنّ الله عزّ وجلّ يُحبُّها، وإيّاكم ومَذامَّ الأخلاقِ فإنّ الله عزّ وجلّ يُبغِضُها*»[١٢].

ولكي يتحرّر المسلمون من أسر الأنانية، وتتفتّح في نفوسهم صفة حبِّ الناس والتعاطف مع آلامهم، ويتخلّقوا بالأخلاق الحميدة، كان قائد الإسلام يستفيد من كل فرصة لتربية الناس، ولتعريفهم على مكارم الأخلاق، ولحثّهم على التحلّي بالسجايا الإنسانية.

كان الرسول الكريم(ص) ـ فضلاً عن تعليمه الناس مكارم الأخلاق شفاهاً، من فوق المنبر وفي المجالس، وحثّه إيّاهم على القيام بواجباتهم الإنسانية ـ يعلّمهم ذلك أيضاً بسلوكه الأخلاقي، فيرسم لهم طريق الإنسانية، ويقودهم عمليّاً إلى السير في طريق الكرامة وحبِّ الناس.

عن جعفر بن محمّد الصادق(ع) قال: جاء رجل إلى رسول الله(ص) وقد بلي ثوبه فحمل إليه اثني عشر درهماً فقال: «يا علي خذ هذه الدراهم فاشتر لي ثوباً ألبسه»، قال علي(ع) فجئت إلى السوق فاشتريت له قميصاً باثني عشر درهماً وجئت به إلى رسول الله فنظر إليه فقال: «يا علي غير هذا أحبُّ إليّ أترى صاحبه يقيلنا»، فقلت: لا أدري، فقال: «أنظر». فجئت إلى صاحبه، فقلت: إن رسول الله(ص) قد كره هذا يريد ثوباً دونه فاقلنا فيه فردّ عليّ الدراهم وجئت بها إلى رسول الله(ص) فمشى معي إلى السوق ليبتاع قميصاً فنظر إلى جارية قاعدة على الطريق تبكي، فقال لها رسول الله(ص): «ما شأنك»، قالت: يا رسول الله إن أهل بيتي أعطوني أربعة دراهم لأشتري لهم بها حاجة فضاعت فلا أجسر أن أرجع إليهم فأعطاها رسول

---

(١١) سفينة البحار، القمي، مادة «خلق»: ٤١١.

(١٢) وسائل الشيعة، كتاب جهاد النفس: ٢٧.

الله(ص) أربعة دراهم وقال: «إرجعي إلى أهلك»، ومضى رسول الله(ص) إلى السوق فاشترى قميصاً بأربعة دراهم ولبسه وحمد الله وخرج فرأى رجلاً عرياناً يقول:من كساني كساه الله من ثياب الجنة،فخلع رسول الله(ص) قميصه الذي اشتراه وكساه السائل، ثم رجع إلى السوق فاشترى بالأربعة التي بقيت قميصاً آخر فلبسه وحمد الله ورجع إلى منزله وإذا الجارية قاعدة على الطريق.

فقال لها رسول الله(ص): «مالكِ لا تأتين أهلك»، قالت: يارسول الله(ص) إني قد أبطأت عليهم وأخاف أن يضربوني، فقال لها رسول الله(ص): «مرّي بين يدي ودليني على أهلك»، فجاء رسول الله(ص) حتى وقف باب دارهم، ثم قال: «السّلام عليكم يا أهل الدار»، فلم يجيبوه، فأعاد السّلام فلم يجيبوه، فأعاد السّلام، فقالوا: عليك السّلام يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال لهم: «ما لكم تركتم إجابتي في أول السّلام والثاني»، قالوا: يا رسول الله سمعنا سلامك فأحببنا أن نستكثر منه، فقال رسول الله(ص): «إن هذه الجارية أبطأت عليكم فلا تؤاخذوها»، فقالوا: يا رسول الله هي حرّة لممشاك(١٣).

ولعل ما قصدوه باستعمال لفظة «ممشاك» هو سلوك الرسول الكريم الأخلاقي، فأرادوا أن يقولوا لقائدهم العظيم: إن مسيرتك في الحياة الاجتماعية هي حبُّ الناس، ومكارم الأخلاق، التي دفعت بك إلى باب بيتنا للتشفُّع لهذه الجارية، لذلك فإنّنا، تأسّياً بك، وإكراماً لسجاياك الإنسانية ونبل أخلاقك، نُعتقها.

## قيمة مكارم الأخلاق

إن ما يضمن التزام مكارم الأخلاق في الأديان الإلهيّة هو الاعتقاد بيوم الجزاء، إن الرسل الذين بعثهم الله تعالى على امتداد الأزمنة والعصور، الواحد بعد الآخر، كانوا يبدأون دعوتهم من المبدأ والمعاد، ويقيمون أُسس الإيمان في نفوس أتباعهم، ثم

---

(١٣) الأمالي، الصدوق: ١٩٨.

كانوا يدعونهم إلى مكارم الأخلاق، وينبّهونهم على أن الأخلاق الكريمة محبوبة عند الله، وتُنيل صاحبها رحمة الله تعالى يوم القيامة، وعلى أن الأخلاق الذميمة مبغوضة عند الله، وتحرم صاحبها من نيل فيوضات رحمة الله تعالى يوم القيامة.

عن النبيِّ(ص)، قال: «*لا يدخُلُ الجَنَّةَ أحدٌ إلّا بحُسْنِ الخُلق*»[١٤].

لقد تكلّم أئمة الإسلام كثيراً عن حبِّ الناس ومكارم الأخلاق، وكانوا يصفون التمسّك بمكارم الأخلاق في صف أداء الفرائض وترك المحرّمات لكي يبيِّنوا للمسلمين أهميتها وقيمتها العظيمة في التعاليم الإسلامية، وقد يعتبرون فقدانها انقطاعاً للعلاقات الإسلامية، وفاقدها غير مسلم.

قيل لأمير المؤمنين علي(ع): ما الاستعداد للموت؟ قال: «*أداءُ الفرائضِ، واجتنابُ المحارمِ، والاشتمالُ على المكارمِ، ثم لا يُبالي أوقَعَ على الموتِ، أم وقَعَ الموتُ عليهِ*»[١٥].

عن النبيِّ(ص)، قال: «*مَنْ أصبحَ لا يهتّم بأمورِ المسلمينَ فليسَ مِنْهم، ومَنْ سَمِعَ رجلًا يُنادي: يا لَلْمُسلمينَ! فلَمْ يُجِبْهُ فليسَ بمُسلمٍ*»[١٦].

وعنه(ص): «*ليسَ بمؤمنٍ مَنْ باتَ شبْعاناً وجارهُ طاوياً*»[١٧].

إن حبَّ الناس وأداء الواجبات الإنسانية من تكاليف المسلمين العامة، إذ أن على جميع المكلّفين أن يتحابُّوا، وأن يتعاونوا، وأن يدافعوا عن حقوق الناس، وأن يلتزموا بالتعاليم الأخلاقية التزاماً عملياً في التعامل فيما بينهم.

وعن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*إنَّ مِنْ حقِّ المؤمنِ على المُؤمنِ المودَّةَ لهُ في صَدرهِ، والمواساةَ لهُ في مالِهِ، والخَلفَ لهُ في أهلهِ، والنُّصرةَ لهُ على من ظَلَمَهُ*»[١٨].

---

(١٤) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٢٨٤.

(١٥) سفينة البحار، القمي، مادة «موت»: ٥٥٤.

(١٦) الكافي، الكليني ٢: ١٦٤.

(١٧) مكارم الأخلاق، الطبرسي: ٧١.

(١٨) الكافي، الكليني ٢: ١٧١.

## عالم اليوم والانحطاط الأخلاقي

في عالمنا اليوم نجد من جهة أن عبادة الله قد أصابها الوهن، وضعف تأثير الدين، ولم يبق ضامن إجراء مكارم الأخلاق على قوته، ونجد من جهة أخرى أن غياب السجايا الإنسانية وكرائم الأخلاق مشهود تماماً، وأن المجتمعات البشرية المتقدمة تعاني من هذا النقص المعنوي والانحطاط الروحي، وتتمنّى حصول ما يزيل هذا النقص بأسرع ما يمكن، ليعود الإنسان إلى التخلّق بالأخلاق الكريمة.

في هذا القرن نهض أشخاص لتربية الصفات الإنسانية ولملء الفراغ الأخلاقي، محاولين استخدام وسائل الإعلام العامة، وخصائص الناس الفطرية الطبيعية للوصول إلى هذا الهدف، من دون الاستناد إلى طاقة الدين، وعبادة الله، وحبّ الإنسانية، ومن دون أن يوقظوا ذلك في نفوسهم ويعلّموهم الأخلاق الكريمة، ويحملوا الناس على الالتزام بالأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة عملياً، كدليل على إنسانية الإنسان.

إن فكرة إيجاد نهضة أخلاقية لا تستند إلى الدين قد ظهرت في أمريكا قبل نحو مئة سنة، وعمل الإعلام على نشرها شيئاً فشيئاً، حتى وصلت إلى أوربا، ثم إلى آسيا وأفريقيا، حيث وجدت لها بعض المؤيدين. واليوم تجد في أنحاء مختلفة من العالم جمعيات هدفها تنمية الخلق الإنساني ضمن مبادىء معيّنة، ولها نشاط واسع.

## الأخلاق في الغرب

«بدأت النهضة الأخلاقية في أمريكا في أواخر القرن الماضي، ثم انتقلت تياراتها إلى بريطانيا وسائر أقطار العالم. إن المبدأ الأساس الذي تقوم عليه، كما جاء في البيان الذي أصدرته الجمعية الأمريكية لأنصار الأخلاق، هو كما يلي:

يجب حمل الناس على أن يدركوا بعمق أهمية الأخلاق ومكانتها الخطيرة في مختلف شؤون البشر والعلاقات فيما بينهم، كأفراد وكمجتمعات، وكأُمّة وكدولة،

ولكن من دون أن يكون للأديان والعقائد الدينية والأفكار الماوراء الطبيعية أدنى تأثير أو تدخل في ذلك.

وعلى أثر هذه النهضة أُسِّست في بريطانيا جمعية باسم «جمعية أنصار الأخلاق» انضمت إلى الجمعية الأمريكية المذكورة. أهدافها تعليم تقديم الخدمات للناس، وبعث روح التعاون بين الناس في العالم، وقد جاءت هذه الأهداف في مبادئها التالية:

١ـ الهدف الأكبر في الأديان هو إيجاد حب الخير في قلوب الناس.

٢ـ إن الإنسان، في حياته واتجاهاته الأخلاقية، لا حاجة به إلى الإيمان بحقيقة العالم وخالقه، وبالحياة بعد الموت.

٣ـ يجب تربية الفرد بحيث يعرف الحق ويتمسك به، ويسير على نهجه في جميع شؤون حياته. وهذه كلها يجب أن تتحقق بطرق طبيعية وبالاستناد إلى الفطرة والغرائز البشرية، من دون أن تكون ثمَّة حاجة إلى الدين»[١٩].

إن لنظرية الأخلاق الطبيعية ـ من دون الركون إلى الدين ـ تاريخاً قديماً، فقد حملها عدد من فلاسفة القرون السابقة، وكتبوا عنها. إلّا أنَّ هؤلاء الذين قاموا في القرن الماضي انتصاراً لها، وأنشأوا الجمعيات لإيجاد الأخلاق بعيداً عن الدين، يسعون لنشر هذه النظرية في أرجاء العالم وتحقيقها عملياً، بالاستعانة بالطرق الطبيعية، ولصياغة الإنسان الأخلاقي بالتفكير والعمل، من دون الاستناد إلى الدين. ولكن مشكلتهم الكبرى هي التنفيذ. كيف يمكن الوصول إلى الهدف عن هذا الطريق؟ بأيّة قوة يستطيعون حمل الناس على التمسُّك بأهداب الفضيلة والسجايا الإنسانية والقيام بواجباتهم الأخلاقية في كل زمان ومكان؟

من المعلوم أن الغرائز عمي وعديمة العقل، ولكنها تتحكم في الإنسان بكل اقتدار، وهي تريد الإشباع دائماً. وإذا ما حصل تضاد بين الواجب الأخلاقي والحاجة

(١٩) نظرة الإسلام الأخلاقية: ٣٩

الغريزية، فإن الأخلاق تنهزم عادة، وتنتصر الغريزة، إلّا إذا كانت هناك قوة قوية تدافع عن الأخلاق، وتكبح جماح الغريزة العنيدة، وتهدي الإنسان إلى طريق الطهارة والفضيلة.

وبالنسبة للأخلاق النفعية فإن غريزة حبِّ الذات والأهواء النفسية قادرة على ضمان التمسّك بالأخلاق، ذلك لأن النفعي يتخلّق بالأخلاق بدافع من حبِّه لذاته ولاجتلاب المنفعة لنفسه وتحقيق رغباته المادية، وكل هدفه من التزام الموازين الأخلاقية هو الاستزادة من النفع والفائدة. يسعى النفعي، عن طريق تخلُّقه بالأخلاق، إلى زيادة سلطته وثروته وتحقيق أهدافه، وإشباع شهواته وأهوائه. إن النظرة التي يحملها النفعيون عن الأخلاق تجعل من السهل عليهم أن يتوسَّلوا بغريزة حبّ الذّات لإيقاف الغرائز المعارضة عند حدِّها، وأن يتغاضوا عن تلك الميول التي تتعارض والنفعية وتخالف الأخلاق. أمّا الأخلاق الإنسانية التي هدفها حبُّ الناس وخدمتهم، فتتناقض تماماً مع الأخلاق النفعية الأنانية. وفي حالات التضادّ بين الأخلاق والغريزة، والتعارض بين حبِّ الذات وحبِّ الناس، لا بدّ من وجود قوة قادرة على حمل المرء على التغاضي عن المصلحة الخاصة، وعلى كبت الأنانية والأهواء النفسية، وكبح الغريزة المعارضة، والتوجُّه إلى حبِّ الناس، وتمهيد الطريق لتنفيذ الواجب الأخلاقي والصفة الإنسانية.

تعتقد جمعيات أنصار الأخلاق أنه يجب تطبيع الناس بشكل طبيعي على حبِّ الناس، والتعاون معهم، وخدمتهم، وغير ذلك من السجايا الإنسانية، وذلك بالاستعانة بالفطرة وبالغرائز البشرية واستخدامها، وحمل الناس على التمسُّك بمكارم الأخلاق، دونما حاجة إلى العقائد والتعاليم الدينية. وقد جاء هذا في المبدأ الثالث من بيانهم.

يبدو أن ما يريده هؤلاء بالفطرة والغرائز هو الضمير الأخلاقي الفطري والغرائز الاجتماعية البشرية. ولكي تتّضح لنا قيمة هذه النظرية إلى حدٍّ ما، ونتبيَّن إلى أيِّ مدىً يمكن الاعتماد على القوى الفطرية والغرائز البشرية في تحقيق مكارم الأخلاق، ومقدار ما لها من قدرة على قمع الأنانية والغرائز الحيوانية لمصلحة السجايا

الإنسانية، فلا بدّ من البحث في ذلك.

## الضمير الأخلاقي والغرائز الاجتماعية

الضمير الأخلاقي الفطري هو الأساس التربوي الأول الذي تعتمده جمعيات أنصار الأخلاق، فهم يريدون أن يجعلوا الناس أخلاقيِّين بالاستناد إلى قوة الضمير، دون الاستناد إلى خالق الضمير، وأن ينشروا الصفات الإنسانية في أرجاء العالم، داعين الناس كافة، الماديين والإلهيِّين، والشيوعيِّين، والفرويديِّين، والمتديِّنين واللا دينيِّين، إلى حبِّ الناس جميعاً، وإلى التحلِّي بالأخلاق الكريمة.

وعند الأخذ بنظر الاعتبار الاختلاف الموجود بين أتباع الأديان الإلهيّة، وأتباع المدارس المادية، بالنسبة إلى خلق العالم وظاهرة الضمير الأخلاقي، نتساءل: هل تستطيع جمعيات أنصار الأخلاق أن تخاطب جميع الناس وبمستوىً واحد فتطلب منهم إطاعة نداء الضمير؟ هل يمكن اعتبار الضمير الأخلاقي هادياً واقعي النظرة، وقاضياً منزَّهاً عن الخطأ، بالنسبة لجميع المدارس العقائدية وأتباعها؟ هذا ما سوف نتناوله في ما يلي من كلام:

يحمل فرويد نظرية مغلوطاً فيها وغير واقعية عن الضمير الأخلاقي، وقد ردها أكثر العلماء والأطباء النفسانيِّين وانتقدوها نقداً قاسياً، إنه لا يؤمن بالضمير الأخلاقي الفطري وإدراك الإنسان للحسن والسيء، إدراكاً بدائياً، ويقول: إن الضمير الأخلاقي اكتسابي، ومنشؤه التربية البيتيّة والمجتمع. وهو يشرح ذلك قائلاً: يواجه الطفل ـ منذ البداية ـ الكثير من الأوامر والنواهي من والديه ومن الذين يحيطون به، عن طريق التشجيع، أو التوبيخ، والترغيب أو الترهيب، والأمر أو النهي، فتنطبع هذه الإيحاءات شيئاً فشيئاً في ذهنه، وتتراكم على امتداد السنين في باطنه فتكوِّن ضميره.

ومما يلفت النظر أن فرويد يعتبر كثيراً من النواهي العائلية والاجتماعية، التي تصنع الضمير الأخلاقي، غير صحيحة، وكثيراً ما ردَّد في كلامه القول بأن المدنية قد عاملت الغرائز بقسوة، فمنعت الناس من إشباع بعض ميولهم الغريزية وحرمتهم

منها، باسم الأخلاق، وإن هذا الحرمان الباطني قد أثار في بعض الناس نتائج تضاد الأخلاق.

«يعتقد فرويد أن المدنية لا تكبح الغرائز فحسب، بل يعتقد أنها تكون مفرطة في ذلك، فهو لذلك يدين المدنية إدانة شديدة، قائلاً: إن هذه الغرائز تُكبت بأسلوب على درجة من السذاجة والبدائية بحيث إنها تظهر بعد أن تحطِّم قيودها، ويبدأ الصراع»[٢٠].

فالضمير الفطري، بحسب نظرية فرويد، ليست له جذور فطرية ولا أصالة طبيعية، كما أن حكم الضمير لا يمكن أن يكون صحيحاً وموثوقاً به تماماً، لأن الأسرة والمجتمع ـ وهما صانعا الضمير في الأطفال في المجتمع ـ يخلطان في أوامرهما ونواهيهما بين السليم والسقيم والصواب والخطأ، ويلقِّنانها لهم، وتكون النتيجة أن يصبح محتوى الضمير الأخلاقي عند الناس مزيجاً من الإيحاءات الصحيحة وغير الصحيحة.

وعلى الرغم من أن معظم علماء النفس لا يعتبرون نظرية فرويد صحيحة، فإنَّ الفرويديِّين يؤيدونها، شاءوا أم أبوا.

فهل يستطيع أنصار التسلُّح بالأخلاق أن يستفيدوا من ضمير كهذا، فيتوسّلوا بقوته لتربية الأخلاق الإنسانية في نفوس أتباع فرويد؟

هل يستطيع الضمير غير الفطري وغير الموثوق به أن يضمن تحقيق السجايا الإنسانية، فيحمل الناس على التزام مكارم الأخلاق بكل عزم وصراحة، وأن يكبح غريزة حبِّ الذات والأهواء الحيوانية لصالح حبِّ الناس والميول الإنسانية الرفيعة؟

## رفض نظرية فرويد

هنـاك الكثير من العلماء الماديِّين يرفضون نظرية فرويد ويؤمنون بالضمير الأخـلاقي الفـطري، ويقولون: إن الإنسان بالإضافة إلى ضميره المكتسب الذي

---

(٢٠) مذكرات فرويد: ١٢٨.

يتكوَّن نتيجة للتربية العائلية والاجتماعية، يملك أيضاً ضميراً آخر هو الضمير الأخلاقي الفطري، والإنسان مجبول عليه، وهو موجود في كل الناس ومتأصِّلٌ فيهم، بصرف النظر عن قوميتهم وعنصرهم، وإن الضمير الفطري عام ومتشابه في الجميع، يدرك الفضائل والرذائل، ويحثّ الناس على الطهارة، ويمنعهم من الفساد، ويعاقب الذين يخالفون أوامره باللوّم الباطني والعذاب النفسي.

إن الماديِّين الذين لا يؤمنون بوجود خالق حكيم عليم، ويعتقدون بأن العالم كلّه ظاهرة مادية كلياً، لا يتصورون للضمير الأخلاقي الفطري بنية حكيمة وقيمة معنوية. بل إنهم ينظرون إليه نظرتهم إلى سائر الغرائز والميول الطبيعية، وأنه ظاهرة مادية ظهرت بالمصادفة عشوائياً وبشكل أعمى وبلا تعقّل. وهو يزدهر وينمو كلما استمر صاحبه في إطاعة أوامره وتنفيذها، ويزداد قوة وإمرة، ويشتد في توبيخاته إذا ما عصيت أوامره، وإذا ما كُبح جماحه بارتكاب أعمال بعيدة عن الوجدان، انكمش وضعفت قدرته على الأمر والنهي واللّوم، حتى ينزوي ويصبح طيّ النسيان.

فهل هذا الضمير المتّصف بالجهل، والذي يظهر بالمصادفة، وتصنعه الطبيعة، يمكن أن يتعهد بتحقيق مكارم الأخلاق؟ وفي الحالات التي تتعارض فيها السجايا الانسانية مع الميول الغريزية، هل يكون الضمير الأخلاقي قادراً على كبت الغريزة، ومنع ارتكاب العمل اللاأخلاقي، وحمل الإنسان على التمسّك بالفضيلة والطهارة؟ فإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الضمير الأخلاقي والغرائز الحيوانية، كلها ظواهر طبيعية وتصادفية، فهل يستطيع الإنسان المادي - إذا ما واجه تضاداً وتنافراً بين الضمير والغرائز - أن لا يفضّل إشباع غرائزه الملذة على نداء الضمير؟ هل بإمكان جمعيات أنصار الأخلاق أن يتوصلوا - بمعونة هذا الضمير التصادفي - إلى تحقيق أهدافها التربوية الأخلاقية. فيحملوا المجتمعات المادية على الاتّصاف بالسجايا الإنسانية، ويزرعوا كرائم الأخلاق في نفوسهم، ويغروهم بتقييد غرائزهم التي تتعارض والأخلاق؟

### الإلهيّون والضمير

أما الإلهيّون وأتباع مدرسة الأنبياء فإنّهم يثبتون الضمير الأخلاقي، ويرونه، من مخلوقات الله تعالى، مثل سائر كائنات العالم، ويعتقدون أن الله قد خلق بإرادته الحكيمة هذا المرشد الواقعي النظرة، ووضعه في قرارة كل إنسان لكي يكشف له بأضوائه الأخلاق الحسنة والسيئة، ويبيّن له مبادىء الفضائل والرذائل، ويميّز له، بذلك، طريق النجاة والسعادة عن طريق الضّلال والتعاسة.إن الضمير الأخلاقي حجّة الله الباطنية، ومرشد البشر التكويني إلى معرفة طريق الصلاح والفساد، وهو، كما يقول القرآن الكريم، قوة مدركة وملهمة أفاضها الله على نفوس البشر:

**﴿ونفسٍ ومَا سوَّاهَا * فألْهَمَهَا فُجُورَهَا وتقْوَاهَا﴾**[٢١].

لقد كان أئمة الإسلام يستعينون بهذه القوة الباطنية في إصلاح أخلاق المجتمع، فكانوا يوصون أتباعهم بأن يجعلوا من إلهامهم النفسي ميزاناً لعلاقاتهم بالناس، وأن يعاملوا الآخرين على هدى الفطرة ونداء الضمير.

في خبر الشيخ الشامي، قال أميرالمؤمنين علي(ع): *«يا شيخ إرْضَ للنّاسِ ما ترْضَى لنفسِكَ، وآتِ إلى النّاسِ ما تُحبُّ أن يُؤْتى إليكَ»*[٢٢].

إن إطاعة الضمير تؤدي إلى السمو المعنوي، وهدوء البال، واطمئنان النفس، وعصيان أوامره ينزل بالإنسان إلى الانحطاط الأخلاقي والضعة، ويكون سبباً للقلق النفسي والتقريع الباطني. في الحالات العادية يدفع الضمير الأخلاقي الناس إلى طريق الفضيلة، ويحملهم على تنفيذ واجباتهم الإنسانية. ولكن في الحالات غير العادية، وأثناء طغيان الشهوات، لا يكون الضمير قادراً بمفرده على قمع الغرائز الثائرة، ومنع المرء من الانحراف الأخلاقي والعمل اللا أخلاقي. لذلك يشير الله تعالى في سورة القيامة إلى يوم الجزاء أوّلاً، كضامن لتنفيذ التعاليم الإلهيّة، ويقسم به،

---

(٢١) الشمس: ٧ و ٨.

ثم يقسم بعد ذلك بالنفس اللوّامة ويبيّن توبيخ الضمير والعذاب الباطني:
﴿لا أُقْسِمُ بيوْمِ القِيامَةِ * ولا أُقْسِمُ بالنَّفسِ اللَّوَّامةِ﴾[٢٣].

## خيبة الضمير الأخلاقي

نخلص من ذلك إلى أن جمعيات أنصار الأخلاق الطبيعية ترى أن العامل الأول في نشر السجايا الإنسانية: هو الضمير الأخلاقي، إن هؤلاء الأنصار يعتقدون أنه يمكن بقوة الضمير جعل الإنسان الإلهيّ والإنسان المادي متّصفين بالصفات الإنسانية، وأنه من دون التوسّل بقوة الدين يمكن حملهما على حبّ الناس وأداء واجباتهما الأخلاقية. ولكننا استنتجنا مما شرحناه:

أوّلاً: إن نظرية الماديِّين عموماً، والفرويديِّين خصوصاً، بشأن الضمير الأخلاقي تختلف عن رأي الإلهيِّين وأتباع مدرسة الأنبياء.

ثانياً: إن قوة الضمير الأخلاقي ليست قادرة وحدها ـ بخلاف ما يقوله أنصار الأخلاق الطبيعية ـ أن تقمع الغرائز المتمردة لمصلحة حب البشر والصفات الإنسانية، بحيث تحمل جميع الناس في أرجاء العالم على التحلّي بالأخلاق الكريمة وحبّ الحقّ والفضيلة.

والعامل الثاني في نشر السجايا الإنسانية: كما يزعم أنصار الأخلاق الطبيعية، هو الغرائز الاجتماعية. فهم يقولون إن هذه الغرائز أقوى في الإنسان من الغرائز الفردية، وإن بإمكاننا أن نعدّل الأنانية والأهواء النفسية بقوة تلك الغرائز الاجتماعية، فنربّي الناس على الصفات الإنسانية، ونحملهم على التخلّق بالأخلاق الكريمة من دون الاستعانة بالإيمان بالله والتعاليم الدينية.

«يقول (فرانسيس بيكن): إننا نميل إلى الأشياء ونشتهيها بصورتين، إذا نظرنا إلى الشيء ككل يكون ميلنا إليه واشتهاؤنا له غريزة فردية، وإذا نظرنا

---

(٢٣) القيامة: ١ و ٢.

إليه باعتباره جزءاً من كل أكبر، يكون ميلنا إليه واشتهاؤنا له غريزة اجتماعية. إن قدرة هذا الأخير وقيمته أكبر من الأول، إذ إن الميل إلى ذلك يعني الميل إلى الحفاظ على الشكل الأوسع.

يقول (ويل دورانت) في توضيح مقولة بيكن: إن معنى هذا الكلام هو أن أسس الأخلاقيات واللا أخلاقيات موجودة في الطبيعة الإنسانية، وفيها أيضاً الدوافع الاجتماعية، والأنانية، وغريزتا حفظ النوع وحفظ النفس، وأن بيكن يعتقد بأن الغرائز الاجتماعية أقوى من غرائز حفظ النفس»[٢٤].

فهل نظرية أنصار الأخلاق الطبيعية عن الغرائز الاجتماعية صحيحة؟

هل يمكن بالغرائز الاجتماعية قمع غريزة حبِّ الذّات والأهواء النفسية لصالح حب الناس ومكارم الأخلاق؟

هل يمكن الاستعانة بالغرائز الاجتماعية لتربية السجايا الإنسانية في قلوب الناس، وحملهم على التزام واجباتهم الأخلاقية، ومن دون الاستعانة بقوة الإيمان والعقيدة الدينية؟

وأخيراً، هل الغرائز الاجتماعية أقوى حقاً في الإنسان من حب الذّات والغرائز الفردية؟

(ويل دورانت) يجب عن هذه الأسئلة:

«كان بيكن، وداروين، وكروبوتيكين، يعتقدون، متفائلين، بأن الغرائز الاجتماعية أقوى من الغرائز الفردية. قد يكون هذا صحيحاً في أسرة تُعتبر التضحية فيها أمراً طبيعياً، ولا تحتاج إلى دافع سوى الحب والتمجيد. ولكن خارج هذه الدائرة الضيّقة، تبقى دوافع حبِّ الذّات فاعلة، والأسرع ركضاً هو الفائز في السباق، والتضحية تكون من نصيب ذلك البطل النادر الوجود. ولذلك، ولأجل تقوية الدوافع الاجتماعية، يتوسلون بوسائل أخرى، مثل

(٢٤) مباهج الفلسفة: ١٠٤.

الدين، وتوسيع دور النشر، وتوزيع التماثيل في الشوارع»[٢٥].

منذ عشرات السنين وأنصار الأخلاق الطبيعية ينشئون في أرجاء العالم الجمعيات، ويعرضون نظريتهم على الرأي العام عن طريق وسائل الإعلام العامة، ولكن ما مدى النتائج الإيجابية لنشاطاتهم، ومقدار نجاحهم خلال هذه السنوات في إصلاح أخلاق الناس؟ ذلك ما هم أعرف به. ولكن الذي لا يمكن إنكاره هو أن جمعيات أنصار الأخلاق الطبيعية، وطوال تلك السنين، لم يستطيعوا أن يمنعوا انتشار الفساد والسيِّئات الأخلاقية، حتى في تلك المدن التي ركَّزوا فعالياتهم فيها، حيث أخفقوا في حمل الناس على الكفِّ عن أعمالهم اللا إنسانية. فهذه الإحصاءات تقول: إن عدد الجرائم والجنايات قد ازداد خلال تلك السنوات، وانتشرت الأعمال اللا أخلاقية انتشاراً سريعاً.

«نيويورك ـ اسوشيتد بريس: في الأشهر التسعة الأولى من سنة ١٩٧٥، أُرتكبت في كل (٣٠) ثانية جريمة قتل واحدة، واعتداء جنسي واحد، وعملية سرقة ومهاجمة، في مدينة نيويورك، وإن ٦٢٪ من الضحايا كانوا يتعرّضون للاعتداء في الشوارع.

هذه الإحصاءات أعلنها بوليس نيويورك يوم أمس، وأضاف أن حوادث جرائم القتل قد ازدادت، حتى نهاية سبتمبر/أيلول، بنسبة ٣/٥٪ فبلغت (١٦٣) حادثة، وازدادت حوادث السرقة والسلب بأنواعها بنسبة ١٣/٨٪ وهو أعلى رقم منذ ١٩٧٤ حتى الآن»[٢٦].

إن الإنسان اليوم مُبتلى بالاضطراب والقلق بسبب افتقاره إلى الأخلاق الحميدة. فهو، من جهة، يحسّ بضرورة الإتّصاف بحب الناس وبالعواطف الإنسانية الرفيعة إحساساً عميقاً، ويدرك أن الأخلاق النفعية، التي غدت اليوم هي الأسلوب

---

(٢٥) (ن.م): ١٠٧.

(٢٦) صحيفة كيهان، العدد: ٩٧٠١.

المألوف في عمل كثير من الناس، لا تشبع حاجات الإنسان، ولا تستطيع أن توصل الإنسان إلى منزل السعادة، وهو من جهة أخرى، قد حصر نفسه في حدود عالم الطبيعة، على أثر نجاحاته في العالم المذكور، وتخلّى عن التعاليم الإلهيّة والمناهج الدينية، ونسي الجوانب المعنوية والروحية في الحياة، فهو يريد أن يرى كل شيء بحواسّه، وأن يجيب عن جميع الأسئلة بالمنطق الطبيعي وأن يفسّر الأسئلة كافة بلسان المادة. ولهذا نشأت جمعيات أنصار الأخلاق الطبيعية، بحثاً عن طريق لتربية الإنسانية في الإنسان استناداً إلى قوة الضمير الأخلاقي والغرائز الاجتماعية، دون أن تستعين بقوة الإيمان بالله وبالدين، فتحمل الناس على ممارسة مكارم الأخلاق، وعلى الإتّصاف بالصفات الإنسانية والسموّ المعنوي التي يتّصف بها عادة رجال الله. لقد مضى على هذا الهدف قرن من الزمن دون أن يتحقق لحد الآن، إذ لم تحلَّ الأخلاق الطبيعية محل الأخلاق الدينية، ولسوف تكشف الأيام إن كان هذا الأمل سيتحقق في المستقبل أم لا.

«يقول (ويل دورانت): إننا نعيش بين عالمين اثنين: عالم قد مضى، وعالم آخذ بالظهور، ولهذا السبب سوف يكون حظنا حتى الجيل التالي هو القلق والاضطراب. إننا نبحث عن مبادىء الأخلاق الطبيعية التي تكون قائمة على العقل وقادرة على إقناع المثقفين المتنوِّرين. إن الذين لهم أولاد يواجهون اليوم آلاف المشكلات الأخلاقية والنفسية، وهم لا يكتفون بأجوبتنا القديمة عنها، فلا مندوحة لنا، إذن، إلّا أن ننخرط في سلك الفلاسفة، وإن لم نرغب في ذلك لكي نعيد النظر في عاداتنا ومعتقداتنا، ونضع لحياتنا وأفكارنا مبادىء تنسجم ومقتضيات العصر. فأين نجد هذه المبادىء الأخلاقية التي تنسجم مع التغييرات المعاصرة من جهة، وتحملنا، من جهة أخرى وكالسابق، على الحياء، والمحبة، والتضحية، والشرف، والفخر، والنبل، والفتوة؟ كيف يجب أن نعيد تعريف الخير؟ وكيف يجب وضع الأسس لبناءٍ أخلاقي لمجتمع كبير؟»[٢٧].

---

(٢٧) مباهج الفلسفة: ٩٩.

يتبين من قول ويل دورانت: «سوف يكون حظنا حتى الجيل التالي هو القلق والاضطراب» أنه بمضي جيل واحد سوف تملأ الأخلاق الطبيعية والعقلية تدريجياً الفراغ الناجم عن الأخلاق الدينية، بحيث إن المثقفين والمتنوِّرين سوف يلتزمون المبادىء الأخلاقية والفضائل والسجايا الإنسانية، من دون حاجة إلى الدوافع والعقائد الدينية، ويصبحون عملياً، مثل المتديِّنين المؤمنين بالله، متمسِّكين بفضائل مثل: الإيثار، والعطف، والشرف، وحب الناس، والفتوة، والنبل. ولكن يبدو أنَّ السيد ويل دورانت قد أخطأ في مقولته وبعد عن رؤية الواقع، إذ من المستبعد حصول مثل هذا التبدُّل العميق في العالم، فتقوم الأخلاق الطبيعية مقام الأخلاق الدينية، خلال جيل واحد من الزمن.

## نظريتا الأخلاق الطبيعية

هنالك نظريتان تدوران حول الأخلاق الطبيعية، وأصحابهما ينتظرون مجيء ذلك اليوم الذي يؤدّي فيه الإنسان واجباته الإنسانية ويطبّق مكارم الأخلاق، من دون أن يدفعه إلى ذلك أيّ وازع من دين أو مذهب.

النظرية الأولى تقوم على التربية والتعليم، ومن أتباعها جمعيات أنصار الأخلاق. وقد سبق أن شرحنا كيف أنَّ هؤلاء يريدون أن يربُّوا الناس على الفضائل والسجايا الإنسانية بمعونة الضمير الأخلاقي، والغرائز الاجتماعية. وعن طريق المحاضرات، والتمثيليات، والإذاعة والتلفزيون، والصحف والمجلات، وغيرها من وسائل الإعلام العامة، يعلِّمون الناس الإيثار، وحبَّ الآخرين، ويدفعونهم إلى القيام بواجباتهم الإنسانية، من دون الاستعانة بالدافع الديني.

والنظرية الثانية تقوم على التكامل الطبيعي والتحوّل في وظائف الأعضاء. يقول أصحاب هذه النظرية: إن الإنسان ما يزال في منتصف الطريق إلى المدنية، وهو يبذل جهوده للتقدّم للوصول إلى مدارج أعلى، إلى أن يبلغ في النهاية مرحلة المدنية الرفعية والكمال الجدير به.

يرى هؤلاء أن كرائم الأخلاق والخصال الحميدة تسير في طريق التقدّم أيضاً في خط موازٍ للتقدّم نحو المدنية، وأن الناس سوف يتّجهون شيئاً فشيئاً نحو الطهارة والخير، وتتأصل فيهم السجايا الإنسانية كطبيعة ثانية، وتصطبغ بعض الصفات المكتسبة بلون الفطرة لتصبح صفات موروثة.

«يعتقد كثير من المصنِّفين أن المواضيع المتعاقبة التي تبعث على تقدم المدنية في الجوانب الفكرية والأخلاقية تترك آثارها بمضي الزمان على جوهر الإنسان وذاته، بحيث إن بعض الحالات المكتسبة تتحول إلى صفات فطرية، وتنقلب من مرتبة (التوارث الاجتماعي) إلى مرتبة (التوارث العضوي).

من البديهي أن هذا لا يعني أن هذا التحول أو التغيّر يتم بطرق وأساليب دقيقة وواضحة، لتصل بعد بضعة آلاف من السنين إلى حدٍّ من الكمال بحيث يولد الأطفال وهم على درجة كبيرة من العلم والأخلاق الإلهيّين، ليتولّوا - من دون ذهاب إلى مدرسة ولا تعلُّم - تهذيب الآخرين.ولكن يمكن التكهّن بأن الإنسان يستطيع، بمساعدة قوى التعلُّم والاستيعاب أن تتحسَّن قدرته على تعليم نفسه وتربيتها تدريجياً، وأن يصبح أكثر رغبة في إطاعة القوانين الاجتماعية وتنفيذها، ويقل خوفه من القانون عند لزوم تطبيقه.

## التكامل الطبيعي

«وعليه، فإن (محتوى المدنية) يتثبت في الجنس البشري عن طريق تغيّر العادات والغرائز، من دون أن يتثبت في (المجموعة الوراثية) للإنسان، ويجعل الذّات الإنسانية، بطرق مختلفة، أكثر تقبُّلاً للتعلّم، وأكثر مرونة واستعداداً لقبول المدنية.

صاحب هذه النظرية هو (أوغست كنت) الذي كان يعتقد أن البشرية سوف تبلغ تكاملها بصورة طبيعية وبتطور وظائف الأعضاء، حتى أن أرفع الغرائز في الإنسان تزداد هيمنة على طبيعة الإنسان.

وكان (هربرت سبنسر) يحمل الإتجاه نفسه، فقد قال هذا الفيلسوف إنه

كلما ازداد بُعد الإنسان عن مراحل التوحُّش والبربرية، ازداد تأصّل السجايا الإنسانية فيه بالنسبة نفسها. وإذا كانت إطاعة أوامر المجتمع التي لا تُطاق اليوم مُرّة ومرهقة، فذلك لأن الإنسان لم يبلغ نهاية تكامله بعد، أي إنه ما يزال نصف متمدن، وإنه من حيث الأخلاق ما يزال عليه أن يقطع طريقاً طويلاً حتى يصل إلى مرتبة الكمال. ولكن بعد بضعة قرون، أو أكثر، سوف تثبت في الإنسان غريزة الطِّيبة، وتنمو فيه بحيث إنه سوف يستسلم لها بشكل آلي ومن دون أن يشعر بأيِّ أسفلذلك»[٢٨].

أصحاب هذه النظرية يعتقدون إن الإنسان سوف يصل بعد عدة قرون إلى درجة من التكامل الفكري والأخلاقي بحيث أن الصفات الحميدة والأخلاق السامية تمتزج بجوهر ذاته امتزاجاً، وتتركّز فيه غريزة الطِّيبة، وتقوم الأخلاق الطبيعية مقام الأخلاق الدينية، وإن الناس عندئذ يلتزمون بمبادىء الفضيلة في معاملاتهم بشكل آلي وبرغبة فطرية، من دون الحاجة إلى الدافع الديني.

هذه النظرية مرفوضة عند العلماء المحققين من الناحية العلمية، إذ إنه قد ثبت اليوم في علم الأحياء أن العوارض الجسدية والأخلاق المكتسبة لا يشملها قانون الوراثة، فهي لا تنتقل من جيل إلى جيل.

«يقول السيد (جان رستان)، عضو الأكاديمية الفرنسية ، عن الأخلاق، في معرض كلامه على نظرية التكامل: لو صحّت أمثال هذه المفاهيم والتصوّرات، ولو صحَّ أن يكون للمحيط الفكري والاجتماعي ـ الذي هو من صنع البشر ـ مثل هذا التأثير في الإنسان، بحيث إن الإنسان يتغيرّ من حال إلى حال بسبب تأثير تلك العوامل، وتصبح طبيعته الحيوانية مستعدة لتقبّل مختلف المسائل، وتنقلب التقاليد والعادات ـ وإن تكن تافهة ـ إلى طبيعة ثانية في الإنسان، عندئذٍ يمكن أن نأمل أملاً كبيراً في إمكان وصول الإنسان إلى التكامل، إذ إن قدرة الإنسان على التفكير تزداد قرناً بعد قرن، وتتطور قواه

---

(٢٨) كتاب الإنسان: ١٧٥.

الفكرية والأخلاقية جيلاً بعد جيل. أي إن الجنس البشري يتطور بشكل لا نهائي في الإتجاه الذي تستوجبه الضرورات الاجتماعية. ولكننا يجب أن لا نكون على هذا القدر من التفاؤل. ذلك لأن تصوُّر إمكان انتقال الصفات المعنوية المكتسبة يرجع إلى نظرية (لامارك) العامة التي تقول: إن التغيُّرات الجسدية يمكن أن تثبت في عناصر الكائنات المولدة، ومن ثم تنتقل إلى أعقابها.

على الرغم من أن هذه النظرية ظلّت زماناً موضع اهتمام علماء الأحياء، فإنّها اليوم مرفوضة كليّاً. إذ إن تجارب كثيرة أثبتت العكس، وتأكد الآن أنَّ السّمات الجسدية والأخلاقية المكتسبة لا يمكن أن تنتقل بالوراثة إطلاقاً. وهذا من ثوابت العلوم الحديثة.

وعليه، لا بدّ من إغفال هذا التصوُّر القائل بأنَّ المدنيّة قد استطاعت في الماضي أن تغيِّر طينة الإنسان، أو أنها قادرة في المستقبل على إيجاد التغيير في الجنس البشـري. إن ما يضاف إلى الإنسان بتأثير العلم، والفكر، والتأمل، والانضبـاط، يبقى على سطحه الخـارجي، دون أن يصـل شيء منـه إلى (الجينات)، ولذلكلا يمكن أن يختزن في النوع»[٢٩].

كذلك يرفض فرويد هذه النظرية من حيث علم النفس، فهو فضلاً عن كونه لا يعتبر انتشار العلوم الطبيعية ومظاهر التمدُّن مؤثراً في سموِّ أخلاق الإنسان وتكامله، فإنّه يقول العكس، متحدّثاً عن انعدام الانسجام بين الأخلاق والعلوم الطبيعية، ويتنبأ بخطر فناء المدنية:

«إني لا أتفق في الرأي مع القول بأن الإنسان يطوي حياة استكمالية، وإنه في النهاية سوف يتحول إلى (ما فوق إنسان). وإذا ما لوحظ ذلك في أقلية صغيرة، فإنه ناجم عن كبت الغرائز. من البيِّن للعيان اليوم أنَّ المدنية معرَّضة لخطر الإنهيار، كما أن القوى الأخلاقية تتعارض صراحة مع الإنجازات العلمية

---

(٢٩) (ن.م): ١٧٧.

والفنية»[٣٠].

## الأخلاق وعالم اليوم

لقد جذبت هذه الإنجازات العلمية والفنية الإنسان نحو عالم الطبيعة إلى درجة أنه نسي عالم الخلق، وسحرته العلوم المادية حتى أنه لم يعد يتذكّر المعارف الإلهيّة. فمن جهة أضعف تقدم العلوم الطبيعية والتقنية الصناعية المباني الإيمانية والعقائد الدينية، التي هي أساس سعادة الإنسان والضامنة لتنفيذ مكارم الأخلاق، ومن جهة أخرى وسّع هذا التقدّم من ميدان نشاط الغرائز والشهوات النفسية، وزاد من تهيئة المجال لعبادة الأهواء والسيِّئات الأخلاقية، فكانت النتيجة أن هبطت قيمة الصفات الحميدة والسجايا الإنسانية، وفقدت مكانتها واعتبارها، وعلى العكس من ذلك، أخذت الأنانية، وطلب الجاه، والظلم، والفساد، والإثم، تشتد يوماً بعد يوم.

في عالمنا المادي اليوم، حيث حبّ الذّات والنفعية هما الهدف الأعلى لأكثرية الناس، وحيث يُهمل العدل، والإنصاف، والنبل، والشرف، تريد جمعيات أنصار الأخلاق الطبيعية التسلُّح بقوى الضمير والغرائز الاجتماعية، لتغيير مسيرة الناس الأنانيِّين والنفعيِّين، ولوضع أُسس الصفات الإنسانية في دخيلتهم، ولجعلهم من ذوي الأخلاق الكريمة ومتّصفين بالإيثار وحُبِّ الآخرين.

لكن يحدو بنا الظن القوي إلى أن نهج أنصار الأخلاق الطبيعية هذا لن يبلغ هدفه المنشود، فخلال عشرات السنين الماضية، التي كان فيها لجام الأخلاق لم ينفلت إلى هذا الحد، واللا أُباليّة الأخلاقية لم تهبط إلى مستوها الحالي، لم يستطع هؤلاء تحقيق أهدافهم التربوية، ولم يتمكنوا من حمل الناس على التخلُّق بالأخلاق الكريمة، فكيف يمكنهم في المستقبل ـ بعد استمرار التقدم في العلوم الطبيعية والتوسع في انتشار المصنوعات الآلية، وازدياد طغيان الغرائز وثورة الشهوات ـ أن يربُّوا الناس على

---

(٣٠) مذكرات فرويد: ١٠٦

السجايا الإنسانية وتتحقق أهدافهم؟

## إقامة العدل العالمي

يستدل من الأخبار الإسلامية على أن مستقبل العالم من حيث الفساد والتحلّل من القيم سوف يكون أسوأ بكثير مما هو موجود فعلاً. فقد أشار أئمة الإسلام إلى أنه خلال فترة غيبة الإمام الثاني عشر، المهدي المنتظر(ع)، تزداد الجرائم، والكذب، والخيانة، والاعتداء، وجميع السيّئات الأخلاقية تزايداً متواصلاً، ويتفاقم ارتكاب الآثام والمفاسد حتى تعمَّ العالم أجمع، فيمتلىء ظلمًا وجَوراً. إلّا أن هذه الحالة من الظلام والفساد لا تدوم، بل سيأتي اليوم الذي يتغير فيه حال العالم ويوضع حدٌّ للظلم والجور، وتمتلىء الأرض قسطاً وعدلاً.

إلّا أنَّ هذا التغيير لا يتم على وفق نظرية التكامل الطبيعي والتحوّل في وظائف الأعضاء، والذي سبقت الإشارة إليه، وإنَّ منشأ استتباب العدل في العالم ليس الأخلاق الطبيعية ولا هو بتبدل العادات المكتسبة إلى صفات فطرية، بل إن لهذا التغير المنجي جذوراً دينيةً، يقوده آخر أوصياء خاتم النبيّين(ص)، وفق منهاجه في التعاليم القرآنية .لذلك نجد إن جميع الأخبار التي تتناول هذا الموضوع تشير بالاسم إلى الإمام المهدي(ع)، بصفته أنّه هو الذي يقيم العدل العالمي.

قال رسول الله(ص): *«اَلمهديُّ منْ ولْدِي، تكونُ لهُ غيبَةٌ، إذا ظهرَ يَمْلأُ الأرضَ قِسْطاً وعَدْلاً كَما مُلئَتْ جَوْراً وظُلْمًا»* [٣١].

عالمنا اليوم لا تتوفر فيه ظروف إقامة العدل العالمي على يد المهدي(ع)، وليس مستعداً لتقبّل الحكومة الإسلامية الواحدة، لأن الدين الإسلامي المقدَّس قائم على الإيمان بخالق العالم، وعلى التوحيد في العبادة، بينما عالم اليوم ما يزال فيه كثيرون يتبعون ـ لقصور في العلم وتقصير في الفكر ـ المدرسة المادية التي تعتبر العالم وليد

---

(٣١) منتخب الأثر: ٢٤٩.

المصـادفة والإتفاق، وترفض الإيمان بعالم الخلق، كما أن هناك من يؤمن بالخرافات ويعبد الأجرام السماوية أو آلهة مزيفة أخرى.

خلال فترة غيبة الإمام المهدي(ع) يرتفع مستوى فهم الناس وإدراكهم على أثـر تقدُّم العلوم الطبيعية وانتشار المعلومات المادية، ويطّلع الإنسان على الأسرار الحكيمة في الخليقة، ويزداد معرفة بنفسه وبما فيها من آيات الله، وتتسع معرفته بالعالم وبدقائق الأمور الكامنة في الخلق والإبداع، وعلى أثر إتضاح الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، وارتفاع مستوى العلم والمعارف، يتبيّن للناس بطلان المدرسة المادية وصدق المدرسة الإلهيّة، فيزول الفكر المادي بالإكراه بتأثير العلم، وتنهار أُسس الشرك وعبادة الأصنام، ويتّجه العالم برمّته إلى عبادة الله تعالى، فيتمهّد الطريق، بذلك، لحكومة إسلامية عالمية، كما بشّر القرآن الكريم بمجيء مثل هذا اليوم الساطع:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(٣٢).

هذه الآية تبدأ بالسين الدالة على الاستقبال، أي إن الناس سيدركون، كلما تقدّمت بهم العلوم والمعارف التي تبـيِّن آيات الله في كل شيء، أنّ الله حق، وأن عبادته هي الطريق الوحيد المُوصِل إلى سعادتهم.

## تكامل العقول

في ضوء المعلومات العلمية والإطلاع على نظام الخلق الدقيق، يزداد نمو العقل البشري تدريجياً، وتتحسن قوة الإدراك عند الإنسان، وتصبح البشرية مهيّأة لقبول الحكومة الإسلامية العالمية، وعند ظهور المهدي(ع) تتفتّح تلك الاستعدادات النامية، وتتمدد إشراقات العقل، تبلغ قوى الحكمة كمالها اللاّئق بها.

عن أبي جعفر الباقر(ع)، قال: «*إذا قامَ قائِمنا وضعَ اللهُ يَدَهُ على رُؤوسِ العِبادِ فجمَعَ بها عقولهم وكَمُلَتْ بهِ أحلامُهُم*»(٣٣).

---

(٣٢) فُصّلت: ٥٣.

(٣٣) منتخب الأثر: ٤٨٣.

نستخلص من ذلك أن الإنسان، على امتداد القرون، وعلى أثر انتشار العلم والمعرفة، يظل يتعرَّف آيات الله، وتضعف عقائده الباطلة، ويستوي طريق عبادة الله في أرجاء العالم، وينجذب المثقفون بالعلم نحو المعنويات، ويصبح الإسلام، بقيادة الإمام المهدي(ع)، ديناً عالمياً، ويغلب الأديان الأخرى عن طريق غلبة العلم على الجهل، والحق على الباطل، والبرهان على الخرافة، ويتحقق الوعد الذي وعد به الله في القرآن الكريم بقوله:

﴿هوَ ٱلَّذي أرْسلَ رسُولَهُ بٱلهدى ودِينِ ٱلحَقِّ ليُظْهِرَهُ عَلى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ولوْ كرِهَ ٱلمشرِكُونَ﴾[٣٤].

وفي ظل حكومة الإمام المهدي(ع) يلتفت الناس بعلوم ومعارف أوسع إلى الله وما وراء الطبيعة، ويرون أنفسهم مسؤولين أمام الله، ويكبحون جماح الغرائز المتمردة بقوة الإيمان، ويحرِّرون أنفسهم من أسر حب الذّات والعبودية للشهوات، ويتخلَّقون بمكارم الأخلاق، ويلتزمون بالحق والفضيلة في أقوالهم وأفعالهم، ويؤدون تكاليفهم الإنسانية والأخلاقية بدافع من إطاعة الأوامر الإلهيّة، ورغبة في نيل الكمالات الروحية. وهذا هو معنى الخُلق الديني، وهو الطريق الوحيد إلى سعادة البشر.

---

(٣٤) التوبة: ٣٣.

# الفصل الخامس

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾
*القرآن الكريم*

## تشخيص الأمراض الأخلاقية

سلامـة الفكر، مثل سلامة الجسم، من الأركان الأساس لسعادة الإنسان، وسقم الفكر، مثل أسقام الجسم، يبعث على تعاسة الإنسان وشقائه، بحسب ما فيه من شدة وضعف.

وأسقام الجسم هي الأمراض التي يُبتلى بها، وسقم الفكر هو التخلُّق بالسيِّئات الأخلاقية. فعندما يمرض عضو لا إرادي العمل في الجسم، فيقف بسبب ذلك عن أداء وظيفته الطبيعية، يصل تأثيره إلى سائر أجزاء الجسم كثيراً أو قليلاً، فيصيب بالضرر سلامة الإنسان وحيويته، وإذا كان العضو المصاب ذا دور أساس في حياة الإنسان، فإن اشتداد ذلك المرض قد يؤدي إلى الموت. كذلك هي الحال عندما يصيب الفساد الأخلاقي فكر الإنسان، الذي هو مركز الإرادة، فإنّه يؤثر في جميع الجوارح والقوى، التي تؤدي وظائفها بصورة إرادية، أثراً سيئاً، فتحرفها عن مسيرها الصحيح، وتحملها على الإتيان بأعمال منافية للأخلاق، فتؤدِّي إلى تعاستها وإصابة الآخرين بالأذى، وقد تسبب أحياناً مفاسد كبيرة لا يمكن تلافيها.

وبتعبير آخر، إن جميع أعضاء الجسم وأجزائه، وجميع الغرائز والميول الفطرية

في الإنسـان قد خلقها خالق قدير على وفق المصلحة، وعهد إلى كل جزء، بإرادته الحكيمة، القيام بوظيفة معيَّنة، بحيث يكون لكل منها دوره في إدارة الحياة، وإدامتها، وضمان السعادة للإنسان.

إنَّ حدود فعـاليات الأعضاء اللا إرادية العمل، مثل حركة القلب، ودوران الدم، وإفرازات الغدد، وأمثالها، قد تحدَّدت بشكل طبيعي يتَّفق والتقدير التكويني، فتقوم بعملها الموكل إليها بإلهام من الله. أمّا الأعضاء والقوى التي تقوم بعملها إرادياً، فلا تؤدِّي وظائفها إلاّ وفق موازين عقلية، ودينية، وقانونية، وأخلاقية، أي إنها تحدَّد بالتعاليم التشريعية.

وما دامت الأعضاء اللا إرادية تجري في مجراها الطبيعي وتعمل بموجب سنن الخلق ونظامه، فإن الإنسان ينعم بنعمة السلامة الجسمية. أمّا إذا اختل نظام أحد الأعضاء الطبيعي بحيث عجز عن أداء وظيفته، فأسرع في عمله أو أبطأ، فإنّه يخل بسلامة الجسم بمقدار أهمية دوره في عمل الجسم ككل، ويكوّن المرض.

إن الجوارح والقوى التي تنشط اختيارياً وتعمل بأوامر من الإرادة؛ يرتبط حسن عملها أو سوءُه بنوعية نيّة الإنسان وإرادته. فمن كان جهازه الفكري وضميره متّصفاً بالصفات الحميدة وبالأخلاق الفاضلة وفي موقع القيادة، فإنّه يرعى موازين الحقّ والفضيلة، وتكون أعماله وأقواله محمودة ومرضية.

ومن كان فكره مصاباً بمرض سوء الخلق؛ فإنه يهمل معايير العقل والدين في ضبط أهواء النفس، ويسير بغرائزه في طريق الإفراط أو التفريط، ويستعمل قواه الـطبيعية استعمالات غير صحيحة وبخلاف ما تقتضيه المصلحة، ويكون في أفعاله وأقواله باعثاً على أذى نفسه وأذى الآخرين، وهو عرضة دائماً للانحطاط والسقوط.

### جرح السنان وجرح اللسان

قد يجرح شخص إصبعه فينزف منه الدم. فإذا كان ذا جسم سليم فإنّه يبرأ سريعاً بعد مراجعة الطبيب ومعالجته. وإذا لم يراجع الطبيب؛ فإنه ربما يبرأ خلال يومين

أو ثلاثة، إذا كان الجرح سطحياً، وتزول آثار الجرح. أمّا إذا كانت صحته معتلّة بسبب مرض السكّر مثلاً، بحيث يكون مقدار السكر في دمه أكثر من الحد الطبيعي، فإن جرحه لن يندمل في يومين أو ثلاثة، كما أن الطبيب أيضاً لا يكون قادراً على علاجه بالمراهم وحدها، بل لا بّد له من تنظيم برنامج غذائي له لتخفيض نسبة السكّر في دمه وتهيئة الظروف المناسبة لاندمال جرحه.

إن سبب مرض السُّكَّر هو الاختلال الذي يصيب غدَّة البنكرياس التي تفرز الأنسولين، وعلى أثر هذا الاختلال تختل عملية الاحتراق في الجسم؛ فترتفع نسبة السكّر في الدم، وتظهر أعراض مختلفة في نواح مختلفة من الجسم، منها بطء التئام الجروح. وإذا اشتدَّ هذا المرض واستمر أدَّى إلى اختلالات خطـرة قد تنتهي بالموت.

«إن قدرة الأنسولين على تنشيط عملية (الأيض) [بالعمليات الحيوية] في الكلوكوز لترميم أنسجة الجسم مهمة جداً، بحيث إن توقف إفراز الأنسولين توقفاً تامًاً ـ كما يحدث في مرض السكر الحادّ ـ ولمدة طويلة فإنّه لا يساعد على استمرار الحياة»[1].

إن من يخز الآخرين بكلامه ويهينهم ويحقّرهم ويهتك حرماتهم، يكون قد جرح قلوبهم، فإذا جرت إهاناته علانية، كان الجرح أعمق، وإذا لم يجر ذلك في العلن، كان الجرح أخف أثراً في النفس، وأشبه بالجرح السطحي، لأن الاهانة تكون قد جرت في جوّ خاص.

إنَّ الشخص الذي يكون هدفاً للسبِّ والإهانة، إذا كان يتمتّع بفكر سليم، فإن السابَّ إذا تقدّم معتذراً، يكون كمن يضع المرهم على الجرح، فيقبل الجريح عذره فوراً، ويغفر له بكرم نفسه وسموّها، وسرعان ما يلتئم جرحه.

عن علي بن الحسـين(ع)، قال: *«إنْ شتَمَكَ رجُلٌ عنْ يمينِكَ ثُمّ تحوَّلَ إلى يسارِكَ فاَعتذَرَ إليكَ، فاقبلْ منْهُ»*[2].

(١) فسيولوجي كايتون ٢: ١٣٢٣.

(٢) مسكاة الأنوار: ٢٢٩.

أما إذا لم يعتذر الشاتم، وانصرف دون مبالاة، فإن المُهان الذي يحمل فكراً سليمًا، لا يحمل في قلبه للشاتم غلّاً ولا حقداً، ولا يفكّر في الانتقام، ويحاول نسيان ذلك الحادث المرّ، وبعد مضي أيام أو أسابيع يلتئم جرحه تلقائياً.

أمّا إذا كان المُهان مصاباً بأمراض فكرية بسبب سوء الخلق، فإنّ جرح قلبه لن ينـدمل تلقائياً، ولن ينفع فيه اعتذار الشاتم، فيحقد في نفسه عليه، ويفكّر في الانتقـام، ويسـرع ي ردّ الفعل، إذا استطاع، وإذا لم يستطع، راح ينتهز الفرص المناسبة لردّ الاهانة والانتقام.

إنّ الحقد والتفكير في الانتقام أشبه بالدم الذي ينزف من مصاب بداء السكّر، فكما أن زيادة السكر في الدم تمنع من تحسّن الجرح في الجسم وتحول دون التئامه وبرئه، كذلك يكون الإحساس بالحقد وبالرغبة في الانتقام مانعاً من معالجة جرح القلب وحائلاً دون برء الخاطر الجريح. إن أمثال هؤلاء الناس لا يُشفى غليلهم ولا تهدأ خواطرهم إلّا إذا انتقموا لأنفسهم من المسيء.

المصابون بهذا المرض يستطيعون، إذا شاءوا، أن يلجأوا إلى أشخاص عارفين وينفّذوا مناهج أخلاقية، فيعالجوا أنفسهم، وينجوا من التعاسة وسوء الحظ، وإن لم يشاءُوا، فسيكون عليهم أن يقضوا حياتهم في عذاب وقلق، تشتعل في قلوبهم نيران الحقد على هذا وذاك. ثم إن هؤلاء، بفكرهم السقيم وعقليتهم المريضة، يكونون عرضة دائمًا لطبيعتهم الافتراسية والأعمال اللا إنسانية، وقد يرتكبون جرائم خطيرة فظيعة بدافع من روح التشفّي والانتقام.

في القـرن الســادس الهجـري وصل (ابن سلار) ـ وكان ضابطاً في الجيش المصـري ـ إلى مقـام الوزارة، وراح يحكم الناس بكل اقتدار. كان هذا من جهة شجاعاً، نشطاً، ذكياً، وكان من جهة أخرى أنانياً، فظاً، ظالماً، وقد خدم أثناء حكمه كثيراً، كما ظلم كثيراً.

عندما كان (ابن سلار) ضابطاً في الجيش، حُكم عليه بدفع غرامة، فشكا الأمر إلى (أبي الكرم) محاسب الديوان وأوضح له الأمر. غير أن أبا الكرم أهمل كلامه، بحقّ

أو بدون حقّ، وقال له: إن كلامك لا يدخل في أُذني. فغضب ابن سلار منه وحقد عليه. وما أن تسنَّم مقام الوزارة حتى انتهز الفرصة للانتقام، فألقى القبض عليه، وأمر أن يدقّ في أُذنه مسمار طويل، فدُقَّ حتى خرج من أُذنه الأخرى. ومع كل صرخة من صرخات أبي الكرم عند طرق المسمار في أُذنه، كان ابن سلار يقول له: الآن يدخل كلامي في أُذنك. ثم أمر بشنق جثته الهامدة بتعليقه من المسمار الداخل في رأسه[٣].

لقد جرح أبو الكرم خاطر ابن سلار وأصاب قلبه بكلامه. ولو كان ابن سلار من ذوي السجايا الإنسانية وسليم الفكر، لبرىء جرح قلبه بعد بضعة أسابيع أو شهور، ولنسي تلك الحادثة المرّة. ولكنه كان مصاباً في فكره بفساد الأخلاق، فلم يلتئم جرحه بسبب أنانيته وحقده وحبه للانتقام. ولهذا، وبعد مرور عدة سنوات ووصوله إلى الوزارة، ونيله فرصة للانتقام، انتقم من ذلك الكلام الجارح، وشفى غليله، ولكنه في سبيل ذلك ارتكب عملاً وحشياً بعيداً عن الإنسانية، فقتل رجلاً شرَّ قتلة بسبب ما تفوَّه به.

## منشأ أمراض الفكر

إنَّ منشأ الأمراض الفكرية هو الصفات الذميمة وفساد الأخلاق، بينما منشأ أمراض الجسم هي الأمراض المعدية وغير المعدية. إن آثار الأمراض الأخلاقية وأعراضها أخطر بكثير من الأمراض الجسمية وأشدّ ضرراً.

إنَّ الأمراض الجسمية المعدية يمكن التغلب عليها باتباع البرامج الصحيّة والتطعيم، والحيلولة دون انتشارها وإيجاد المناعة في أجسام الناس. أمّا الأمراض الأخلاقية فلا يمكن الحدَّ من ضراوتها بالأمصال، ولا يمكن إيجاد المناعة ضدَّها. إن الفرد الفاسد، السيِّء الخُلق، يؤثّر في من حوله تأثيراً سيِّئاً، فيصيبهم بفساد الأخلاق، ويسقم عقولهم السليمة.

---

(٣) قاموس دهخدا، أبو سعد: ٣٢٠.

أعراض الأمراض الجسمية تسبِّب الانزعاج للمريض وحده، أمّا آثار المرض الأخلاقي المشؤومة فإنّها تصيب المجتمع أيضاً. فمريض الجسم يتعذَّب ويتألَّم وحده، أما أهله وأصدقاؤه، برغم قلقهم عليه واهتمامهم به، فإنّهم لا يحسُّون بالحمى مثلما يحسّ بها هو، ولا يتلوَّون ألماً مثلما يتلوَّى هو. ولكن مرضى الأخلاق يُشعلون بسلوكهم القبيح نار الفتنة والعداء، ويربكون نظام العائلة والمجتمع، ويسبّبون الفساد والخراب مما يؤدي إلى التعاسة لأنفسهم ولغيرهم.

الحروب، وإراقة الدماء، والجرائم، والآلام والمصائب الاجتماعية، مصدرها، في الغالب، هو المرض الفكري والفساد الأخلاقي. كثير من الناس قد تركوا في الوقت الحاضر العبودية لله وراحوا يعبدون أهواءهم النفسية، تسخّرهم الغرائز العنيدة، وتقهرهم الأهواء المطلقة العنان، فكانت النتيجة أن أضاعوا حظهم من سلامة الفكر والفضائل الأخلاقية. ومن أجل الوصول إلى الجاه، والمقام، والثروة، والسلطة، والنجاح، واللذّة، وبالتالي، إلى إشباع أهوائهم الخاصة، لا يتورّع هؤلاء المرضى عن ارتكاب كلِّ عمل مناف للأخلاق وللإنسانية، ولتحقيق أهدافهم يتوسَّلون بكل جريمة. هؤلاء هم الذين جرُّوا العالم، بأخلاقهم الفاسدة وأفكارهم المريضة، إلى الفساد وانعدام الأمن والطمأنينة، ودفعوا بالمدنية إلى طريق الفناء والزوال.

«أية كارثة هذه التي أحاقت بالمدنية؟ أهي مريضة؟ هل قواعدها آيلة إلى الانهيار حقاً؟ أهي معبود يريد إهلاك عباده، أم إنّه لم يستطع الوقوف في وجه طبائع الإنسان المنحطة؟

هل منشأ خيبة الآمال والأمراض الدولية هي هذه الطبيعة الإنسانية؟ أيمكن أن يكون كل ما يصيب الإنسان هو نتيجة أعماله هو؟

إن العلم يجيب عن هذه الأسئلة بالإيجاب، ولكن ما الفائدة؟

العالم النفساني الذي يتحدّث باسم العلم أشبه بالذي يصرخ في الصحراء عبثاً. إنه يقول، مستنداً إلى الحقائق العلمية المسلَّم بها: إن مرض العالم ناشىء عمّا أصاب شخصية الفرد من مرض. إن ما يجري خلال هذه السنوات الأخيرة

من حروب وإراقة دماء إنما هو ردُّ فعل لحروب صغيرة لا تُحصى، تدور رحاها في قلوب الأفراد. بيْدَ أن أحداً لا يصدِّق كلامه. يؤكد العالم النفساني أن الحروب بين الدول هي حروب الغرائز والنوازع الفردية، إلّا أن أحداً لا يلتفت إليه»[٤].

إن العالم تكتنفه اليوم جرائم القتل، والجرح، والظلم، والعسف، واللصوصية واختطاف الناس، وما إلى ذلك من المفاسد الاجتماعية، مما أحال حياة الأمم والمجتمعات البشرية إلى غصص مريرة كالعلقم، حتى راحت شعوب العالم تتطلّع إلى ذلك اليوم الذي يرحل الظلم والفساد عن هذه الكرة الأرضية، ليسود أرجاءها العدل، والإنصاف، والحق، والفضيلة، والودّ والمحبة، وتصبح موطناً لهدوء الفكر وراحة البال.

غير أن هذا اليوم لا يأتي، ولا تتغير أحوال العالم، إلّا إذا غيّر الناس أفكارهم، وتركوا الأخلاق الفاسدة التي هي أصل الفساد الاجتماعي، وتخلّقوا بالأخلاق والطبائع الإنسانية، وهذا بذاته من سنن نظام الخليقة الثابتة التي أقرّها الله تعالى بإرادته الحكيمة، والتي أعلنها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً، إذ قال:

﴿إِنَّ ٱللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾[٥].

## التغيير يكون من الداخل

ولكن يبدو في عالم اليوم، لسوء الحظ، وكأن جميع الأمم والحكومات قد أولت كل اهتمامها للشؤون المادية والأمور الدنيوية، وألقت في زاوية النسيان كل الشؤون المعنوية والأمور الروحية. معظم الناس يبذلون أقصى الجهود لإشباع الغرائز الحيوانية واجتلاب اللذائذ المادية، ولكنهم في سبيل إشباع الميول الإنسانية السامية والتخلّق بمكارم الأخلاق لا يرفعون قدماً عن قدم. تراهم ينتابهم من الأمراض

---

(٤) إعجاز التحليل النفسي: ٢

(٥) الرّعد: ١١.

الجسمية وأعـراضهـا أشدُّ القلق والاضطراب، ويهرعون بحثاً عن العلاج والدواء، ولكنهم في مقابل الأمراض المعنوية والسيِّئات الخُلقيّة يتّسمون بالبرود واللا أبالية، ولا يشعرون بأيٍّ قلق أو اضطراب جرّاءها. والحكومات في الدول المتقدمة ترى أنها مسؤولة عن مكافحة الأمراض الجسمية فقط، وأنها لا تتحمل أيّة مسؤولية بالنسبة للأمراض المعنوية. إنها مسؤولة، بموجب القوانين الموضوعة، أن تحافظ على سلامة أجسام أبناء الشعب عن طريق الوقاية والعلاج، فتخصص لذلك الميزانيات المالية الضخمـة، وتستخدم الأطباء المهرة في مستشفيات مجهّزة بالمعدّات والأدوية لمعالجة النـاس، ولكنهـا ليس من واجبـاتها السعي للعناية بصحة أفكار الناس وعلاجها، ووقايتهم من الفساد، ومعالجة مرضى الأخلاق، وتوفير أسباب سلامة أفكار المجتمع.

إنَّ الأمراض الأخلاقية، مثل الأمراض الجسمية، حقائق غير قابلة للإنكار ولا يعتورها الشك، مع فارق أن الأمراض الجسمية تواكبها أعراض ظاهرة في الغالب ودلائل تدل عليها، مثل الحمى، والارتجاف، والآلام الموضعية، والاضطرابات العامة، وأمثالها، مما يشير وجودها إلى وجود المرض، فيدرك المريض فوراً أنّ حالته الصحيّة غير سليمة، فيفكّر في المداواة، ويعمد إلى الرجوع إلى طبيب يعالجه. أمّا الأمراض الخلقية فليست لها ظواهر جسمية وعلائم ظاهرة، ولذلك ليس من السهل تشخيصها. فكثيراً ما نجد أشخاصاً مصابين بأمراض فكرية وسيِّئات خلقية، من دون أن يكونوا هم عالمين بها، بل يحسبون أنفسهم سالمين معنوياً.

غير أن جهل المرء بأنه مريض لا يغيّر من الواقع شيئاً، ولا يزيل المرض، ولا يقضي على آثاره، بل الأمر على العكس من ذلك، إذ إن هذا الجهل قد يؤدي إلى تفاقم الحالة، ويصبح المرض مزمناً حتى يصعب علاجه أو يستحيل.

إن من يبحث عن السعادة عليه أن يجتهد في معرفة الذّات، وأن يقيس أفعاله وأقواله بمقاييس العقل والشرع، وأن يتعرّف على ما في باطنه من نقائص. وهذا أول شرط من شروط علاج الأمراض الخلقية. أما العارفون بنقائصهم النفسية فإنّهم قد أسبغ الله عليهم ألطافه وعنايته. أئمة الإسلام يعتقدون أن هذه الفئة الواقعيّة النظرة

والعارفة بذواتها، إنّما هي أكثر الناس وعياً وبصيرة.

عن النبيّ(ص)، قال: «*إذا أرادَ اللهُ بِعبدٍ خيْراً فقَّهَهُ في الدِّينِ، وزهَّدَهُ في الدُّنيَا، وبصَّرَهُ عيُوبَهُ*»[٦].

وعن الإمام علي(ع)، قال: «*أبصَرُ النَّاسِ مَنْ أبصَرَ عُيُوبَهُ وأقْلَعَ عن ذُنوبِهِ*»[٧].

هناك من يتّسِمون بفكر سقيم وأخلاق سيئة، ولكنهم لا يعرفون، أو لا يريدون أن يعـرفوا أنّهم كذلك. هؤلاء المفتقرون إلى الفضيلة، لا هم يستخدمون بصيرتهم الإنسانية لمعرفة عيوبهم الخلقية، ولا هم يلتفتون إلى نصائح من فيهم بصيرة وحب للخير ليكتشفوا الحقيقة، وكأنهم قد قرّروا أن لا يعرفوا أنفسهم أبداً، وأن لا يخطوا خطوة واحدة لإصلاح أخلاقهم والارتفاع بسموِّهم المعنوي. هؤلاء قد لا يغيِّرون سلوكهم حتى نهاية أعمارهم، ويبقون على امتداد حياتهم بلاءً نازلاً بأنفسهم وبأهليهم، وسبباً لتعذيب المحتمع وإقلاق راحته.

إن عدم معرفة الذّات والعيوب الباطنية يعني الإبقاء على الأمراض الفكرية والسيِّئات الخلقية. وهذه حالة مذمومة في الإنسان وقبيحة، بحيث إن أئمة الإسلام أعتبروا ذلك من أكبر ذنوبه.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*مِنْ أشدِّ عُيُوبِ المرْءِ أنْ تَخْفَى عليه عُيُوبُهُ*»[٨].

وعنه(ع)، قال: «*جَهْلُ المرْءِ بعيوبِهِ من أكبَرِ ذنوبِهِ*»[٩].

## كيف يتم التغيير؟

«عـلى الـذين يريدون أن يغـيِّروا أنفسهم أن يبدأوا بالعودة إلى ذواتهم

---

(٦) نهج الفصاحة: ٢٦.

(٧) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ١٨٧.

(٨) فهرست الغرر: ٢٨٨.

(٩) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ١١١.

ليتعــرفــوهــا بقدر ما يستطيعون، ثم عليهم أن يسيروا في الإتجاه الذي اختاروه لأنفسهم. ولما كانت حدود وجود الإنسان تتغير بمقدار عمق معرفته بنفســه، فقـد وجب اعتبار مبدأ المعرفة في معرفة الإنسان واحداً من العلل الأساس في تغيير الإنسان. إن الناس قليلًا ما يفكِّرون في ما هم بذواتهم، وإنَّ تهرُّبهم من معرفة الذّات هو الذي يحملهم على محاولة الإبقاء على ما هو كائن كما هو، وعلى أن يبقوا كما هم، لأن التفكير في الذّات يجبر الإنسان على أن يتغيّر، وهذا ،للإنسان، الذي من أهم غرائزه طلب الهدوء والدعة، صعب وغير مقبول»[١٠].

إن من يريد أن يعرف حالته الصحية ومزاجه الجسمي والأمراض التي فيه، يعرض نفسه على الجهات الصحيّة، فيبدأ المتخصِّصون بفحصه بدقة، مستخدمين في ذلـك التحليلات والتصـوير الشعـاعي وأجهزة الفحص الأخرى، ثم يقدِّمون له تقريرهم عن نتائج فحوصاتهم.

هناك أيضاً وسائل وطرق لتشخيص الأمراض المعنوية والعيوب الخلقية. فمن يرغب في معرفة حاله الباطنية وأمراضه الفكرية يستطيع أن يستفيد من تلك الوسائل لمعرفة صفاته الباطنية الذميمة، وتشخيص أخلاقه وطباعه القبيحة.

(أبو حامد الغزالي) يعيّن لذلك أربعة طرق، لكل طريق منها دوره المستقل في التعريف بالسيِّئات الخُلقيّة:

الأول: أن يجلس بين يدي بصير بعيوب النفس، مطّلع على خفايا الآفات.

الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديّناً فينصّبه رقيباً على نفسه ليراقب أحواله وأفعاله، فما يكرهه من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبّهه عليه.

الثالث: أن يتعرَّف على عيوب نفسه من لسان أعدائه، فإن عين السخط تُبدي المساوئ.

---

(١٠) المعرفة الفلسفية للإنسان: ٩.

الرابع: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيها بين الخلق، يطالب نفسه بتركه، وما يراه محموداً يطالب نفسه به وينسب نفسه إليه[١١].

ولكي يطّلع الناس من منظور واقعي على معايبهم النفسية، فيعرفوا أنفسهم جيداً ولا يخطئوا في تشخيص الأمراض الخلقية، نرى من الضروري البحث باختصار في كل طريق من هذه الطرق الأربعة.

الطريق الأول الذي يقترحه الغزالي لمعرفة الخلق السيِّيء هو الحضور في محضر إنسان بصير عالم بالأخلاق، أي إنه يعرف العيوب النفسية والآفات الأخلاقية الخفية، فهذا العالِم بالأخلاق العارف بأمراض الروح؛ أشبه بالطبيب الحاذق في تشخيص أمراض الجسم. ولكن مثلما أن الأمراض الجسمية تختلف عن الأمراض الروحية، كذلك يختلف طبيب الجسم عن طبيب الروح من وجوه عدَّة.

مقياس الأمراض الجسمية هو عدم الانسجام مع برنامج الطبيعة، ومقياس العيوب المعنوية هو عدم الانسجام مع أُصول الأخلاق. ينظر أطباء الأجسام إلى المرض من منظور نظام الخليقة، ويزِنون السقم والسلامة بموازين الطبيعة. أمّا أطباء النفس فينظرون إلى العيوب المعنوية من منظور الأخلاق، ويزِنون حُسنها وقُبحها بموازين المدرسة التي يتّبعونها. في نظر الطبيب، مرض الجسم هو انحراف فعاليته عن مسيرها الطبيعي، فيتخلّف عضو أو أعضاء من الجسم عن أداء الواجبات التكوينية. وفي نظر طبيب النفس، المرض المعنوي هو أن يترك الشخص منهاج مدرسته الأخلاقي، ويميل إلى ما يخالف ذلك. أطباء الجسم يخدمون الطبيعة، فيسعون لإعادة مزاج المريض المنحرف إلى مجراه الطبيعي، ويستعيدوا سلامته. أما أطباء النفس فهم يخدمون المدارس الفكرية، ويسعون لصياغة الفرد على وفق تعاليم المدرسة التي يتّبعونها، ويحققون انسجام أقوال المريض وأفعاله مع الأصول الأخلاقية لتلك المدرسة.

---

(١١) المحجّة البيضاء، الكاشاني ٥: ١١٣.

إن قانون الخليقة ونظامها متساوٍ لكلِّ الناس في كل أرجاء العالم، ولكن النظريات الأخلاقية تختلف باختلاف المدارس. جميع أطباء الأجسام في العالم متّفقون على أنَّ كل عضو من أعضاء الجسم إذا تخلّف عن أداء وظيفته التكوينية، ولم يستطع أن يقوم بعمله الطبيعي على وجه الصحة، يكون مريضاً. ولكن أطباء النفوس والمتخصِّصين في الأخلاق والذين ينتمون إلى مدارس مختلفة ليس بمقدورهم أن يتّفقوا في القول في جميع الحالات، فلا يمكن أن تتشابه أقوالهم عن العيوب المعنوية والأمراض الخلقية في جميع الحالات، ذلك لأن كثيراً من الصفات والسجايا الخلقية التي تعتبر مذمومة في نظر مدرسة من المدارس، قد تكون ممدوحة في نظر مدرسة أخرى.

فقد سبق القول بأن مقياس الحسن والسيىء عند الذين يعبدون الفرد هو كيفية إشباع الغرائز الحيوانية والشهوات النفسية. وهم لا يؤمنون بالسموِّ الروحي والكمال المعنوي، ولا يقيمون وزناً لمكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية. وهم يرون أن كل صفة تعمل على إشباع شهوة، أو تُزيد اللذّة، أو تُضاعف الثروة والسلطة، فهي صفة حسنة، حتى وإن كانت ظلماً وتعسُّفاً. وكل خلق يمنع الإنسان من التمتّع باللذائذ وتحقيق الأهواء النفسية، فهو خلق سيءٌ، حتى وإن كان هو الصدق وكرم النفس.

وأصحاب نظرية الأخلاق النفعية أيضاً يستندون إلى الأنانية والنفعية. هؤلاء كذلك ينظرون إلى الأخلاق من منظور مادي، ولا يُعنون بجوانبها المعنوية والروحية، وهم لا يلتزمون بالسلوك الأخلاقي بدافع من الشعور بالمسؤولية، ولا لأداء الواجب الإنساني، بل إن هدفهم من ذلك هو النفع الأكثر والحياة الأفضل. لذلك إذا ما رأوا أنَّ التمسّك بالأخلاق يضرُّ بهم، هجروا الفضائل ومالوا إلى الرذائل.

حسن الخلق، في المدرسة الإسلامية، شأن من شؤون الدِّين الأساس، وأمر من أوامر الله تعالى، فالأخلاق الحميدة، من الناحية المعنوية، عامل من عوامل سموّ الروح، وكرامة النفس، وبلوغ المكانة الإنسانية، وهي، من الناحية المادية، تجعل صاحبها محبوباً في المجتمع، وحياته أفضل. أتباع الإسلام مكلّفون، بموجب واجباتهم

الـدينية، بالتمسّك بالتعاليم الأخلاقية في أعمالهم، وأن يلتزموا، في أقوالهم وأفعالهم، الحقّ، والفضيلة، والعدل، والإنصاف، والصدق، والاستقامة، فينالون بذلك رضى الله تعالى.

وقـد أكَّـد أئمـة الدِّين أن المكر، والخداع، والكذب، والاستغفال، والغش، والتدليس، من الصفات الذميمة والعيوب الأخلاقية، وأن الفائدة التي تُنال من هذه الطرق فائدة قذرة وغير طاهرة. ولكن الانانيِّين والنفعيِّين لا يعتبرون هذه الصفات مذمـومـة وسيئـة، بل إنها إذا أعـانتهم على إشبـاع غرائـزهم وأهوائهم، وحققت لهم رغباتهم النفسية، وضمنت لهم المزيد من اللذائذ والمتع، فهي صفات محمودة ممدوحة.

يرى الإسـلام أن الاحتفـاظ بعـزَّة النفس وشـرفها من واجبات المسلمين الحتمية، ولا يسمح لأيّ مسلم أن يتسبب في إذلال نفسه، وأن يخضع للحقارة والضعة، وأن يدوس بقدمه على كرامته في سبيل بلوغ المنافع المادية.

قال أبـو عبـدالله الصادق(ع): *«إنَّ الله فوَّض إلى المؤمنِ أُمورهُ كُلَّها، ولم يُفوِّض إليهِ أنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»*[١٢].

إن عُبَّاد النفس والنفعيِّين لا يمتنعون عن استبدال شرفهم النفسي بالمنافع المادية الدنيوية، ولا عن التضحية بالإنسانية من أجل هوى النفس، فيصلون عن طريق التملُّق والـرياء إلى أهـدافهم المـادية. ولكن مدرسة الإسلام تمنح الشرف الإنساني وعزَّة النفس قيمة عظيمة وثمناً رفيعاً بحيث إن المسلم الحقيقي لن يجيز لنفسه أن يتحمّل أدنى ذلٍّ لقاء أكبر المنافع، وأن يخضع لمثل هذه المقايضة الشائنة الخاسرة.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«ساعةُ ذُلٍّ لا تَفي بعزِّ الدَّهر»*[١٣].

علماء النفس الذين يؤيدون نظرية عبادة الفرد والخلقِ النفعي، لا يرون عيباً

(١٢) وسائل الشّيعة، العاملي، كتاب الأمر بالمعروف: ٧٠.

(١٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٤٣٤.

أخلاقياً في التملُّق المثمر النافع، ولا يعترضون على الذين ينحطُّون بجبن وضعة في سبيل إشباع غرائزهم وشهواتهم، وهم أنفسهم يفعلون فعلهم القبيح إذا واجهتهم ظروف مماثلة.

غير أن أئمـة الإسلام والمربِّين الرفيعيّ الشأن يعتبرون الثناء المتملِّق من العيوب الأخلاقية، ولا يسكتون على القول أو الفعل الموجب للذلَّة والمنافي لمبادىء عزِّ الإنسان وشرفه، والمسلم الذي يفعل ذلك يكون عرضة للتوبيخ والانتقاد.

«أتى النبيَّ(ص) أعرابيٌّ فقال له: ألستَ خيرنا أباً وأُمّاً، وأكرمنا عَقِباً، ورئيسنا في الجـاهلية والإسـلام؟ فغضب النبي(ص) وقال: *يا أعرابيُّ، كمْ دونَ لسانِكَ منْ حِجابٍ؟* قال: اثنان، شفتان وأسنان. فقال النبي(ص): *فما كانَ في واحدِ هذَين ما يَرُدُّ عنَّا غربَ لسانكَ هذا؟ أما إنَّهُ لمْ يُعطَ أحدٌ في دنياهُ شيئاً هو أضَرُّ لهُ في آخرتِه منْ طلاقةِ لسانهِ. يا عليُّ قُمْ فاقطعْ لسانَهُ*. فظنَّ النَّاسُ أنَّهُ يقْطع لسانه، فأعطاهُ دراهم»[١٤].

لقد كان كلام الرسول(ص) من الشدة والعنف بحيث إن الحاضرين حسبوا أن علياً(ع) سوف يقطع لسانه فعلاً، ولكن قائد الإسلام أعرب بكلماته الشديدة عن عدم استحسانه لما تفوَّه به الأعرابي من جهة، وأفهم الحضّار، من جهة أُخرى، أن التملُّق والمداجاة من العيوب الخلقية الكبيرة، وأن على المسلمين أن يحذروا التخلّق بمثل هذا الخلق المذل الشائن.

بالمقارنة بين موازين الطبيعة الثابتة في الطب، ونظريات المدارس الأخلاقية المختلفة، نستخلص أن اختلاف الطبيب عن المريض من حيث الإيمان والأخلاق لا تأثير له في معرفة الأمراض الجسمية، وأن للمسلم المريض أن يرجع لتشخيص مرضه إلى أيِّ طبيب مختص، مهما يكن مذهبه واتجاهه، وأن يتبع ما يوصيه به من علاج، وأن يتناول ما يصفه له من دواء. ولكن في حالة المرض الأخلاقي لا يمكن أن يؤخذ بهذه

---

(١٤) معاني الأخبار، الصدوق: ١٧١.

النظرة، فأتباع مدرسة الإسلام، إذا أرادوا تشخيص عيوبهم الأخلاقية وانحرافاتهم الروحية، عليهم أن يرجعوا إلى عالِم بالأخلاق الإسلامية، وأن يناقشوا أفكارهم وآراءهم مع شخص يكون هو نفسه ملتزماً تعاليم القرآن المجيد، ويحترم مكارم الأخلاق، ويقدِّر القيم الإنسانية، ويزن الحسن والقبيح في الأخلاق بموازين الإسلام.

إن علماء النفس الذين يؤيدون نظرية عبادة الفرد والنفعية، وكذلك الذين يحتقرون الإنسانية، ويرون سعادة الإنسان مقتصرة على الشهوة، واللذّة، والسلطة، والمال، وما إلى ذلك من الشؤون المادية، لا يمكنهم أن يكونوا من الهداة إلى الأخلاق الإسلامية، لأنهم لا يعرفون شيئاً عن الحسن أو السيىء من الأخلاق في المنظور الديني، وهم، بما يحملون من طراز خاص في التفكير، قد يرون الرذيلة أحياناً فضيلة، والصفات الذميمة حميدة، فيضلُّون الناس في معرفة عيوبهم المعنوية وأمراضهم الأخلاقية.

من سوء الحظ أن فكرة عبادة الفرد والخلق النفعي أخذت تسود المجتمعات البشرية، بحيث أصبحنا نرى الكثير من المسلمين والمسلمات واقعين تحت تأثير الأفكار المادية، بعلم أو بدون علم. لقد هجر هؤلاء ـ فعلاً ـ الأخلاق الإسلامية في كثير من الحالات، وانحرفوا عن طريق الحقّ والفضيلة، وعكفوا على الأخلاق والطبائع السيِّئة لتحقيق منافعهم وإشباع شهواتهم، وحرَّفوا معاني الألفاظ ليُلبسوا أخلاقهم الذميمة لبوس الحسن، ويُغطُّوا سلوكهم القبيح بالصفات الحسنة، فوصفوا النفاق بأنه تدبير المعاش، والرياء بأنه التكيّف مع المحيط، والتحلُّل الخلقي بأنه الحبُّ المتحرِّر، والملق بأنه سُلَّم الرقيّ، والمحاباة بأنها انتهاز، والحرص والطمع بأنهما نشاط اقتصادي، والرشوة بأنها حق الأتعاب، والتمسّح بالأعراف الغربية بأنه الثقافة والخمر بأنه التقدم الاجتماعي، والميسر بأنه ترويح عن النفس سليم، والظلم بأنه سلاح الظفر في الصراع من أجل البقاء في الحياة. فهم بقلب الحقائق وتحريف الواقع يريدون أن يزيِّنوا سيِّئاتهم الأخلاقية، وأن يجعلوا قبيح أعمالهم حسنات، ليصلوا عن هذا الطريق إلى تحقيق مصالحهم وإشباع شهواتهم

كان عرب الجاهلية قبل الإسلام يتّبعون هذا الأسلوب غير الصحيح نفسه، فيخفون قبح أعمالهم وراء ستار الألفاظ المنمقة، فيزعمون أن وأد البنات هو الغيرة، والسلب والنهب شجاعة، وفرض السلطة قوة. وبهذه الكلمات الأخّاذة كانوا يمسخون الحقائق ويسوِّغون جرائمهم ويحسِّنونها.

إن السمَّ الزعاف الذي يؤدي إلى المرض فالهلاك، لا تتغير ماهيته بتغيير اسمه، ولا يستحيل إلى دواء عديم الضرر. إن طبيب الجسم، وهو الحارس على سلامة الجسم، لا يمكن أن يِّجوز ذلك، بل إنه يرفض تغيير الاسم هذا الذي يمكن أن يكون مضلِّلاً، فيحذِّر مرضاه من ذلك لئلا يتسمَّموا بذلك السم المهلك.

كذلك هو الخلق المذموم الذي يسبب انحراف الفكر ومرض الروح، فإنّه، بتغيير اسمه، لا يصبح محموداً، ولا تزول آثاره المشؤومة. وعالِم الأخلاق الإسلامية، بصفته طبيب النفس وحافظ سلامة الروح، فضلاً عن كونه لا يتقبّل مثل هذه الصفة المذمومة، فإنّه يكشف عن قبحها ويسعى إلى إزالة ذلك الطبع، وتخليص الناس من شرِّه.

في الجاهلية كان الذي يعقر عدداً أكبر من ابله في مسابقة تسمَّى «المعاقرة» يعتبر هو الفائز، حتى أن لفظة «عقر» وردت في اللغة بمعنى بتر رجل الحيوان[١٥]. ولذلك سُميت هذه المسابقة باسم المعاقرة، لأنهم كانوا يبترون إحدى قوائم البعير بضربة سيف، فإذا وقع على الأرض، نحروه، وكأن عقر قائمته بالسيف قبل النحر كان شرطاً من شروط المسابقة.

إن جذر هذا العمل هو الأنانية، وحبُّ التفوق، والمراءاة، والتفاخر، وعبادة النفس، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة. إلّا أن المتسابقين كانوا يوزِّعون لحوم الإبل المنحـورة في السباق على عامة الناس مجّاناً، لإشباع الجياع والفقراء والمحتاجين، فكـانـوا بهذا العطاء والجود، يسعون إلى إلباس عملهم اللا أخلاقي لباس الكرم

(١٥) لسان العرب، مادة «عقر»

والسخاء، والفتوة والإحسان، وإخفاء قبح عملهم بمظهر الإنفاق والبذل.

وقد منع قائد الإسلام هذه المسابقة اللا أخلاقية، ولم ينظر إلى جانب البذل والعطاء فيها، ولم يأخذ إشباع الجياع بنظر الاعتبار، وحذّر أتباعه من هذه المنافسة الجاهلية الباعثة على العداوة والبغضاء والفساد الاجتماعي، كما منع بتر قوائم الحيوانات بصفته عملاً غير إنساني وعادة قبيحة جاهلية، بحيث أصبحت المعاقرة غير جائزة في الإسلام، وغدت من الأعمال غير الشرعية:

في الحديث: «لا عَقْرَ في الإِسْلامِ»[١٦].

«إنَّ النبيَّ(ص) نهى عنْ مُعاقَرَةِ الأعْراب»[١٧].

والإسلام أسقط عادة المعاقرة، وأُهمِلت بالتدريج هذه المباراة التي لا تتفق والأخلاق، وبعد مُضي عشرات السنين من عصر الجاهلية، حين كانت الكوفة في حالة القحط، والناس في ضنك العيش، قام (غالب) وهو أبو الفرزدق الشاعر المعروف، وكان رئيس قبيلة بني تميم بنحر بعير لعائلته في أحد الأيام، وهيّأ طعاماً كثيراً، وأرسل قسماً منه في عدة أواني لأفراد قبيلته وآنية لسحُيم بن وثيل رئيس قبيلة بني الرياح، فغضب سحيم من فعل غالب غضباً شديداً، واعتبر ذلك هتكاً لحرمته، فقام باراقة الطعام في الأرض، وضرب حامل الطعام قائلاً، بأنه ليس في حاجة لطعام غالب، وما دام غالب قد ذبح بعيراً، فسوف أفعل مثل ذلك، وفعلاً فعل ذلك.

وعلى أثر هذا العمل بدأت بين القبيلتين سجالات ومباراة، حيث قام غالب في اليوم التالي بذبح بعيرين، وسحيم كذلك، في اليوم الثالث ذبح غالب ثلاثة جمال، ففعل سحيم نفس الفعل، في اليوم الرابع ذبح غالب مئة بعير، ولما كان سحيم لا يملك ذلك العدد، فلم يذبح في اليوم التالي ولا بعيراً واحداً، وكان متألماً جداً من هذه الهزيمة والتراجع، واحتفظ بذلك الألم في قلبه، منتظراً حلول فرصة مناسبة لتلافي ذلك

---

(١٦) (ن.م).

(١٧) حياة الحيوان ٢: ١٥٥

الانكسار.

مضت فترة القحط، وعاد وضع أهل الكوفة اعتيادياً. وفي يوم من الأيام قام بعض الناس من قبيلة بني الرياح لسحيم: إنك بعملك الذي عملته في قضية نحر الجمال ارتكبت خطأً فاحشاً، ولصقت بنار العار، لماذا لم تفعل كما فعل غالب وتنحر المئة بعير ولو كنت عملت ذلك لأعطيناك بدل البعير الواحد بعيرين، فاعتذر إليهم بأن الإبل كانت آنذاك متفرقة في الصحراء، ولم يكن لديه العدد الكافي، ثم وفي يوم آخر قام بنحر ثلاث مائة بعير لعامة الناس، يأخذون من لحومها أي كمية أرادوا.

وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فاستُفتي في حلّ الأكل منها فقضى بحرمتها وقال: هذه ذُبحت لغير مأكله ولم يكن المقصود منها إلا المفاخرة والمباهاة، فأُلقيت لحومها على كناسة الكوفة فاكلها الكلاب والعقبان والرُّخم[١٨].

كان الرسول الكريم(ص) والأئمة الطاهرون(ع) يعلِّمون الناس الأخلاق، ويربُّون المجتمع، ويهدونه، ويعرِّفونه على واجباته بصور شتَّى. فربَّما شاهدوا من يعمل عملاً منافياً للأخلاق،فيذكِّرونه، ويوقفونه على قبيح عمله، ويأمرونه بألّا يعود لمثله. وربَّما جاءهم من يطلب منهم الموعظة والإرشاد، فكان أئمة الإسلام يستثمرون أمثال هذه الفرص، فيتحدَّثون لهم عن أهم المسائل الأخلاقية، ويلفتون أنظارهم، بصورة غير مباشرة، إلى عيوبهم المعنوية، ويهدونهم إلى طريق الصلاح. إنَّ أحداثاً من هذا القبيل كثيرة في الروايات الإسلامية، منها ما يلي:

قيل لعلي بن الحسين(ع): إنَّ فلاناً ينسبك إلى أنك ضالٌّ مبتدع. فقال له علي بن الحسين(ع): *«ما رعَيْتَ حقَّ مُجالسَةِ الرَّجلِ حيثُ نقلْتَ إلينا حديثَهُ، ولا أدَّيتَ حقِّي حيثُ أبلغْتني عن أخِي ما لسْتُ أعلمُهُ»*[١٩].

---

(١٨) (ن.م).

(١٩) مشكاة الأنوار: ٣٢٣.

عندما يسمع بعض الجهلة أحداً يغتاب صاحباً لهم ينقلون إليه الغيبة بدلاً من أن يدافعوا عنه، ظانين أنهم بهذا يقدِّمون خدمة لصاحبهم من جهة بإطلاعه على ما يقال عنه، ويكشفون له، من جهة أخرى، مقدار ما يكنُّونه له من حبٍّ وصداقة، ولكن الإمام السجاد(ع) اعتبر هذا العمل مثيراً للفتنة ومن العيوب المعنوية والسيِّئات الأخلاقية، فقبَّح فعل النمّام وانتقد عمله من جهتين.

يقول الحسين بن أبي العلاء: كنَّا في نحو عشرين نفراً عزمنا على الحجّ إلى بيت الله الحرام في مصاريف مشتركة. وكنت أذبح لهم شاة في كل منزل ننزل فيه. وفي يوم، ونحن في السفر، زرت الإمام الصادق(ع)، فقال لي: «يا حسيْن، أتُذِلُّ المؤمنينَ؟». قلت: أعوذ بالله من ذلك. فقال(ع): «بلغني أنَّكَ كـنتَ تذبحُ لُهم في كل منزلٍ شاةً». فقلت: يا مولاي، والله ما أردتُ بذلِكَ غيرَ وجهَ اللهِ تعالى: فقال(ع): «أمَا كنتَ ترى أن فيهِمْ منْ يُحِبُّ أنْ يفعلَ مثلَ أفعالِكَ فلا يبلغُ مقدرتَهُ ذلِكَ، فيتقاصَرُ إليه نفسُهُ؟». قلت: يا ابنَ رسولِ اللهِ، أستغفِرُ اللهَ ولا أعودُ[٢٠].

لم يكن الحسين بن العلاء يرى من عمله سوى قَرْي رفاق سفره، دون أن ينتبـه لما في ذلـك من اهـانـة وتحقـير للآخرين، فبيّن له الإمام الصادق(ع) عيبه الأخلاقي، فتنبه الرجل إلى ذلك فوراً، ولم يعد لمثله.

روي أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، مُرْنِي بعملٍ وأقِلَّ. قال: «لَا تَغْضَبْ». ثُمَّ أعادَ عليه، فقال: «لَا تَغْضَبْ»[٢١].

كان الرجل في ثورة داخلية وهياج، حسبما بدا من لهجة كلامه. إذ إن رجلاً يستنصح النبيَّ(ص)، ويقول له: «أقلَّ» وهو في ظروف عادية، كيف يكون حاله إذا غضب. إن رجـلاً كهذا إذا استشاط غضباً وخرج عن المألوف يحتمل أن يرتكب جريمة كبرى، ويثير مصائب لا يمكن تلافيها. لذلك بيّن له معلم الأخلاق الإسلامية

---

(٢٠) لئالي الأخبار: ١١٩.

(٢١) مجموعة ورّام ١: ١٢٢.

أهم ما يمكن أن يقيه مثل هذه الحالة. وإنه لمن اللافت للنظر أن الرسول الأكرم(ص) راعى في الجواب الإقلال، فلم يجب إلّا بجملة واحدة كانت أقصر حتى من السؤال نفسه، فقد تألف السؤال من اثني عشر حرفاً، في حين تألف الجواب من ستة حروف.

عن جرير بن مرازم، قال: قلت لأبي عبدالله الصادق(ع): إنّي أريد العُمرة، فأوصني. فقال: «إتّقِ اللهَ ولاَ تَعْجَلْ». فقلت: أوصني. فلم يزد على هذا[٢٢].

إن العجلة والتسرّع كانا واضحين في أُسلوب تفكيره، فهو في أول منزل من منازل سفره يصادف رجلًا مجهولاً ويسمع منه ما يجب أن يسمع. لكنه بدلاً من أن يناقش الرجل ويصحِّح له خطأه، يقرر منازلته وقتله، ولكنه يلتزم وصية الإمام الصادق(ع) ويُمسك نفسه عن تنفيذ قراره. كان معلم الأخلاق الإسلامية يعرف عيب جرير الخلقي، فاستثمر فرصة طلبه النصح، فأوصاه بعدم التسرّع الذي كان من أهم عيوبه، وبذلك نجّاه من خطر السقوط.

نخلص من ذلك إلى أنَّ أوَّل طريق لمعرفة العيوب الأخلاقية هو الرجوع إلى عالم بصير عارف بالصفات الحسنة والصفات السيئة، وبالآفات الخلقية الخفية. ولكن بالنظر لوجود اختلافات في النظريات الأخلاقية لوجود مدارس أخلاقية مختلفة، فإن على المسلمين أن يرجعوا إلى عالم أخلاق إسلامي، عارف بالفضائل والرذائل وكيفية وزنها بالموازين الدينية، وينظر إلى الحسن والقبيح من منظور أئمة الإسلام.

الطريق الثاني لمعرفة أمراض الفكر والعيوب الخلقية هو الصديق اللائق الصدوق. إن الذين يتّخذون أصدقاءهم من أشخاص متّصفين بالعقل، والبصيرة، والإيمان يمهّدون في الواقع طريق سعادتهم الشاملة.

إن أمثال هؤلاء الأصدقاء الصادقين يكونون عوناً للصديق في شؤون حياته من جهة، ويكونون من جهة أخرى أشبه بالمربِّين الحكماء، فينبِّهون الصديق على

---

(٢٢) بحار الأنوار، المجلسي ٢: ١١٣.

عيوبه الخلقية ونقائصه المعنوية، ويفتحون في وجهه أبواب إعادة صنع نفسه وإزالة نقائصه.

يرى أئمة الإسلام أن خير صديق وأليقه هو ذلك الذي يعلن للصديق عيوبه، وينتقده، ويبيِّن له أخلاقه الذميمة وطباعه السيِّئة.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: *«أَحَبُّ إخواني إلَيَّ مَنْ أهدى إلَيَّ عُيُوبِي»*[٢٣].

هناك من الجهلة من لا يعرفون للنقد قيمة، فإذا كشف لهم صديق، بكل صدقٍ وحبٍّ، عيوبهم، انزعجوا واعتبروا ذلك اهانة لهم وتحقيراً. ولكن الإمام الصادق(ع) يشير في هذا الحديث إلى العيب بكلمة «أهدى»، ذلك لأن تقديم الأصدقاء الهدايا والتحف يعتبر من باب التقديروالاحترام، لا الاهانة والتحقير. وكأن الإمام باستعمال هذه اللفظة أراد أن يبيِّن لأتباعه أنه إذا نبَّههم صديق على عيب من عيوبهم فلا يعتبروا ذلك اهانة لهم، ولا يزعجهم منه ذلك، بل إن التذكير المفيد المثمر هدية ثمينة يقدّمها لكم صديقكم، فتقبّلوا ذلك منه ببشاشة. واستفيدوا منه، ونزِّهوا أنفسكم من ذلك العيب الأخلاقي.

يتفق أحياناً أن التذكير أو الانتقاد من جانب الصديق، في محله ونافذاً بحيث إن المنتَقَدَ ينتفض مندهشاً، فيتنبه، ويبحث عن علاج، فيترك الماضي، ويبادر إلى إصلاح ذاته، وسرعان ما ينجح في ذلك.

كان منصور بن عمّار ماراً قرب بيت قاضي بغداد وكان باب البيت مفتوحاً، فوقف منصور أمام الباب وأخذ ينظر إلى داخل البيت بدقة، فلاحظ أن هذا البيت واسع وضخم ولفت نظر منصور الغرف المفروشة والأواني الفاخرة وتعدد الغلمان والخدّام وتعجب من كل هذه الزخارف والزينة. ثم طلب منصور ماءً للوضوء فملأ أحد الغلمان ابريقاً كبيراً وجاء به إليه. وحينذاك شاهده قاضي بغداد عندما جلس ليتوضأ

---

(٢٣) تحف العقول، الحراني: ٣٦٦.

ويغسل يديه وقدميه، فقال قاضي بغداد: يا منصور لماذا هذا الإسراف في الماء، فأجاب منصور: أيها القاضي أنت تحاسبني في الماء المباح للوضوء ولا تحاسب نفسك عن هذا الإسراف العجيب في البناء. والله يعرف من أين جاءت هذه الأموال فإنّك لم تكتف بمنزل صغير وخادم، لماذا كل هذا الإسراف وتحمل الذنوب على رقبتك.

انتبه قاضي بغداد من كلام منصور، وبعد ذلك اعتدل في صرفه الأموال[٢٤].

في الماضي كان أمثال هؤلاء الأصدقاء قليلين، وهم في الوقت الحاضر أقل من القليل، إذ أن معظم الناس اليوم متخلقون بالأخلاق النفعية، فهم يتصادقون لمصالح نفعية، وينظرون إلى الحسن والسيء من منظور مادي، دون أي التفات إلى الجوانب الروحية والسجايا الإنسانية. لذلك فإن بعض العيوب المعنوية والسيئات الخلقية ليست في نظرهم كذلك بحيث ينبهون أصدقاءهم عليها، وحتى لو لاحظوا عيباً في صديق لهم، فإنهم غالباً ما يلزمون الصمت، ولا ينبهونه عليه، بل يتغافلون عن جود هذا العيب في صديقهم لأسباب خاصة.

فمنهم من يلزم الصمت حسداً، فلا ينبِّهونه عليه لئلّا يصلح خلقه وينال مكانة مرموقة بين الناس ويتقدم عليهم في المجتمع.

ومنهم أنانيُّون يحبُّون الجاه والمركز، فيمتنعون عن تذكيره بعيوبه ولا ينتقدونه، لكيلا يزعجونه ويجرحوا مشاعره حتى لا يفقدوا مكانتهم عنده.

ومنهم من يحملون عيوباً خلقية يعرفونها في أنفسهم، لذلك فهم يخشون إن نبَّهوا الصديق على عيوبه، أن يردَّ هذا بذكر عيوبهم أيضاً. فلكيلا ينتقدهم أحد، يغضُّون الطرف عن عيوب أصدقائهم، فتكون النتيجة أن تبقى العيوب في كلا الطرفين ويستمرون عليها.

يرى أئمة الإسلام أن أسوأ صديق هو ذلك الذي يعرف سوء خلق صديقه ولكن لا ينبّهه عليه من باب المجاملة والمداراة.

---

(٢٤) جوامع الحكايات: ٢٠١.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*شَرُّ إخوانِكَ مَنْ داهنكَ في نفسِكَ وساتَركَ عيْبَكَ*»[٢٥].

إن التزام الصمت الذي لا موجب له، والإغضاء عن عيوب الأصدقاء الخلقية يكون بمثابة القبول بسيّئاتهم الأخلاقية، وهذا فضلاً عن كونه يتنافى ومبادىء الصداقة الصادقة، فإنّه يعتبر ضرباً من العداء وعدم حبِّ الخير للصديق.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*إنَّما سُمِّيَ العَدُوُّ لأنّهُ يعدُو عليكَ، فمَنْ داهنَكَ في معايبِكَ فهو العدُوُّ*»[٢٦].

الطريق الثالث لمعرفة العيوب المعنوية والسيِّئات الخلقية هو العدو والاستفادة مما يقوله عنك، فالعدوّ الذي يريد الانتقام، يسعى دائماً للبحث عن عيب في عدوه ليعلنه على الملأ، ليحطَّ من قدره في المجتمع. وهناك أشخاص فيهم بعض العيوب التي خفيت عن أعينهم وكذلك عن أعين أصدقائهم، ولكن العدوّ المدقّق في النظر والمتفحّص الباحث عن العيوب يكتشفها ويعلنها انتقاماً. وعلى الرغم من أنه يفعل ذلك من باب العداوة والبغضاء، فإنّه يخدم عدوّه من حيث يريد أن يضرّه، بتنبيهه على عيوبه التي خُفيت عليه.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*أعْداءُ الرَّجُلِ قدْ يكونونَ أنْفَعَ مِنْ إخوانِهِ، لأنَّهُمْ يهْدُونَ إليهِ عُيُوبَهُ*»[٢٧].

الجهلاء يستقبلون ما يقوله الأعداء بسوء ظنّ، ويحملونه على أنه من باب الحسد والعداء، فلا يستثمرونه بتعقّل لما ينفعهم. أمّا الواعين البصيرين بالأمور، فإنّهم على الرغم من علمهم بأن العدوّ قد ينطق بما لا ينبغي وبالكثير من المفتريات المخالفة للواقع، بدافع من الإيذاء والانتقام، ولكنهم يدركون أيضاً أنّهم لا يمكن أن

---

(٢٥) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٤٤٦.

(٢٦) فهرست الغرر: ٢٨٧.

(٢٧) نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٢٠: ٢٧١.

يعتبروه دائماً وفي كل مكان متعرضاً ومدفوعاً بدوافع خاصة، إذ ربّما يكون العدوّ قد وقع في تقصّيه وبحثه على حقيقة من الحقائق، أو على عيب ومنقصة خفية، فيكشفها. وعليه، يبادر العقلاء إلى تمحيص أقوال الأعداء ليستفيدوا منها في سموِّهم المعنوي وتكاملهم الروحي.

هناك حديث مروي عن الإمام الصادق(ع) يدور حول حوار يجري بين النبيِّ يحيىٰ(ع)، وإبليس، العدوّ اللدود لبني آدم، فيمعن النبيُّ يحيىٰ(ع) النظر في أقوال إبليس، ويستفيد منها:

قال يحيىٰ: «فهلْ ظفِرتَ بي ساعَةً قطُّ؟» قال: لا، ولكن فيك خصلةٌ تُعْجبُني. قال يحيىٰ: «فمَا هِي؟»، قال: أنت رجلٌ أكولٌ، فإذا أفطرتْ أكلتَ وبَشِمْتَ، فيمنَعُكَ ذلكَ من صلاتِكَ وقيامِكَ باللّيلِ . قال يحيىٰ: «فإني أُعطِي الله بهذا [عهداً] أنّي لا أشبَعُ من الطَّعامِ حتّى ألقاهُ». قال لهُ إبليسُ: وإنّي أُعطي اللهَ عهداً أني لا أنصحُ مسلماً حتى ألقاهُ[٢٨].

الطريق الرابع لمعرفة العيوب الأخلاقية هو الرأي العام.

فعلى المرء أن يختلط بالناس وأن يستمع إلى أحكامهم ويدقّق فيها، فيترك تلك الصفات المذمومة عند الرأي العام ويتبرّأ منها، ويبحث عن تلك الصفات المحمودة عند الرأي العام فيلتزمها ويتمسّك بها.

لقدَ كانت قضية الرأي العام وحكم الناس على صلاح الأشخاص أو فسادهم موضع اهتمام أئمة الإسلام، وقد تكرّرت في الروايات الإسلامية. من ذلك ما ورد عن هذه القضية في عهد الإمام عليّ(ع) إلى مالك الأشتر:

*«ثمّ اعلمْ يا مالِكُ أنّي قدْ وجَّهتُكَ إلى بلادٍ قَدْ جَرَتْ عليها دُوَلٌ قبلكَ مِنْ عَدلٍ وجَورٍ، وأنَّ النَّاسَ ينظُرونَ من أُمورِكَ في مثل ما كنتَ تنظُرُ فيه مِنْ أُمورِ الولاةِ قبلَكَ، ويقولونَ فيكَ ما كنتَ تقولُ فيهِم. وإنَّما يُستدَلُّ على الصَّالحينَ بما يُجرِي اللهُ لهم على*

---

(٢٨) لئالي الأخبار: ٤٧.

*ألسن عِبادِه»*[٢٩].

إن من وسائل بناء الذّات وإصلاح الأخلاق في مناهج التربية الإسلامية هو التعمُّق في أعمال الآخرين والتأمل في سلوكهم، فعن هذا الطريق يستطيع الإنسان أن يميز الجيِّد من الرديء، وأن يتعرَّف على عيوبه ونقائصه، فيعمل على تهذيبها وإصلاحها.

عن الإمام علي(ع)،قال: *«يا كُميلُ، المُؤمنُ مِرْآةُ المُؤمِنِ لأنّهُ يتأمَّلُهُ فيَسُدُّ فاقتهُ ويُجْمِلُ حالتَهُ»*[٣٠].

هنا لا بدَّ من الالتفات إلى هذه النقطة التي وردت في كلام الإمام، وهي أنّه تحدّث عن المؤمنين، باعتبار أنَّ الذين يكونون مرآة تكشف الحسن والقبيح عند بعضهم بعضاً هم أُولئك الذين صيغت أخلاقهم وفق التعاليم القرآنية، ورأسها الإيمان، ويتّبعون التعاليم الإسلامية في سلوكهم.

من المعلوم أن الحكم الذي يصدره رأيٌ عام يتكوَّن أفراده من المؤمنين الذين يطيعون الله، يختلف كثيراً عن أحكام الرأي العام المؤلف من الماديِّين، والنفعيين، والمحبّين لذواتهم، وعبيد الغرائز والشهوات.

فأتباع القرآن يميزون الحق من الباطل من حيث المنظور الإسلامي، ويزنون الحسن والسيىء بموازين الدين، ويقيسون الصفات الحميدة والذميمة بمقاييس التعاليم الإلهيّة.

أمّا أتباع المذاهب المادية فعندهم أنّ الفضائل والرذائل الأخلاقية أُمور نسبية ولا أصالة فيها، فحسن الأشياء وقبحها يتحدَّد عندهم على وفق ظروف الزمان والمكان، ويتبع منافعها ومضارها المادية، والمعيار في الجيد والرديء هو قبول الناس له أو رفضهم.

---

(٢٩) نهج البلاغة، الرسالة: ٥٣.

(٣٠) تحف العقول، الحراني: ١٧٣

«تكون للعادات والرسوم الاجتماعية استناداً إلى أقوال (سمنر) القدرة على إظهار كل خطأ صواباً، وإنَّ ما كان يوماً ما مرغوباً فيه قد يكون في يوم آخر مرغوباً عنه. وكذلك ما يبدو صواباً في مجتمع ما، قد يكون خطأً في مجتمع آخر. ويكفي لإدراك هذه الحقّيقة أن تقارن ملابس السباحة في هذه الأيام والتي لا تستر سوى القليل من الجسم، بمثيلاتها التي كانت سائدة قبل بضع سنوات، والتي كانت تستر جانباً كبيراً من جسم المرأة أو الرجل عن الأنظار. نستدل من ذلك على أن جميع المبادىء والفضائل الأخلاقية عندنا ترتبط كل الارتباط بمقتضيات الزمان والمكان، وأنه ليس هناك معيار عالمي مطلق لتعيين القيم والأصول الأخلاقية»(٣١).

سبق في الفصل الثالث القول بأن الأخلاق في المدرسة الإسلامية هي مجموع: القول، والنيّة، والعمل. فذو الأخلاق، في نظر هذه المدرسة، هو ذلك الذي يكون أخلاقياً باطناً وظاهراً، يفكر وفق الأخلاق، وينطق ضمن موازين الأخلاق، ويلتزم الأخلاق في كل أفعاله وسلوكه.

هناك بعض من أصحاب علم الأخلاق فصلوا النيّة، كعمل باطني، عن العمل كفعالية خارجية، فشكّلوا فئتين متمايزتين، وعرضوا في الأخلاق نظرتين مختلفتين:

فئة تقول: إن الأخلاق أمور نظرية، ولم تعتبر العمل الخارجي من أركان الأخلاق.

وفئة تقول العكس، فترى الأخلاق من مقولة العمل، وتقول: إن للنوايا الحسنة والنوايا السيّئة قيماً أخلاقية.

أما الذين يحصرون الأخلاق في الزاوية النظرية فقط، فيرون أن الإنسان الاخلاقي هو ذلك الذي يكون تفكيره أخلاقياً، أمّا أقواله وأفعاله فلا شأن لها في أخلاقيته. أو يقولون، بتعبير آخر: إن من تربّى في ضميره طلب الكمال الأخلاقي، وكانت نواياه

---

(٣١) علم الاجتماع، صامونيل كينك: ٩٠.

أخلاقية، ثم تكون أعمال سيِّئة على خلاف نيّته وفكره، فإن ذلك لا يصيب أخلاقيته بضرر.

«يقول (جون ديوي): يستند أصحاب مذهب الأخلاق النظرية في رأيهم على ما يلي: لنفرض أن التجربة قد أثبتت ما هو صحيح وما هو غير صحيح. ولكن ما الدليل على أن التزام الصحة أمر مطلوب؟ ثم ما فائدة وجود مبدأ أخلاقي أصلاً؟ ويقول معارضوهم: إن السلوك الفلاني أعقل، ولكن ما الداعي أصلًا لأن يكون سلوكنا أعقل أو أفضل؟ لماذا لا نسلك فوراً السلوك الذي تريده أهواؤنا؟ وعلى الرغم من أن أكثر الناس لا يلتزمون الحقّ، وكثير منهم يهملونه كلياً، ما الذي يدعو إلى إلزام الناس جميعاً بالتزامه؟ ثم فضلًا عن ذلك، ما قيمة مبدأ تدوسه الأقدام في العمل دائماً؟ ماذا يحدث لو أننا كنّا أحراراً تماماً في اتّخاذ قرارنا وفي أعمالنا وأقوالنا»[٣٢].

يتبيّن من هذه الأقوال بكل وضوح أن أصحاب مذهب الأخلاق النظرية لا يرون ضرورة، عند العمل، لرعاية الصدق والصحة ويقولون: لماذا يجب أن نلزم أنفسنا باتّباع الحقّ والحقّيقة؟ لماذا لا نسلك حسب رغباتنا فوراً؟ لماذا لا نكون أحراراً في اتّخاذ قرارنا؟

أمّا الذين يرون الأخلاق أمراً بالعمل الأخلاقي فقط، فإنهم لا يرون أهمية للنشاط الداخلي والتفكير الأخلاقي، بل المهم والملحوظ هو النشاط والعمل الخارجي. يعتقد هؤلاء أن الأخلاق ليست سوى السلوك الاجتماعي، وأن من يكيِّف سلوكه كما يريد المجتمع، ويرعى حقوق الآخرين عملياً، ويختلط بالناس في حسن انسجام، يكون شخصاً أخلاقياً، حتى لو لم يكن من حيث تفكيره أخلاقياً. ويقول هؤلاء في الردّ على أصحاب الأخلاق النظرية:

«لو كان الإنسان يعيش وحده في العالم لكان من المعقول أن يُطرح هذا

(٣٢) طبع الإنسان وخلقه: ٢٨٩.

السؤال: ما الـداعي للتمسّك بالمبادىء الأخلاقية؟ بل لعلّ قضية الأخلاق ككـل ما كانت لتُطرح أصلًا. ولكننا نعيش في دنيا يعيش فيها معنا أُناس كثيرون، يؤثر فيهم سلوكنا، فتصدر عنه ردود الأفعال الفورية إزاء أعمالنا. ذلك لأنهم أحياءٌ ولهم توقعاتهم منا، وهم لا يفكرون بأنفسهم فقط، بل يقومون عملياً باستحسان أعمالنا أو تصحيحها. وعليه يمكن أن نسأل هؤلاء الذين يسألون: ما ضرورة الأخلاق؟ السؤال التالي: لماذا يجب أن لا تضعوا أيديكم في النار؟ لأنكم إذا وضعتم أيديكم في النار فسوف تحترق. فالجواب عن سؤال: لماذا يجب أن نرعى الحقّ؟ لا يختلف عن ذاك، فالحقّ، في الحقّيقة، إسم مبهم لآلاف الأمـور التي ينتـظرها الآخرون منّا ونضطر إلى رعايتها لكي نديم حياتنا. فقدرة نفوذ الحقّ ليست في الواقع، سوى إصرار الناس، وتوقعاتهم، وطلباتهم، وبعبارة أخرى، الحقّ هو مجموع الضغوط الاجتماعية التي تتوالى علينا لكي نحدد أفكارنا وإرادتنا بحدود خاصة»[٣٣].

يتّضـح من هذا الكلام أن أصحاب مذهب الأخلاق العملية يوجِّهون كل اهتمامهم إلى محاسن الأخلاق كوسيلة لتنظيم العلاقات الاجتماعية، دون أن يأبهـوا بمكارم الأخـلاق التي هي سبب السمـوّ المعنوي وميزان القيم الإنسانية. وبعبارة أخرى، أتباع هذا المذهب ينظرون إلى الأصول الأخلاقية من منظور الحياة المادية، وما رعايتهم لها إلّا لأن أعضاء المجتمع يتوقّعون منهم ذلك. أمّا الأخلاق الكريمة، التي تتطلّبها التوجُّهات الإنسانية الرفيعة، والتي توصل المتخلّق بها إلى تكامل الروح وشرف النفس، فلم يولوها أيَّ اهتمام. وبناءً على ذلك أخطأوا في فهم معنى «الحقّ» وحصروه في إطار تنفيذ ما يريده الناس، وبحجّة تحقيق ما ينتظره المجتمع منهم.

أمّـا الـذي يتبع المدرسة الإسلامية فلا يستطيع التوسّل بالرأي العام وفق أصحاب مذهب الأخلاق النظرية للتعرُّف على عيوبه المعنوية، ذلك لأنَّ هؤلاء لا

---

(٣٣) (ن.م): ٢٩٠.

يرون حسن الخلق إلّا في الفكر والنوايا الطيِّبة فقط، ولا يهتمون بصحَّة العمل وصدقه، ولا يرون أيَّ تضاد بين الأعمال القبيحة وحسن الأخلاق.

كذلك لا يستطيع أن يتوسّل بالرأي العام الذي يقول به أصحاب مذهب الأخلاق العملية، لأن هؤلاء يعتبرون الأعمال وحدها ميزان الأخلاق الحسنة، دون أن يقيموا وزناً لسلامة الفكر وطهارة النيّة، ثم إن العمل الحقّ والسلوك الحسن عند هؤلاء يقررها رغبات المجتمع، من دون أن يُعنوا بالسجايا الإنسانية ومكارم الأخلاق التي هي أرفع مكانة من توقعات المجتمع، فهم لا يشيرون بشيء إلى الفضائل النفسية، والكمال الروحي، والسموّ المعنوي.

إن الدين الإسلامي يربط بين الداخل والخارج في مضمار تربية الأخلاق الحميدة وضمان سعادة الإنسان، ويرى حسن الخلق نتيجةً للجمع بين النيَّة الطاهرة وصحَّة العمل. كما إن أئمة الاسلام، بالإضافة إلى عنايتهم بالحقوق الاجتماعية، قد تحدثوا عن السموِّ الفردي أيضاً، وعُنوا به عناية كبرى. فمن جهة حثُّوا الناس على الشعور بالمسؤولية واحترام حقوق الآخرين، من أجل تنظيم العلاقات العامة وإدارة شؤون المجتمع، ومن جهة أخرى شجَّعوا كل مسلم على التحلِّي بمكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية من أجل البلوغ بالنفس إلى كمالها وسموها.

فلكي يشخّص المسلمون عيوبهم المعنوية ويتعرّفوا على نقائصهم الأخلاقية، لا بدَّ لهم من الرجوع إلى آراء أشخاص تربَّوا في أحضان الإسلام، وآمنوا بالله، واعتقدوا بالتعاليم الإلهيّة، وطبَّقوا مناهج القرآن الكريم عملياً، فهؤلاء هم الذين ينظرون إلى الحسن والسيِّىء من منظور إسلامي، ويزنون ما ينبغي وما لا ينبغي بالموازين الدينية، ويميِّزون الحقّ من الباطل في نظرة واقعية. هؤلاء هم الذين وصفهم الإمام علي(ع) بأنهم مرآة بعض لبعض، بحيث إن كل واحد منهم يستطيع أن يعرف نفسه بالتعمّق والتدقيق في أقوال الآخر وأعماله، فيشخّص عيوبه الباطنية، ويُعِدُّ العُدَّةَ لإصلاح ذاته.

ولكن الذي يؤسف له اليوم هو أن الكثير من المسلمين في العالم واقعون، قليلاً

أو كثيراً، في سلوكهم الأخلاقي تحت تأثير عالمنا المصلحي والنفعي، تاركين مسيرة الحقّ والفضيلة، وأن بعضاً منهم على قدر من ضعف النفس والرغبة في الحصول على المنافع واللذائذ بحيث إنهم أضاعوا أنفسهم أمام الأخلاق المادية، وانجرفوا في السلوك السيِّىء والأعمال اللاّ أخلاقية، حتى أن تصوُّرهم عن صفات الحسن والسيِّىء قد تغيَّر. فبعض الصفات التي يعتبرها الإسلام ذميمة أصبح هؤلاء يرونها حميدة، وبعض ما يراه الإسلام حميدة يراه هؤلاء ذميمة. من الواضح أنه فضلاً عن أن هؤلاء ليس لهم رأي عام ذو قيمة معنوية أو تربوية، فإنهم يضلِّلون الذين يريدون تشخيص عيوبهم الأخلاقية والتعرُّف على نقائصهم الباطنية.

لقد تنبأ قائد الإسلام قبل أربعة عشر قرناً بمجيء مثل هذا اليوم الأسْود، ففي معرض حديثه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أسف على حال المسلمين يوم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، «فقيل: يا رسولَ الله، وَيكُونُ ذلِكَ؟ قال: نعَمْ، وشَرٌّ مِنْ ذلِكَ. كيفَ بِكُمْ إذا رأيتُمُ المعْروفَ منكرَاً والمنْكَرَ مَعْرُوفاً؟»[٣٤].

---

(٣٤) مشكاة الأنوار: ٤٩.

# الفصل السادس

*﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾*

*القرآن الكريم*

## الوقاية والعلاج

الوقاية والعلاج طريقان لمكافحة أمراض الجسم. فالوقاية تحول دون إصابة النـاس بالمرض، والعلاج يشفي المرضى مما بهم. الوقاية تحافظ على سلامة الجسم الطبيعية، والعلاج يعيد إلى المريض سلامته الضائعة. من الواضح، إذن، أن الوقاية خير من العـلاج، لأن المحـافظة على السلامة الطبيعية أثمن بمراتب من إعادتها بالوسائل العلاجية.

في الدول المتقدمة تنفذ برامج صحيّة واسعة، ويوضع الفرد منذ طفولته الأولى حتى نهاية عمره تحت الإشراف الصحّي اللّازم وعلى أثر التقيّد بالتعليمات الوقائية لا يُصـاب الفـرد طوال حياته ببعض الأمراض، إذ إن الأطباء المختصّين والخبراء الصحيِّين يستعملون أنواعاً من الأمصال التي تمنح الكبار والصغار المناعة ضد بعض الأمـراض، مثل داء الكِزاز، والخنّاق، والسُّعال الديكي، وشلل الأطفال، والجدري، والهيضة، وغيرها، فتحول دون إصابتهم بها. وبقيام المؤسسات الصحية بالإشراف على سلامـة الغذاء وتعقيمها وتعقيم المحلات العامة وغير ذلك يحول دون ظهور بعض الأمـراض وانتشـارهـا، وبـذلك تتم المحافظة على سلامة الناس الصحيّة. ويقوم

المختصون بحجر المرضى المصابين بالأمراض المُعدية وفصلهم عن عامة الناس لئلّا يصاب هؤلاء بالمرض وتتعرَّض سلامتهم للخطر.

وباختصار، عالمنا المعاصر يكافح الأمراض عن طريق الوقاية بقدر الإمكانات المتوفرة، فإذا ما أُصيب فردٌ أو أفراد بالمرض بدأ العلاج الطبي مباشرة، ويسعى الأطباء جاهدين في علاج المرضى باستعمال مختلف العقاقير الطبيّة كي يعيدوا للمريض سلامته.

وللأمراض الأخلاقية يجب أيضاً وضع خطة للوقاية والعلاج وتنفيذها لمكافحة العيوب المعنوية والأخلاق الفاسدة عن طريق الوقاية والعلاج، كي يعيش المجتمع بسلامة فكر وطهارة أخلاق، ولوقايته من الأمراض المعنوية والسيِّئات الأخلاقية التي هي أخطر من الأمراض الجسمية.

«يقول (كارل): الذَّكاء، والإرادة، والأخلاق، أُمور متقاربة، ولكنَّ مقام الأخلاق أرفع من مقام الذكاء بكثير، وإذا ما فقدت أُمَّة أخلاقها فاقرأ على تنظيماتها الاجتماعية السّلام»[1].

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

خطة الوقاية من الأمراض الأخلاقية، كما هي الحال في الصحة الجسمية، يجب أن تُوضع قيد التنفيذ منذ مرحلة الرضاعة وتستمر حتى نهاية العمر، والأبوان هما المسؤولان عن تنفيذ هذه الخطة. فهما المكلَّفان بالعناية بأطفالهما من حيث صحتهم الجسمية والنفسية، ومثلما يقيانهم من الأمراض الجسمية، عليهما أن يمنعا اكتسابهم العادات السيئة والمضرَّة التي تؤدي كل واحدة منها إلى إيجاد عيب من العيوب الأخلاقية، فيعوِّدانهم على العادات الحسنة، ويربِّيانهم وفق المبادىء الأخلاقية، وبذلك يؤهلانهم لإيجاد الوقاية فيهم ضد السيِّئات الأخلاقية.

«يقول (ر سل): إن السرعة التي يتعلَّم فيها الرضيع العادات تثير الدهشة.

---

(١) الإنسان ذلك المجهول: ١٢٤.

إن اكتساب العادات السيئة في الطفولة المبكرة يخلق سدّاً أمام اكتساب العادات الحسنة. لذلك يعتبر تكوين العادات في أوائل الطفولة أمراً مهمّاً جداً، فإذا كانت العادات الأوّلية حسنة أمكن فيما بعد تجنّب إغراءاتٍ لا نهاية لها. ثم إن العادات المكتسبة في مقتبل العمر تبقى ثابتة خلال المراحل التالية من عمر الإنسان، وتصبح، كالغرائز، مؤثرة ومهيمنة، ولا تبلغها قوةً وتأثيراً تلك العادات السيّئة التي يكتسبها الشخص بعد ذلك. لذلك، لا بدَّ من إبداء الاهتمام البالغ بالعادات الأولية المبكرة»[٢].

العادات الحسنة أو السيِّئة تكون بمثابة طبيعة ثانية في الإنسان. كل فرد يكون تحت تأثير عاداته دون وعي منه، فيتكلم ويعمل بموجبها، وهي الحاكمة على أفعال الناس وأقوالهم، وتشبه الغرائز والميول الطبيعية في دفع الإنسان إلى الطريق الذي تريد.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«لسانُكَ يسْتَدْعِكَ ما عوَّدْتَهُ، ونفسُكَ تقْتَضِيكَ ما ألِفْتَهُ»*[٣].

والغرائز ـ وهي مخزن الطاقة ومنشأ التحرك في الإنسان ـ تتيقَّظ بالتدريج في الطفل، وتبدأ نشاطها. كل غريزة من الغرائز لها في نظام الخليقة الحكيم هدف خُلقت من أجله، ولا بدّ لها من أن تمضي في طريقها نحو الهدف بكل جدارة. إن الإفراط في استعمال الغرائز، أو كبتها، أو إهمالها يخلقُ أعراضاً غير مرغوب فيها.

## الوقاية الأخلاقية للأطفال

خطة وقاية الأطفال من الأمراض الأخلاقية والتي يمكن أن يطبّقها الوالدان تتخلص في أن يباشرا منذ البداية بتوجيه غرائزهم توجيهاً سليماً، وأن يقوداها بقدَر في

---

(٢) في التربية: ٥٨.

(٣) فهرست الغرر: ٢٨٤.

المسيرة الصحيحة، وأن لا يلجئنا في إشباع رغباتهم إلى الاستعجال ولا إلى التباطؤ، لكي يصـان الأطفال من التطبُّع على الأخلاق السيئة، ويتربَّوا على سلامة الفكر وطهارة الضمير. وسوف نوضح ذلك بالإشارة إلى بعض الغرائز.

## غريزة حبّ الذّات

غريزة حب الذّات من الغرائز التي تتفتّح في مرحلة الطفولة وتسعى لإشباع ذاتها. هذه الغريزة القوية واحدة من قواعد تكوين شخصية الطفل، لذلك فإن لكيفية إشباعها تأثيراً أساساً في تعيين الحسن والسيِّيء من الأخلاق.

فإذا كان الأبوان يدركان واجبهما التربوي، ويسعيان إلى إشباع غريزة حب الذّات بالقدر الصحيح، من دون إفراط ولا تفريط، فإن أطفالهما سوف يتربَّون على الأخلاق السليمة، بعيداً عن العيوب المعنوية والصفات المذمومة التي تنشأ عن انعدام التوازن في هذه الغريزة.

ولكن بسلوك الوالدين والمربِّين سلوكاً فظاً يتَّسم بحدّة الطّبع، يدوسان على هذه الغريزة في الطفل ظلمًا، ويقمعانها بالاهانة والتوبيخ، فيتسببان في خلق عقدة الشعور بالحقارة في باطن الطفل، فتقضي هذه الحالة النفسية على هدوء باله واعتماده على النفس، وتسدّ في وجهه الطريق إلى السعادة، وتعرّضه في حياته لمختلف الأمراض الأخلاقية.

وإذا ما تعامل الوالدان مع غريزة حبِّ الذّات في الطفل بعطف يتجاوز الحدّ، لحبهما المفرط له، وأفرطا في تدليله وإشباع طلبات هذه الغريزة، شبَّ الطفل راضياً عن نفسه، مدلَّلًا، كثير الطلبات، مشاكساً. إن هذه الصفة القبيحة تحرم الطفل من سلامة التفكير، وتجرُّه إلى فساد الأخلاق، ويكون لها تأثير سَيِّءٌ في أقواله وأفعاله. فإذا لم يعالج مرضه هذا يُصبح منبوذاً في المجتمع، ويبقى مبتلياً بالرذائل والسيِّئات الأخلاقية طوال عمره.

## غريزة التملّك

غريزة التملك أيضاً من الغرائز التي تنمو في مرحلة الطفولة. الطفل يريد أن يستحوذ على كل شيء تقع يده عليه، ويراه ملكه ومختصاً به. فعلى الوالدين أن يوجها هذه الغريزة الوجهة السليمة وبقدر معلوم، لأن الإفراط والتفريط في إشباع غريزة التملك عند الطفل تجعله سارقاً، معتدياً، وخائناً، وتدفعه إلى فساد الأخلاق والسلوك.

«تبكِّر غريزة حبِّ التملك في الطفل في الاستيقاظ فتثير فيه حبَّ الاستحواذ، وتتمكن منه ببلوغه نحو الثانية من عمره. لذلك إذا أخذ طفل شيئاً، وهو في أقل من هذه السن، فليس لنا أن نوبخه.

غريزة حب التملك يجب أن تكون تحت رقابة الأبوين المدركَين لخطورة المسؤولية الملقاة عليهما، رقابة دقيقة. ولا بدّ من أن يكون النمو الطبيعي لهذه الغريزة منسجمًا مع التعاليم الأخلاقية والتوجيهات الدينية، فلو انحرفت هذه الرغبة عن الطريق الصحيح لتعلَّم الطفل السرقة دون أن يعرف، وهو في هذه السن، شيئاً عن حقوقه وحقوق الآخرين. ولكن إحساس الطفل بأنه كلما ازداد احتراماً لممتلكات الآخرين، ازداد الآخرون احتراماً لممتلكاته، يقوِّي من تمسُّكه باحترام ما للآخرين.

أي يجب حمله على إدراك أننا جميعاً نتَّبع (عقداً اجتماعياً) واحداً، وأن هذا العقد، الذي يضمن مصالح كل فرد، يريد منّا أن نتقيَّد نحن أيضاً بدورنا باحترام ما للآخرين من حقوق»[٤].

## غريزة العدوان والهدم

إن من الغرائز الأخرى التي تبرز في الطفولة وتعتبر دافعاً من دوافع نشاطه هي غريزة الهدم والعدوان. فبدافع من هذه الغريزة يقوم الطفل بالاعتداء على

---

(٤) سلسلة ماذا أعلم؟ نحن واطفالنا: ٧٠.

الأطفـال الأضعف منـه قوة، فيضـربهم، ويجـرُّهم من شعورهم، ويؤذي الحيوانات الضعيفـة، ويقتل النمل، ويهدّم أعشاش الطيور، ويكسّر أغصان الأشجار، ويقتلع الأزهار، ويشعر باللذَّة والسرور في أعماله العدوانية هذه. ولكن بالتربية الصحيحة يمكن تعديل هذه الغريزة ووضعها على طريق الإفادة السليمة المثمرة، وتمنع الطفل من الهدم والتخريب .إيذاء الآخرين.

«إن أحد أهم أهداف التربية والتعليم خلال السنوات الأربع أو الخمس الأولى من حياة الـطفل هو الاهتمام التام بطبيعة المشاكسة والاعتداء فيه، والسعي الجاد لتغيير أُسلوب هذه الميول ودوافعها.

إن الـرغبة في إيذاء الآخرين وحب الهدم والتخريب من الميول القابلة للإصـلاح والتغيير، إذ من الممكن تحديدها وطردها من فكر الطفل بالأمر والنهي، بحيث إن الطفل يفقد رغبته في ارتكاب تلك الأعمال مرة أُخرى. ومع ذلك، يبقى احتمال ظهور هذه الميول ثانية من منطقة اللّا وعي.

إذا كانت الـــتربية والتعليم يجريان بأسلوب معقـول، فإن هذه الميول والرغبات ودوافعها الهدامة تنحرف عن مجراها المضرّ، لتتحوّل إلى قوى قادرة على مصـارعـة مشكـلات العالم الخارجي، والقيام بمختلف الأعمال النافعة وتقويم القوى الذاتية، وعمل (الحسن) بدلاً من (السيِّئ)»[٥].

تبقى غريزة الهدم والعدوان يقظة وفعالة منذ الطفولة حتى نهاية العمر، وهي تريد الإشباع دائمًا. فإذا كانت مطلقة الزمام وعنيدة، ولا تحدّدها الحدود والقيود، مالت إلى طريق الانحراف، وأصبحت سبباً للفساد والهلاك، وقد تؤدي إلى حوادث مدمِّرة لا يمكن جبرها. وعلى العكس، إذا وضعت منذ البداية تحت المراقبة الدقيقة وهديت إلى الـطريق الصحيح، أمكن، من جهة، الوقاية من السيِّئات الأخلاقية والعيوب المعنوية الناشئة منها، وأمكن، من جهة أُخرى، الاستفادة من طاقتها للتغلـــب علـى

---

(٥) إعجاز التحليل النفسي: ١٣.

المشكـلات، وإزالة العوائق من طريق الحياة، وإيجاد تغييرات مثمرة نافعة، وتوفير أسباب الرفاه للشخص وللمجتمع باستثمارها على الوجه الصحيح.

«من بين جميع الـوسـائل الموجودة التي تساعد على تحويل قوى الهدم والعدوان إلى طريق الخير والإفادة يأتي (العمل) على رأس القائمة. إنَّ للعمل علاقة وثيقة وواضحة بغريزة الهدم والعدوان. فالفلّاح يحرث الأرض، ويقلّبها، ويساويها، ويقتلع الأعشاب ويُحرقها، ويرشُّ السموم عليها، ويعمل فكره في إيجاد السبل المختلفة للتغلب على السيول، أو الجفاف. هذه كلها أعمال هدّامة ومخرِّبة، ولكنها ذات هدف صحيح. فخلال العمل تتوجه قوى الهدم والعدوان الضارَّة للوصول إلى حاصل (مرغوب فيه) بدلًا من عمل (غير مرغوب فيه). ثم بعد ذلك لا بدَّ من القيام ببذل الجهد المضني لحصد هذا الحاصل، وبذل جهد آخر لخزنه ونقله إلى أماكن قريبة وبعيدة، ثم لا بدَّ من بذل مزيد من الجهد المخـرِّب لإعـداد ذلـك الحـاصل للطعام أو للِّباس. إنَّ بناء المخازن لخزن المحصولات الزراعية يستلزم قطع الأشجار، أو تفجير الصخور، لتشييد البناء. كذلك هي الحال في صنع أدوات خياطة الملابس، وحتى في صنع النقود وجمعها بصفتها تدل على القيمة. هذه كلها أعمال تستوجب استخدام قوة الهدم والعدوان»[٦].

## غرائز أخرى

هنالك غرائز أخرى، مثل غرائز اللَّعب، والانتقام، والاستعلاء، تبرز في الطفل في وقت مبكر. وكل واحدة منها تحمل الطفل على الحركة والنشاط لإشباع ذاتها. غير أن سعادة الفرد ومصلحة المجتمع تتطلَّبان قيام التربية والتعليم بتعديل هذه الغرائز، وهدايتها إلى الطريق الصحيح، لأن تركها طليقة حرَّة من كل قيد يؤدِّي إلى نتائج

---

(٦) (ن.م): ١٥٦.

كبيرة الضرر.

الـدين الإسـلامي المقـدَّس عهد إلى الوالدين بمهمة تربية أطفالها تربية أخلاقية، وكلَّفهما بمراقبة أولادهما منذ الطفولة، لوقايتهم، بحسن التربية، من فساد الأخلاق، وبتوجيه غرائزهم وميولهم توجيهاً صحيحاً، وتربيتهم على الخصال الحميدة والعادات المقبولة، وبذلك يقيانهم من الانحراف نحو السيِّئات الأخلاقية.

عن علي بن الحسين(ع)، قال: «*وأمَّا حقُّ ولدِكَ فأنْ تعلَمَ أنَّه منك ومضافٌ إليكَ في عاجلِ الدُّنيَا بخيره وشرِّهِ، وأنَّكَ مسؤولٌ عمَّا ولَّيتَهُ*»[٧].

إن قضية تربية الأَطفـال ووقايتهم من الفساد الأخلاقي من جملة القضايا الإسلامية المهمة، وقد تم بحثها بإسهاب في الفصلين الأول والثاني من كتاب «الطفل بين الـوراثة والتربية». حيث أُشير في كلِّ من الفصلين المذكورين إلى الأحاديث الواردة عن أئمة المسلمين بهذا الشأن[*].

لا بدَّ من الإشارة إلى أن اهتمام الوالدين بحسن تربية أطفالهم ووقايتهم من السيِّئات الأخلاقية لا يعني القضاء على رغبات الأطفال الضارَّة ووقايتهم وقاية تامَّة طوال حياتهم، وإنَّـما يعني أن التربية الصحيحة قادرة، إلى حدٍّ ما، على كبح جماح الغرائز المشاكسة بحيث تختفي رغباتها الضارة وتكمن في اللّا وعي. فإذا بقيت مناهج التربية ثابتة ومستمرة، بقي المرض الأخلاقي مختفياً في مكمنه، وبقي الإنسان متمتّعاً بسـلامـة الفكـر وحسن الخلق. أمّا إذا برزت ظروف أربكت أُسس تلك المناهج التربوية وزعزعتها، وحطَّمت الحدود الأخلاقية، فإنّ الغرائز الجامحة تجد في ذلك فرصة مواتية لترفع رؤوسها مرة أخرى وتباشر أعمالها الهدّامة بعد الانتقال من اللّا وعي إلى الوعي، وتدفع الإنسان إلى القيام بأعمال قبيحة ولا أخلاقية. وعليه، فإنَّ الذين وُهبُوا أبوين يتحمّلان المسؤولية ويعرفان واجبهما في التربية والتعليم، ونالوا منهما في طفولتهم تربية صحيحـة، عليهم في شبـابهم وكهولتهم الاستمرار في مراقبة أخلاقهم واتِّقاء

---

(٧) مكارم الأخلاق، الطبرسي: ٢٣٢.

(*) للمؤلف، وقد تُرجم إلى العربية.

عوامل الفساد، ومواصلة برنامج الوقاية بما يناسب أعمارهم وظروف حياتهم، لكي يتمكّنوا من الاحتفاظ بطهارة قلوبهم وسلامة أخلاقهم، فيقضوا سنوات حياتهم متمتّعين بالخلق الإنساني الكريم.

لكي يحافظ الإنسان السليم على صحته الجسمية عليه أن لا يدخل محيطاً ملوثاً موبوءاً، ولا يختلط بذوي الأمراض المُعدية، وبذلك يقي نفسه من الإصابة بتلك الأمراض. كذلك ينبغي أن يكون ذوو الأخلاق الفاضلة، فلكي يقوا أنفسهم الأمراض الأخلاقية، عليهم أن يواصلوا التزامهم مبادىء الصحة الأخلاقية، فيتجنّبوا مجالسة مرضى الأخلاق، ومصادقة المجرمين، وحضور المجالس الضارّة، ومطالعة الكتب المفسدة، ومشاهدة المناظر المضلّلة، وغير ذلك من عوامل الفساد، وبذلك يضمنون سلامتهم المعنوية من خطر الانحراف. وهذا بذاته من جملة المناهج الأساس في الأخلاق الإسلامية التي أشار إليها أئمة الإسلام في أحاديث كثيرة.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*إيّاكَ ومُصاحبَةَ الفُسّاقِ فإنّ الشّرَّ بالشّرِّ مُلحَقٌ*»[٨].

وعنه(ع)، قال: «*صُحْبَةُ الأشرَارِ تُكسِبُ الشَرَّ، كالرِّيحِ إذا مرَّتْ بالنّتنِ حمَلَتْ نتْناً*»[٩].

عن أبي جعفر الباقر(ع)، قال: «*مَنْ خالطَ الأنذَالَ حَقُرَ*»[١٠].

وعن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*..إيّاكُم ومُجالسةَ أبناءِ الدُّنيا، ففي ذلكَ ذَهابُ دينِكُم، ويُعقِبُكُم نِفاقاً وذلكَ داءٌ ردَىً لا شِفاءَ لَهُ*»[١١].

(٨) نهج البلاغة، الرسالة: ٦٩.

(٩) فهرست الغرر: ١٩٦.

(١٠) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٦٤.

(١١) (ن.م).

## خلاصة البحث

نخلص مما مر من البحث إلى أنَّ تنفيذ التعليمات الصحِّية هو الطريق الأول لمكافحة الأمراض المادية والمعنوية.وكما أن الوقاية من الأمراض البدنية تبدأ منذ مرحلة الرضاعة، كذلك الحال في الوقاية من الأمراض الأخلاقية، فهذه أيضاً يجب الوقاية منها منذ الطفولة. وكما أن استمرار إتباع التعليمات الصحيّة لازم للمحافظة على سلامة الجسم، والاستمرار في تنفيذ مناهج الوقاية على امتداد عمر الإنسان، كذلك لا بدَّ من المثابرة على اتِّباع مبادىء الصحة النفسية والتعاليم الوقائية طول العمر من أجل الحفاظ على سلامة الفكر والوقاية من الأمراض الأخلاقية الظاهرة والخفية، فبهذا يستطيع الإنسان أن يتمتّع بسلامة الجسم وطهارة الفكر، وقلّما يتعرَّض للأعراض الضارَّة والأمراض الجسمية والنفسية.

الطريق الثاني لمكافحة الأمراض المادية والمعنوية هو إجراء البرامج العلاجية. فمن يصاب بمرض جسمي أو انحراف أخلاقي بسبب عدم التزامه بالتعليمات الصحية أو لعوامل أخرى، ويريد أن يستعيد صحته، لا بدَّ له من اتِّباع طرق العلاج للتخلُّص مما أَلَم به من مرض. إلاّ أنَّ هناك، في عالمنا هذا، عدة اختلافات بين الأمراض الجسمية والأمراض الأخلاقية من حيث ظروف طرق العلاج، نشير هنا إلى اختلافين اثنين منها.

الأول: كل امرىء يولي اهتماماً كبيراً وجادّاً لصحته الجسمية، وينتابه القلق من الأمراض البدنية التي تسبِّب الإخفاق المادي وتعوق الاستمتاع بلذائذ الحياة، لذلك إذا ما أُصيب بعارضة ما تراه يُسرع إلى الطبيب والدواء ليعجّل بشفائه مما أَلَم به. ولكنَّ أغلب الناس يُظهرون اللاّ أُباليّة بالسلامة الفكرية لأنهم لا يرون في الأمراض الأخلاقية خطراً كبيراً، بل إن بعضهم لا يرى الفساد الأخلاقي مرضاً أصلًا حتى يفكّر في علاجه ويبحث عن دواء له.

الثاني: تنشأ الأمراض الجسدية من عناصر مادية وعوامل طبيعية، بينما تنشأ الأمراض الأخلاقية من عوامل وحالات نفسية. إنَّ التقدّم الذي توصَّل إليه الإنسان

في الفـروع الطبية، وصناعة الدواء، واختراع الأجهزة الطبية والمختبريَّة، وقد مهَّد الطريق لتشخيص الأمراض الجسمية وطرق معالجتها بحيث إنها تستجيب لكثير من حاجات الإنسان الصحية، حتى أن المتخصِّصين من العلماء قد تمكَّنوا من اجتثاث جذور بعض الأمراض من الأرض بما توفَّر لديهم من الوسائل والآلات، وتحد من انتشار بعض الأمراض، وتوفر العلاج لكثير من الأمراض الأخرى. ولكن فيما يتعلق بالأمراض المعنوية والأخلاقية وطرق علاجها، لم يتقدَّم الإنسان تقدُّماً كبيراً فيها ولا هو قد توصَّل إلى معلومات عميقة وواسعة بشأنها.

## جهل الإنسان بالنفس

«يقول الدكتور (كارل): يجب البحث عن مفتاح الأمراض النفسية في علم النفس، مثلما يجب فهم الأمراض الجسمية عن طريق علم وظائف الأعضاء. إلّا أنَّ علم وظـائف الأعضـاء علم مستقل وقائم بذاته، وليس كذلك علم النفس، فهو ما يزال ينتظر علماء مثل (كلود برنار) و(باستور) فيما هو يمر بمرحلة أولية كالمرحلة التي مرَّ بها الطب عندما كانت العمليات الجراحية يقوم بها الحلّاقون، أو كالكيمياء قبل (لافوازييه) أي إنه باقٍ في عصر الكيمائيِّين الأول. ومع ذلك ينبغي أن لا نتحامل على علماء النفس اليوم وطرقهم العلمية بسبب ما في هذا العلم من نقص، إذا إن السبب الأصلي لجهلنا بخفايا النفس هو تعقيد هذا المـوضـوع العجيب وغمـوضه. كما أننا لا نملك حتى الآن الـوسـائل التي نتمكَّن بوساطتها من فتح طريق للدخول إلى عالم الخلايا العصبية المجهول والفعاليات الدماغية والنفسية»[١٢].

بإجـراء مقـارنة بين ظروف معالجة الأمراض الجسمية والامراض المعنوية، تتضح لنا حقيقـة أن السيِّئـات الأخلاقية، في عالمنا اليوم، أشدُّ خطراً على سعادة الإنسان من الأمراض

(١٢) الإنسان ذلك المجهول: ١٤٩.

الجسمية، فعلى الرغم من أن هناك في أنحاء العالم أُناساً كثيرين يعانون من مختلف الأمراض الجسمية، ويتعذّبون بسببها، ويحيون بمرارة وألم، وكثيرٌ منهم قد يغادر هذه الحياة قبل الأوان من حيث أعمارهم، فهناك، من جهة، اهتمام الناس بصحتهم الجسمية بدافع من حب الذات فيبادرون إلى معالجة أمراضهم الجسمية، وهناك، من جهة أُخرى، التقدم الكبير في علم الطب الذي مكّن الأطباء المختصين من تشخيص الأمراض في أغلب الأحيان، ومن معرفة العلاج المطلوب، فهناك أمل كبير في إمكان الحدّ من انتشار الأمراض في المستقبل وتوسعها، ولكن مثل هذا الأمل غير موجود بالنسبة للأمراض الخُلقيّة، إذ إن الناس في عالمنا اليوم قد فقدوا، من جهة، إيمانهم بالله، وركبهم العناد، وشذّوا، واستهانوا بالسيّئات الأخلاقية، ولم يُعْنَوا بطهارة القلب وسلامة الفكر، ولم يروا أنفسهم مسؤولين أمام الله، ومن جهة أُخرى، نرى ضعف علم النفس الذي يقصر عن الاستجابة لكل حاجات الناس، ويعجز عن مكافحة الأمراض الخلقية بجدارة لإنقاذ المجتمعات البشرية من الخطر. ولهذا راحت الأمراض الأخلاقية تنتشر بسرعة وتتقدم، ويسود الفساد حتى في الدول المتمدنة، حيث نسبة ارتكاب الجرائم في ارتفاع مستمر.

«يقول (ويل د ورانت): في سنة ١٧٧٤ طرحت اكاديمية (إيزون) سؤالاً على الناس مضمونه: هل أدّى التقدم العلمي والصناعي إلى رقي الأخلاق وتصفيتها أم إنه أدّى إلى فسادها؟ ووضعت الأكاديمية يومذاك جائزة لأحسن جواب، وكانت الجائزة من نصيب (روسو) لأنه قال: إنه يعتقد أنّ تقدم العلوم والصناعات في أوربا قد أدّى إلى ضعف الأخلاق، وقلّل من عدد أهل التقوى»[١٣].

لقد مضى على هذا السؤال والجواب أكثر من قرنين، وخلال ذلك تقدّم فساد الأخلاق والجريمة بموازاة تقدّم العلوم الطبيعية والصنائع الآلية. إن هذه الحقيقة المرّة تنكشف من خلال الأخبار والإحصاءات الجنائية التي تُنشر في الإعلام العالمي، فبمطالعتها يتبيّن أن الإنسان قد هوى اليوم إلى أحطّ دركات السقوط الأخلاقي وأنه

---

(١٣) صحيفة اطلاعات، العدد: ١٥٠٨٤، نقلاً عن «تاريخ الفلسفة».

منغمس في مستنقع الفساد والخراب.

«اسيوشييتدبريس- يقول قاضي المحكمة العليا في واشنطن: من الممكن في السجن الجنائي لولاية واشنطن أن يعقد اتّفاق مع قاتل محترف لقتل شخص ما لقاء مئة دولار أو مئتين. إلاّ أنَّ أحد مسؤولي السجن قال: كلّا، ليس الأمر كذلك، فإنَّ اتفاق القتل يمكن أن يعقد لقاء (١٥) دولاراً فقط. إن قاضي المحكمة العليا في واشنطن قال: إنه بدفع مبلغ (١٠٠) أو (٢٠٠) دولار يمكن استئجار قاتل لقتل أحد الأشخاص. ولكن أحد مسؤولي السجن الجنائي في واشنطن قال: قبل سنوات قام قاتل محترف بقتل شخص لقاء علبة سجائر»[١٤].

قد يسأل سائل إنه على أثر تقدّم العلوم الطبيعية والمكننة، نجد شؤون الحياة وحالاتها كافة قد تغيّرت، فلماذا يجب أن لا تتغير المبادىء الأخلاقية، ولا تتبدل موازين الحسن والسيىء تبعاً لذلك؟ هل إن أُصول الفضائل والرذائل ثابتة لا تتبدل ولا تعطي مواقعها لأصول أخرى؟ ألا يمكن أن نقول إنّه في عصر سيادة المادة وأصالة الاقتصاد، لم يعد مكان للأخلاق والضمير والسجايا الإنسانية، وإن أيّام طهارة القلب والفضيلة قد مضى أوانها؟ هل أخطأ الطريق أكثر الناس الذين يميلون اليوم عملياً إلى الأخلاق النفعية؟ أثمّة مانع يمنعنا من أن نلتحق نحن أيضاً بالأكثرية، فنهمل الفضائل الأخلاقية التي تقيد إشباعنا لغرائزنا كما نشاء، ونستفيد من الأخلاق النفعية للحصول على المزيد من الفوائد واللذائذ؟

للاجابة عن هذه الأسئلة لا بدّ من القول: إن أُصول الفضائل والرذائل الأخلاقية ليست من قبيل المسائل الاعتبارية المتّفق عليها مرحلياً، كالآداب والسنن الاجتماعية التي تغيرها تغيرات الزمن والمكان والمحيط، بل هي مجموعة من الأمور الحقيقية التي تلعب دوراً رئيسياً في سعادة الإنسان وتعاسته، ورفض الناس أو قبولهم لها لا يغيِّر من واقعيتها شيئاً.

---

(١٤) صحيفة كيهان، العدد ٩٨٦٤.

فأداء الأمـانـة، والـوفـاء بالعهـد، والعدل، والصدق، والاستقامة من جملة الفضائل. والتزام هذه الأصول، بصفتها دليلاً على الشرف المعنوي، يمنح الإنسان هدوء البال وراحة الفكر، ويحافظ على أمن المجتمع وحريته، فيسود الصفاء والسلام، وتصفو الحياة ويهنأ العيش، وتتوفر عوامل سعادة الإنسان.

أما خُلْفُ الوعد،وخيانة الأمانة، والظلم، والجور، والمكر، والخداع، فهي من جملة الرذائل، والتخلُّق بهذه الصفات، التي تدل على فساد القلب وخبث الضمير، يقضي على الثقـة في المجتمـع، ويزرع سوء الظن بين الناس، ويهدد أمن المجتمع وحريته، ويبعث على الخصام والجدل، ويحيل طعم الحياة مرّاً غير سائغ، ويسوق الناس نحو التعاسة وسوء الحظ.

انعـطاف الناس نحو الرذائل وإهمالهم الفضائل لا يغير شيئاً من الحقيقة، فالرذيلة لا تنقلب إلى فضيلة، والفاسق لا يجلس مجلس الفاضل. وفي هذا يقول القرآن الكريم:

**﴿قُـلْ لَا يستـوي ٱلخبيثُ وٱلطَّيِّبُ ولوْ أعجبَكَ كَثْرَةُ الخَبيثِ فاتَّقوا اللهَ يَا أُولي ٱلألبابِ لعلَّكم تُفلحُونَ﴾**[١٥].

وقبل أربعة عشر قرناً تحدَّث الإمام علي(ع) في هذا الموضوع الذي يُعَدُّ من أركـان سعادة الإنسان، ولكيلا يقع أصحاب القلوب الطاهرة تحت تأثير الأكثرية الفاسدة الضالَّة، ولكيلا يفقدوا إنسانيتهم، ولكيلا يُصيبهم الوهن لقلة أنصار الحقّ، قال يخاطبهم:

*«أيُّها النَّاسُ، لا تستوحِشُوا في طريقِ ٱلهدى لِقِلَّةِ أهلهِ فإنَّ النَّاسَ قدِ ٱجتمعُوا على مائدةٍ شبْعُها قصيرٌ وجوعُها طَويلٌ»*[١٦].

---

(١٥) المائدة: ١٠٠.

(١٦) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الخطبة: ٢٠١.

## مكافحة الفساد

مكـافحة فساد الأخلاق والانحراف، في المجتمع الإسلامي، من الواجبات الدينية للمسلمين، فكل مسلم مكلّف بإصلاح نفسه وبالسعي في إصلاح الآخرين، بنشر الصلاح،وبمنع الفساد، وبالعمل على إعلاء الحقّ ومحق الباطل.

عن رسول الله(ص)، قال: «*أُنصُرْ أخاكَ ظالِماً أو مَظلُوماً*.

قال: أنصرهُ مظلوماً، فكيفَ أنصُرُهُ ظالماً؟

فقال: *كُفَّهُ عَنِ الظُّلم*»[١٧].

إنَّ فريضة الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر تُعدُّ، في الواقع، بمثابة قانون للإشراف الشعبي الإسلامي، وقد عهد الإسلام بهذه المهمة الاجتماعية الخطيرة إلى المسلمين:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُم أولياءُ بعْضٍ يأمُرُونَ بِٱلمعْروفِ وينْهَوْنَ عن ٱلْمُنْكرِ﴾[١٨].

حمل النـاس على الأعمـال الصـالحةوالأخلاق الحميدة، ومنعهم من الآثام والأخـلاق الـذميمـة، من أهم الخدمات الاجتماعية. إن الذين يتقدّمون على هذا الـطريق المقدّس فيرشدون الآخرين إلى طريق الحقّوالفضيلة، لا يكون سبباً في سعادتهم فحسب، بل إنهم بعملهم هذا ـ كما يقول أئمة الدِّين ـ يوصلون أنفسهم إلى كمال السعادة.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*مِنْ كمالِ السَّعادَةِ السَّعْيُ في إصْلاحِ ٱلجُمْهُورِ*»[١٩].

قد ينتشر الفساد أحياناً في مجتمع من المجتمعات حتى لا تعود الآثام تبدو قبيحـة، فيفقـد الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر أثرهما، وتُصاب أكثرية الناس

---

(١٧) نهج الفصاحة.

(١٨) التوبة: ٧١.

(١٩) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٧٣٢.

بالأمـراض الفكرية، ويتطبَّعون على الخبائث والسيِّئات الأخلاقية إلى درجة أنهم، فضلًا عن عدم استماعهم إلى نصح الناصحين، فإنهم يُهينونهم ويحتقرون نصحهم. في مثـل هذا المجتمع الميؤوس منه، لا يكون من واجب المؤمنين القيام بإصلاح هؤلاء المعاندين، ولا يكونون مسؤولين أمام الله عن آثامهم وسيّئاتهم. في مثل هذه الحالة يكـون واجبهم الالتفـات إلى إصـلاح أنفسهم وأفـراد أُسرتهم، فيزكّون نفوسهم، ويزيلون أي عيب أخلاقي قد يكون فيهم، ويعملون على إيجاد موجبات خلاصهم وسعادتهم. كذلك هم مكلَّفون بتربية عوائلهم على التعاليم الإلهيّة، يطهّرون قلوبهم ويعينونهم على الاستقامة، وينقذون مجتمع الأسرة الصغير من تعلُّم الأخلاق والأعمال السيئة التي تسبب البلاء في الدنيا والعذاب في الآخرة. يقول القرآن الكريم:

﴿يَا أيُّها ٱلَّذِينَ ءَامنوا قُوا أنفسَكُم وأهْلِيكُم ناراً﴾[٢٠].

عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبدالله الصادق (ع) عن قول الله تعالى: ﴿يا أيُّها ٱلَّذينَ ءَامنوا قُوا أنفسكُم وأهلِيكُم ناراً﴾.

قلت: هذه نفسي أقيها، فكيف أقي أهْلي؟

قال: «*تأمُرُهُمْ بما أمرَهُم الله به، وتَنْهاهم عمّا نَهاهُم الله عنه*»[٢١].

قد تسري المفاسد الاجتماعية والأمراض الأخلاقية إلى محيط العائلة، فتؤثر في فتيان العائلة وفتياتها، برغم ما نالوه من تربية صحيحة منذ الطفولة، فيفسدون، وينسون مبادىء الأخلاق والفضيلة، فيركبهم العناد، وينحرفون عن طريق السلامة نحو طريق الإثم والفساد.

والأبـوان المؤمنـان اللّذان يُحسّان بالخطر يتهدَّد أبناءهما ويعرِّضهم للتعاسة والسقوط، يستولي عليهما قلق شديد، فيبادران، بدافع من المحبة الأبوية، ومن القيام بتكليفهم الشـرعي، بإسـداء النصح لهم، يذكِّرونهم بواجباتهم الدينية وبأوامر الله

---

(٢٠) التّحريم: ٦.

(٢١) تفسير نور الثقلين ٥: ٣٧٢.

ونواهيه، ويحذّرانهم من مغبّة ارتكاب المعاصي والآثام. ولكن الأبناء الواقعين تحت تأثير المجتمع الفاسد لا يبالون بما يقوله الوالدان، ولا يهتمون بقلقهما الحارق، بل إنّ بعضهم يتجرأون على مواجهة الوالدين بفظاظة وبكلمات قاسية، ويسخرون من أقوالهما، ويستمرون في سلوكهم القبيح. عندئذٍ، في مثل هذه الظروف الباعثة على اليأس، يسقط عن الوالدين المؤمنين واجب إصلاح الأهل كتكليف شرعي، ولا يكونان بعد ذلك مسؤولين عن أخلاق أبنائهم الفاسدة وأعمالهم القبيحة.

سُئل الصادق(ع)، عن قول الله عزّ وجلّ ﴿قُوا أنفسكُم وأهلِيكم ناراً﴾ كيف نقيهنّ؟

قال: «*تأمُرُونَهُنّ وتَنهَونَهُنّ*.

قيل له: إنّا نأمرهُنّ وننْهاهُنّ فلا يَقْبَلنَ.

قال: *إذا أمَرْتُموهُنّ ونهيتُموهُنّ فقدْ قَضَيْتُم ما عليْكُم*»[٢٢].

وبناءً على ذلك، يكون الإنسان المسلم مكلَّفاً بالسعي لإصلاح نفسه وأهل بيته، وكذلك لإصلاح أخلاق المجتمع الذي يعيش فيه. و لما كان التكليف قائمًا على القدرة والاستطاعة، فإنه إذا انتشر الفساد في المحيط انتشاراً يعجز معه المصلحون عن مكافحته، ويتّضح لهم أنْ لا فائدة من بذل الجهد في هذا السبيل، ويستولي عليهم اليأس من إمكان تحسين أخلاق المجتمع والأسرة، فإنّ التكليف يسقط عن هؤلاء في إصلاح الآخرين، ولا يتحمّلون مسؤولية عن آثامهم وفسادهم. إلّا أنّ تكليفهم في إصلاح النفس وبناء الذّات يبقى ثابتاً كما هو، فعليهم أن يسعوا في هذا السبيل، وأن يتحمّلوا الصعاب، ويتغاضوا عن إلحاح أهوائهم وغرائزهم عليهم لإشباع طلباتها غير المشروعة والمنافية للأخلاق، حتى يزيلوا من أنفسهم عيوبها، ويعالجوها من الأمراض الأخلاقية، وينالوا سلامة الفكر وطهارة الضمير. يقول القرآن الكريم في هذا الشأن:

﴿يَا أيُّها ٱلّذينَ ءَامنوا عليْكُم أنفسكُم لا يَضُرُّكُمْ من ضلَّ إذا ٱهتديْتُمْ إلى

---

(٢٢) (ن م): ٣٧٣.

اَللهِ مَرْجِعُكُم جميعاً فَيُنَبِّئُكمْ بما كُنتُمْ تعملُونَ﴾[٢٣].

ولكي يتعـرَّف الـراغبون في سلامة الفكر وحسن الخلق على طريق علاج الأمراض الأخلاقية، وعلى واجباتهم في إصلاح عيوبهم المعنوية والنقائص الخلقية، نوضح لهم فيما يلي جانباً من ذلك:

## شروط علاج الأمراض الخلقية

علاج الأمراض الأخلاقية، مثل علاج الأمراض الجسمية، يقوم على أربعة شروط مبدأيه:

الأول: هو معرفة المريض بوجود المرض.

الثاني: معرفة منشأ المرض وتعيين طريق العلاج.

الثالث: عزم المريض على معالجة المرض.

الرابع: تنفيذ جميع التعليمات العلاجية.

الشـرط الأول: في الفصـل السـابق بيّنا أربعة طرق لتشخيص الأمراض الأخـلاقية باعتباره الشرط الأول لعلاجها، ولكل من يريد الصلاح والفضيلة أن يستفيد من تلك الطرق للتعرُّف على نقائصه الباطنية وأمراضه المعنوية وسيِّئاته الأخلاقية.

الشرط الثاني: من أجل معرفة طريق علاج الأمراض الأخلاقية، كشرط ثانٍ لعلاجها. يجب أوَّلاً تشخيص المرض تشخيصاً دقيقاً، ومعرفة العامل الداخلي لسوء الخلق، ثم وضع البرامج المناسبة واستخدام الوسائل الناجعة والنافعة، لإزالة منشأ الفساد لتتم معالجة العيب المعنوي وتحسن الأخلاق. إنَّ من لا يعرف مرضه جيداً، ولا يعرف منشأه، فإنَّ محاولاته للعلاج ستكون عبثاً، ولا يصل إلى نتيجة إيجابية.

---

(٢٣) المائدة: ١٠٥.

عن علي بن الحسين(ع)، قال: «*مَنْ لَمْ يَعْرِفْ داءَهُ أفْسَدَ دَواءَهُ*»(٢٤).

وبالنظر إلى أن للصفات الذميمة والأخلاق الفاسدة عللاً متعددة، منها ما ينشأ من العادات السيئة، ومنها ما يتسبَّب عن العقد الباطنية، والقلق النفسي، وبعض الأمراض الجسمية. لذلك كانت طرق علاجها مختلفة أيضاً.

إنَّ من تعـوَّد على الإفـراط والفحش في الكـلام، بسبب مجالستـه أصدقاء يتصفون بهاتين الصفتين المذمومتين، يجب عليه أن يُمسك لسانه ويقلِّل من التكلّم، ويعالج فحش الكلام بالسكوت، وبذلك يمكن معالجة هذين المرضين بضدٍّهما. وهذا ما يوصي به أئمة الإسلام:

قال له رجل:أوصني. قال(ص):«*إحْفَظْ لِسانَكَ*. ثم قال: يا رسول الله أوصني. قال:*احفظ لسانك* ثمَّ قال: يا رسول الله، أوصني.

فقال: *وَيْحَكَ! وهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ على مناخِرِهِمْ في النَّارِ إلَّا حصادُ ألسِنَتِهِمْ*»(٢٥).

يتبيّن من هذا الحديث أن السائل كان مصاباً بمرض كثرة الكلام ولا يستطيع أن يملك لسانه، وأن الرسول(ص) قد أمره مرتين بحفظ لسانه. ويستفاد من حدته في المرة الثالثة وإشارته إلى العذاب الإلهي، أنَّ ذلك الرجل لم يكن مصاباً بالثرثرة فحسب، بل كان كلامه فحشاً دائماً، ولذلك قال له: إنَّ اللسان الآثم هو الذي يوقع صاحبه في النار.

وفي الحالات التي يكون للطبع السيِّىء جذور نفسية، ويكون الخلق السيِّىء ناجماً عن عقد باطنية وضغوط نفسية، أو من أمراض جسمية، لا بدَّ من حلِّ تلك العقـد، وإزالة تلك الضغوط النفسية، والقضاء على سبب سوء الخلق، ليتم علاج المرض الفكري، وتعود إلى المريض سلامته الخلقية.

---

(٢٤) بلاغة علي بن الحسين: ١٠٨.

(٢٥) تحف العقول، الحراني: ٥٦.

«قبـل ثلاث سنوات أقدمت فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، قبيحة الصورة والملامح ـ إلى حد أن الأطفال الصغار كانوا يهربون منها رعباً ـ على تحطيم زجاج واجهة أحد المصارف، ووقفت تنتظر رجال الشرطة ليلقوا القبض عليهـا. واليوم، بعـد مرور ثلاث سنوات، تقف هذه الفتاة على عتبة حياة جديدة، بسبب حكمة القاضي وخبرة أطباء جامعة (فرجينيا) في الجراحة.

فالقاضي عندما رجع إلى سوابق هذه الفتاة لاحظ أنّها تسببت في خسائر مادية عديدة، ولكنها لم تؤذ إنساناً أبداً، فأدرك أن أفعالها تلك كانت صرخات جنونية طلباً للعون لحل عقدة امرأة مصابة بنقص جسمي في خلقها يجلب عليها سخرية الناظرين وإيذاءهم، دون أن يهتم بها أحد.

لذلك حكم عليها القاضي، بتهمة القيام بجرم من الدرجة الثانية، بالسجن مدة سنتين تقضيها في مركز معالجة أمراض النساء، وأمر بتسليمها إلى مديرية الخـدمـات الصحية والاجتـماعية التي تقـدّم الخـدمات العلاجية والجراحية والنفسية للنساء المريضات.

كان علاجها الجسمي على درجة كبيرة من الصعوبة، فقد كانت جمجمتها معوجّة وناقصة، لا أنف لها، وحولاء العينين، فأرسلوها إلى جامعة (فرجينيا) للعـلاج، حيث أُجريت لها عمليات خطرة لتغيير موضع الدماغ ولتصحيح شكل الرأس الخارجي والرقبة، وتصحيح أعصاب البصر الدقيقة والحساسة. لقد استمرت العمليات التي قام بها فريق الجراحين ست عشرة ساعة، فصنعوا لها أنفاً باستخدام قطعة من عظم الأضلاع والبشرة، وغيروا موقع عينها اليمنى.

قالت الفتاة: كنت مستعدة أن أموت في سبيل الحصول على وجه أحسن. وعلى الرغم من أن عدداً آخر من العمليات سوف يجرى لي، فإنّي لست قلقة بشأنها لأنها سوف تعطيني مظهراً أفضل، وهذا هو كل ما أُريد.

هذه الفتاة التي لا تتميز بذكاء خارق للعادة، اضطرت إلى دراسة السنوات الخمس الأولى من الابتدائية في البيت، بسبب حسّاسيّتها من الكلمات القاسية

الجارحة التي كان الناس يُسمعونها إيّاها، وعندما دخلت المدرسة بعد ذلك أصبحت حياتها كابوساً حقيقياً. وتضيف قائلة: وأخيراً أصبحت أُخاصم كل شيء، وكل ماارتكبت من مخالفاتكان لهذاالسبب. كنت قد تحوّلت إلى حالة من اليأس، سريعة الغضب، معذَّبة، كسيرة القلب. كنت أُحاول بكل وسيلة أن أجلب الانتباه، وكنت على درجة من العذاب بحيث لم أكن أدري ما أعمل. هذه العمليات الجراحية قد أوجدت تغييرات كثيرة في حياتها، وحلّت عقدها الباطنية الواحدة بعد الأخرى. تقول: الآن أستطيع أن أُدرك معنى السرور والحياة، وإني سعيدة لأن الأطفال لم يعودوا يخافون مني ولا يهربون»[٢٦].

هذه الفتاة الشابة وقعت تحت ضغط نفسي وعقد باطنية بسبب قبح صورتها، وعدم تجانس أعضائها، وتحمُّلها التحقير من هذا وذاك، وإحباطاتها في الحياة، فزايلها الهدوء والاستقرار، وراحت تحترق بالنار المشتعلة في داخلها، وأصبحت الحياة بالنسبة لها أمراً صعباً تحمُّلهُ ولا يُطاق. كانت لشدة سخطها وعذابها سريعة الهياج، خشنة التعامل، سيئة الخلق، عدوانية الطبع، تميل إلى الهدم والتخريب والإجرام، فكانت بهذا تكشف عناضطراباتهاوآلامها الباطنية.

إن انحراف هذه الفتاة الأخلاقي وخشونة طبعها ما كانا ليتغيرًا بتغير أُسلوب حياتها، ولا كان القيام بأعمال تقويمية ضد الانحراف وخشونة الطبع قادراً على شفائها وإسباغ الهدوء والطمأنينة على حياتها وإطفاء النيران المشتعلة في باطنها. لقد كان علاجها في إزالة عيوبها الخلقية، وجبر نقائصها، وحلّ عقدها الباطنية، أي إن علاجها كان في القضاء على مصدر سيئاتها الأخلاقية، وهذا ما تحقَّق بمبضع الجراحين، فتحرَّرت الفتاة من الضغوط النفسية، وتحسَّنت أخلاقها تدريجياً.

هناك بعض من أنواع سوء الطبع وفساد الأخلاق ينشأ من الضعة النفسية والعقد الباطنية. وقد وردت أحاديث في هذا منذ قرون طويلة، وهو ما يشير إليه أيضاً

---

(٢٦) صحيفة كيهان، العدد: ٩٧٨٣.

علماء النفس اليوم، سنذكر بعضاً منها:

الكَذِبُ أحد العيوب المعنوية ومن السيِّئات الأخلاقية الكبيرة. إن الإنسان بطبيعته الفطرية يميل إلى قول الصدق، وإلى أن يتجنَّب قول ما يخالف الحقيقة. فالكذّاب، في الواقع، ينحرف عن المسير الفطري السليم، ويسير في الطريق المخالف لسُنَّة الخليقة.

عن الإمام عليّ(ع)، قال: *«الكَذِبُ زوَالُ المَنْطِقِ عن الوَضْعِ الإلهيّ»*[٢٧].

يصدر الكَذِبُ عن ضعف داخلي وضعة باطنية، والكاذب واقع في أسر نوع من الذلَّة والقلق الباطني، فبسببٍ من الخوف، والعجز، والقلق، والجبن، والحقارة، والجشع، والطمع، وغير ذلك، يصاب بمرض الكذب.

عن النبي(ص)، قال: *«لا يَكْذِبُ الكاذِبُ إلّا مِنْ مهانَةٍ في نَفْسِهِ»*[٢٨].

التكبُّر والتجبُّر صفتان مذمومتان، وهما، مثل الكَذِب، يصدران عن عُقَدٍ ومهانات نفسية.

عن أبي عبد الله الصادق(ع)، قال: *«ما مِنْ رجُلٍ تكبَّر وتَجبَّرَ إلّا لذلَّةٍ وجدَهَا في نَفْسِهِ»*[٢٩].

«كل أنواع الرغبة في الاستعلاء والتسلّط أدلّة على نوع من الإحساس بفقدان الأمن النفسي. إنَّ الرئيس الذي يتجبَّر على مرؤوسيه يكشف عمّا في نفسه من خوف خفي من فقد قدرته على إقامة الضبط والنظام بين مرؤوسيه وجلب إطاعتهم له، وهو يعلم جيداً أن الجانب السلبي أوضح في شدته في فرض شخصيته من الجانب الإيجابي. وهذا يصح أيضاً في الزوج الذي يتجبَّر على زوجه، وفي الأب الذي يعامل أبناءه بخشونة. وحيثما يكن ظلم، وتجبُّر، وإضاعة حق، وحلفٌ كاذبٌ، يكن ذلك دليلاً على الشعور بعدم الكفاءة وفقدان الاعتماد

---

(٢٧) فهرست الغرر: ٣٤٣.

(٢٨) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ١٠٠.

(٢٩) الكافي، الكليني ٢: ٣١٢.

على النفس. إنَّ جذور هذه المفاسد يمكن أن يعثر عليها عالم نفساني، أو عن طريق معرفة النفس والبحث المحايد في الذات»[٣٠].

علاج الكَذِب والتكبُّر والتجبُّر يكمن في حل عقدة المصاب النفسية، وفي إزالة ذلّته الباطنية للقضاء على منشأ مرضه، وإلا فإن القيام بأعمال مضادة مع التكلف والتصنع لا يقتلع المرض من جذوره، ولا يُبرىء المريض من سوء الأخلاق.

إن من يقع ضحية للظلم والاعتداء، ويغمط الآخرون حقوقه يغضب ويتألَّم، فيتبدَّل سلوكه، ويتغير أُسلوب كلامه، ويفقد اتّزانه النفسي والأخلاقي. وإذا ما استمرت معه هذه الحالة، وبقي واقعاً تحت ضغط الظلم، فيمكن أن يكون لذلك أسوأ الأثر في نفسه، فيتجه بالتدريج نحو الانحراف والسيئات الأخلاقية، أمّا إذا تحرَّر من ضغوط الظلم والعدوان، واسترجع حقوقه المسلوبة، وعاد إلى ظل العدل والحرية، فسوف ينتهي قلقه ويكون قد عُولج من حدة الطبع.

وعلى الرغم من أن سلاطة اللِّسان وخشونة الكلام من الصفات المذمومة، فإنَّ الإسلام قد أجاز للمظلوم أن يحاول رفع الظلم عنه ويقصّر يد الظالم عن طريق ذكر من ظلمه بالسوء، وبكشف سيّئاته علانية، لعله بذلك يدفع الظلم عن نفسه.

﴿لا يُحِبُّ ٱللهُ ٱلجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ ٱلقولِ إلاّ منْ ظُلِم﴾[٣١].

قد ينطق المظلوم الذي أحرق قلبه بعبارة غاضبة ثائرة يكشف بها عمّا يدور في داخله من احتدام وضغط وقلق واحتراق، فيكون تعبيره ذاك مؤثراً في تغيير الوضع القائم، فيستنير الأفق، ويزول الظلام والقتام، ويتحرَّر المظلوم من الظلم.

أرسل الخليفة العباسي عبدالله بن طاهر والياً على خراسان فدخل هذا بجنوده مدينة نيشابور، واستقر بهم في المواضع المخصَّصة لهم، إلاّ أنّها لم تتَّسع لهم جميعاً، فوزَّع بعض جنوده على الأهالي وأجبرهم على استضافتهم، فكان لهذا تأثير

---

(٣٠) عقدة الحقارة: ٢٨.

(٣١) النِّساء: ١٤٨.

سيِّىء بين الناس أثار فيهم موجة من السخط والتذمُّر.

اتفق لأحد الجنود أن يسكن مع رجل غيور وزوجه جميلــة. فاضطر الرجل إلى أن يترك عمله ليبقى في البيت رقيباً لئلا تتعرض زوجه لاعتداء الجندي الشاب. وفي أحد الأيام طلب الجندي من صاحب البيت أن يأخذ فرسه ليرده الماء. غير أن الرجل الذي لم يكن ـ من جهة ـ يجرؤ على ترك زوجه مع الجندي وحدهما في البيت، ويخاف ـ من جهة أخرى ـ رفض طلب الجندي، قال لزوجه أن تأخذ هي الفرس لترده، ويبقى هو للمحافظة على أثاث البيت. فأخذت الزوجة بزمام الفرس واتَّجهت نحو موضع الماء.

في تلك اللحظة اتَّفق أن مرَّ عبدالله بن طاهر راكباً من ذلك المكان، فرأى امرأة وقوراً جميلة تقود فرساً نحو الماء، فعجب من ذلك، واستدعى المرأة، وقال لها: لا أراك من اللواتي يردن الخيل، فما الذي دعاك إلى هذا؟ فقالت المراة بغضب: هذا نتيجة عمل عبدالله بن طاهر الظالم، قاتله الله. ثم شرحت له الأمر.

فتأثر عبدالله من قول المرأة وغضب على نفسه لأنه كان سبباً في أن يشعر أهل نيشابور بالتعاسة والشقاء. فأمر المنادين أن ينادوا في البلدة بأن على جميع الجنود الخروج من المدينة حتى الغروب من ذلك اليوم، ومن بات منهم في المدينة يُهدر ماله ودمه. وترك هو المدينة إلى (شادياخ) القريبة من نيشابور، حيث لحق به جنوده، فبنى في تلك المنطقة الواسعة لنفسه قصراً ولجنوده مقرات يسكنونها.

فهذه المرأة التي كانت حياتها عرضة للخطر ذكرت عبدالله بن طاهر بالسوء ودعت عليه، فكان من أثر هذا الاحتدام في الكلام والذم الموجع أن حلّ العقدة ورفع الظلم، لا عن نفسها وزوجها فحسب، بل إنه قد أنقذ سائر الناس من التعسُّف والَجور، ووضع حدَّاً للحالة المزرية التي مرَّت بها مدينة نيشابور. وهذا هو مصداق الآية القرآنية:

﴿لا يُحبُّ ٱللهُ ٱلجَهْرَ بالسُّوءِ منَ ٱلقولِ إلاّ منْ ظُلِمَ﴾.

هنـاك قسم آخر من السيِّئات الأخلاقية التي تسبِّبها الأمراض العضوية التي تصيب

الجسم، فقد جاء في كتب الأطباء النفسانيِّين أن بعض الأمراض تؤثر في نفسية المريض، فتغير من طباعه وخلقه، مما يؤدِّي إلى الانحراف الأخلاقي، نشير إلى مثالين مما جاء في تلك الكتب.

«الغدد الداخلية ـ يقول (هنري باروك): إنَّ كثيراً من الأمراض النفسية لها علاقة باختلال إفراز بعض الغدد، من ذلك: الأمراض النفسية في سن البلوغ، والاختلالات الفكرية والأخلاقية خلال العادة الشهرية عند المرأة، أو بعد الولادة، أو عند بلوغ سن اليأس.

بعض الأمراض النفسية والخلقية ناشئة من اختلال إفرازات غدد الرحم، ويتَّضح هذا المرض في مظاهر محركة مثل: الحقد، والعداء، والهذيان، والإيذاء. لقد استطعنا في بعض الحالات أن نلاحظ بوضوح توازي هذه المؤثرات الهذيانية أو العدوانية مع جريان إفرازات الغدد. كما أن تجاربنا ودراساتنا على الحيوانات أعطتنا معلومات مفيدة بشأن الأمراض النفسية. فبعض الحيوانات التي تتسمَّم بإفرازات غدد الرحم تمر بدورة من التهيج الجنسي الشديد لفترة قصيرة، ثم تنقلب إلى حالة اعتدائية فتهاجم الحيوانات الأخرى. هذا أيضاً ما نلاحظه في الحالات السريرية، حيث تبدأ مرحلة الشهوة الشديدة لتَعْقبها مباشرة المرحلة الاعتدائية»[٣٢].

«الأخلاق وورم الدماغ ـ شرح بعض العلماء مؤخراً بعض الأمراض النفسية التي لها علاقة بورم الدماغ، وقد خصص الجزء الأكبر من كتاب (مارشان) بالتحقيق السريري والتشريحي في نوع من الأمراض النفسية المُعدية ما يصحبه من تغييرات أخلاقية. وقد بحث هذا الموضوع كذلك في كتاب (مارشان) الجديد وكتاب (كورتوا) بحثاً مسهباً»[٣٣].

إنَّ الصفات المذمومة التي تنشأ عن اختلال إفراز الغدد، أو ورم الدماغ وغيرهما من الأمراض لا يمكن علاجها بمجرد القيام بأعمال مضادة، إذ في مثل هذه

---

(٣٢) سلسلة ماذا أعلم؟ الأمراض الروحية والعصبية: ٨٧.

(٣٣) (ن.م): ٧٩.

الحالات يجب أوَّلاً معالجة المرض الذي نشأ عنه ذلك الانحراف الخلقي، لكي يعود التوازن إلى نفسية المريض ويتحسَّن سوء خلقه.

النتيجة التي نتوصّل إليها من هذا هي أن الشرط الثاني لعلاج الأمراض الأخلاقية هو معرفة منشأ المرض ومن ثم تشخيص نوع العلاج المناسب. فإذا كان سوء الخلق ناشئاً من العادات السيئة، فلا بدَّ من السعي لترك تلك العادات وطردها من الذاكرة بالقيام بأعمال مضادَّة لها من الأعمال الطيبة، وبذلك يعالج فساد الأخلاق. وإذا كان المرض الأخلاقي ناجماً عن عقدة نفسية أو مرض جسمي، فيجب حل العقدة أو معالجة العضو المريض لكي يزول الخلق المذموم ويتحسَّن المريض.

الشرط الثالث: لعلاج الأمراض الخلقية: هو عزم المريض الحاسم على معالجة المرض. إنَّ الإنسان ذا الإرادة الجادَّة قادر على ترك العادات السيِّئة، والتغلب على هوى النفس، والتغاضي عن ميوله غير المشروعة، أي إنّه قادر على السيطرة على علل الفساد الأخلاقي، وتوفير مستلزمات علاجه. ولكن بالنظر إلى أنَّ هناك نظريات مختلفة بشأن قضية الأخلاق، وللناس آراء متباينة في هذا الشأن، فهناك أيضاً اختلافات وتباينات فيما يتعلق بالأمراض الأخلاقية والعزم على معالجتها، وكل فريق يعمل على وفق رأيه وتفكيره.

عبّاد الذّات الذين ينظرون إلى الإنسان من منظور حيواني، ولا يقيمون وزناً لجانبه الإنساني والمعنوي، لا يؤمنون أصلاً بأن هناك فضائل ورذائل، ولا يرون في سوء الخلق مرضاً حتى يعالجوه، أو يتّخذوا بشأنه إجراءً . هؤلاء يقيمون نظريتهم على إشباع الغرائز والشهوات، ويقولون: كل خلق يؤدِّي إلى النجاح واجتلاب اللّذائذ فهو خلق حسن، وإن لم يرض عنه الأخلاقيون واعتبروه من الرذائل، وكل صفة تقف في وجه تحقيق الشهوات والأهواء النفسية، فهي صفة سيِّئة، وإن كانت من الفضائل.

أمّا الأخلاقيون فهم، بخلاف عبّاد الذّات، يؤمنون بمبادىء الفضائل والرذائل، ويحترمون السجايا الإنسانية، ولكنهم ليسوا سواءً من حيث نظرتهم إلى خطر الأمراض الأخلاقية ولزوم معالجتها، بل يختلف رأي كل فريق منهم عن رأي

الفريق الآخر.

في عالمنا اليوم فريق وإن كان طراز تفكيرهم أخلاقيّاً، ويعتبرون الرذائل سيِّئة، ويظهرون اشمئزازهم من السيئات الخلقية، ويرون ضرورة التنزُّه والتبرُّؤ منها، ولكنهم عملياً لا أُباليُّون ولا يهتمون بالمفاسد الأخلاقية، ولا يرون فيها خطراً عليهم، ولا يحاولون معالجتها بجد، حتى أنهم يُنهون أعمارهم بالخلق المذموم، ويموتون وهم على صفاتهم الذميمة.

إنَّ نظرة هؤلاء إلى إصلاح عيوبهم الأخلاقية أشبه بنظرة ذلك الذي يعلم أنَّ بعض أسنانه متعفنة في جذورها، وأن بقاءها على هذه الحال يضرّ بصحته،ولكنه يستهين بالضرر ويقلل من شأنه، ولا يعلم شيئاً عن الأمراض الصعبة التي تسببها. إنه يود لو يقتلع تلك الجذور المتعفنة ويتخلّص منها، ولكنه يؤجل ذلك إلى غد وبعد غد، ولا يتّخذ قراراً حاسماً، ولا يخرج رغبته إلى حيِّز التنفيذ. فيظل أشهراً وسنوات متحمِّلاً الألم في حياته، وتسوء صحته شيئاً فشيئاً، وفي النهاية يفارق الحياة، حاملاً معه تلك الجذور المتعفنة التي أنزلت به البلاء.

إن ما يدفع الناس إلى معالجة الأمراض الجسمية هو حبُّ الذّات وحبُّ الحياة. لذلك عندما يصاب الإنسان بمرض خطر ويجد نفسه أمام خطر الموت، يعزم فوراً على معالجة مرضه، فيترك أعماله اليومية، ويهرع إلى الطبيب أو الجرّاح ويضع نفسه تحت تصرفه لمعالجته، متحمِّلاً جميع الصعاب والمشكلات.

والذين يحبون حياتهم المعنوية ومقامهم الإنساني، ويريدون الحفاظ على هذا المقام وأن يعيشوا كإنسان ويتمتَّعوا بالحياة الإنسانية، لا يقصرون حب الذّات وحب الحياة والكمال على الجانب الحيواني في وجودهم أبداً، ولا ينسون المعنويات، بل ينظرون إلى الروح والجسم، والظاهر والباطن، والذّات والمعنى، بمنظار واحد، فيحافظون على سلامة النفس، ويسعون في علاج الأمراض الخلقية مثلما يسعون في علاج الأمراض الجسمية.

هذا الفريق ذو النظرة الواقعية يرى فساد العقيدة والأخلاق مدعاة لموت

الإنسانية، ويرى أن إصلاحها من واجباته الحتمية. في رأيه أن ضرر الانحرافات الفكرية والأمراض الخلقية بالنسبة للحياة الروحية أعمق بكثير من الأمراض التي تقضي على حياة الإنسان المادية، إذ إن المرض الجسمي يؤدّي إلى موت الجسد، ويقضي على الحياة الدنيوية المؤقتة، بينما مرض العقيدة والأخلاق يقتل الإنسانية، ويميت الروح، ويقضي على السعادة الأبدية.

ومثلما يسعى الناس، بدافع مما فيهم من أنانية ورغبة في الحياة، إلى معالجة أمراضهم الجسمية، ويبحثون عن الدواء والعلاج، كذلك يسعى الذين يتمسّكون بالحياة الإنسانية والمعنوية بدافع من حبٍّ الذات وعشق السموّ والكمال، من أجل إصلاح أفكارهم وأخلاقهم، ويباشرون بإرادة قوية بمعالجة أنفسهم، فيقومون بواجباتهم، دون أن يبالوا بالمشقّات والصعاب. هؤلاء هم الذين يستطيعون تزكية أنفسهم بما يبذلونه من سعي وجهد، ويتخلّقون بمكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية، ليبلغوا في النهاية الكمال اللّائق بمقام الإنسان.

أمثال هؤلاء كثيرون بين المسلمين منذ عهد الرسول(ص) حتى العصر الحاضر، من الرجال والنساء من ذوي الإرادة القوية والعزم الراسخ. وعلى الرغم من أن أكثرية هؤلاء مجهولون، إلّا أنّ التاريخ احتفظ لنا ببعض الأسماء، وفيها اسم عبدالله ذي البِجادَيْن.

كان عبدالله من قبيلة (مُزَينة) وكان اسمه عبدالعُزّى (والعزّى هو أحد أصنام عرب الجاهلية). مات أبوه وهو صغير، فكفّله عمّه العابد للأصنام، فعُنِيَ به وربّاه حتى بلغ سنّ الشباب، فوهب له بعض أمواله وأغنامه.

يومئذ كان الإسلام قد بدأ يثير الحماس والتحرّك في الناس، وكان كلام يدور في كل مكان على هذا الدين الجديد، فكان أن أخذ عبدالعزى الشاب يبحث عن حقيقة أمر هذا الدين بكل حماس وتعشّق، متابعاً جميع الشؤون الإسلامية. وعلى أثر سماعه كلام نبي الإسلام والتعرّف على التعاليم الإلهيّة، أدرك فساد المعتقدات التي كان هو وقبيلته يتّبعونها، فعافت نفسه الأصنام وعبادتها والعادات الجاهلية، وآمن في

قلبه بدين الله، ولكنه لم يُظهر ذلك علانية رعايةً لعمّه.

ظلت الحال على هذا المنوال بعض الوقت. وبعد فتح مكة قال يوماً لعمّه: ظللت أنتظرك طويلاً أن تعود إلى نفسك فتُسلم وأُسلم معك، ولكني أراك لا تريد أن تترك عبـادة الأصنام، وما تزال تصرُّ على دينك الباطل، فاسمح لي أن أعتنق أنا الإسلام وألتحق بركب المسلمين. كان عمّه قد طرق سمعه من قبل اتجاه ابن أخيه إلى الإسلام، لذلك غضب عند سماع كلامه غضباً شديداً وقال إنه لن يسمح له أبداً بذلك، وأقسم أنه إذا خالفه واعتنق الإسلام فسوف يسترجع منه كل ما كان قد وهبه له.

كان الرجل يظن أن ابن أخيه الشاب سوف يرجع عن رأيه في الإسلام إذا هدَّده بانتزاع كل شيء منه، وأنّه سوف يطرد فكرة اعتناق الإسلام من رأسه، ويبقى عاكفـاً على عبادة الأصنام. ولكن الشاب كان مسلمًا حقيقياً، لا يمكن أن تتزلزل عقيدتـه بالتهديد والوعيد، ولا أن يرجع عمّا عزم عليه. فأعلن إسلامه بكل جرأة وصراحة، ولم يعبأ بالتهديدات المالية.

عند ذلك لم يجد العمُّ أزاء مقالة الشاب إلاّ أن ينفّذ تهديده، فاسترجع منه كل الأموال التي كان قد أعطاها له، ونزع عنه حتى الثوب الذي كان يرتديه. فانطلق الشـاب عارياً إلى أُمّه وقال لها: أحمل هوى الإسلام، ولا أطلب منك سوى إكساء العريان. فاعطته أُمّه قطعة من قماش كتّان عندها، فشقها نصفين وكسا عريه بهما واتّخذ سبيله في الطريق إلى المدينة للتشرّف برؤية رسول الله(ص).

كان الفتى قد فُتن بالحقيقـة التي اكتشفهـا، فامتلأ قلبه بالثورة والحماس، والطهارة والخلوص، والصدق والصفاء. كان يغذّ السير، كطائر أُطلق من سجنه وأصبح حراً يحلّق حيث يشاء، يريد أن يرى رسول الإسلام بأسرع ما يستطيع، ليعبُّ عبّاً من عذب نمـير تعاليمه الإلهيّة المحيية، ليصنع نفسه كما يليق بها، ولينال السعادة الحقيقية والكمال الإنساني المنشود.

دخل المسجد بين الطلوعين عندما كان المسلمون قد اجتمعوا لأداء فريضة

صلاة الصبح، فأدّاها جماعة معهم بإمامة رسول الله(ص). وبعد الصّلاة استدعاه النبي(ص) وسأله عمَّن يكون. فقال له: اسمي عبدالعُزّى. ثم سرد عليه ما جرى له. فقال الرسول(ص): اسمك عبدالله. وإذ رآه يلف نفسه بتينك القطعتين من القماش لقَّبه بذي البِجَادَيْنِ. ومنذ ذلك اليوم عرفه الناس باسم عبدالله ذي البِجَادَيْنِ(٣٤).

وخرج عبدالله ذو البجادين مع المسلمين في حرب تبوك مع رسول الله(ص) وتوفّاه الله في هذه الغزوة. وعند دفنه قام النبيُّ (ص) بنفسه بإنزال جسده إلى القبر. وبعد الانتهاء من مراسيم الدفن، إتّجه إلى القبلة ورفع يديه نحو السماء ودعا له قائلاً: *«اللَّهُمَّ إِنِّي أَمسَيْتُ عنهُ راضِياً فارضَ عنهُ»*(٣٥).

نخلص من كل ذلك إلى أنّ عزم المريض القاطع على معالجة نفسه هو الشرط الثالث لعلاج الأمراض الأخلاقية، إذ إن الإنسان يستطيع بالعزم والإرادة أن يكافح عملياً سيِّئاته الخلقية، وأن يكبح أهواءه غير المشروعة، وأن يكبت رغباته اللاّ أخلاقية، وأن يوفّر لنفسه أسباب سلامة الفكر وصحة السلوك. أمّا الذين يكتفون بمجرد الكلام في تمجيد الفضائل وذمّ الرذائل، دون أن يعزموا على أمر بشأن إصلاح أخلاقهم وعلاج عيوبهم، فإنهم لن يصلوا أبداً إلى تزكية النفس وسلامة الفكر، والتخلّص من رذائلهم الباطنية.

الشرط الرابع: لعلاج الأمراض الأخلاقية: هو تنفيذ جميع البرامج العلاجية. فمثلما أن البرء من الأمراض الجسمية يتطلّب الراحة الكافية، واستعمال الأدوية اللاّزمة، والقيام بالعمليات الضرورية، والحِمية من الأطعمة والمشروبات المضرّة، والتزام جميع التوصيات التي يوصي بها الأطباء، كذلك هي الحال بالنسبة للأمراض الأخلاقية، إذ لا بدّ من تنفيذ جميع الواجبات الدينية والعلمية والبرامج العلاجية في مواقعها، لينال المريض الشفاء، ويتحسَّن تحسُّناً كاملاً.

---

(٣٤) بتلخيص من «ناسخ التواريخ» حالات الرسول(ص): ٤٣٥.

(٣٥) أسد الغابة ٣: ١٢٣.

هناك تعليمات صحية يصدرها الأطباء في بعض الحالات ليست صعبة التنفيذ، وفي بعض الحالات، وإن كانت صعبة، ولكنها تكون محتملة. ولكن هناك حالات تستلزم إجراء عمليات جراحية خطرة، وتتطلب تنفيذ برامج صعبة وتحمّل آلام تفوق طاقة الإنسان. في مثل هذه الحالات تنتاب المريض حالة من الشك والترديد، ويحاول تأجيل العلاج يوماً بعد يوم، وأخيراً ترى بعضهم يغيّر رأيه في العلاج، بينما يتقدم بعض آخر بكل عزم وتصميم على تحمّل العلاج المطلوب ويستسلمون لمبضع الجرّاح.

هذه الحالات تصدق أيضاً بشأن الأمراض الأخلاقية والعيوب المعنوية. فهناك صفات مذمومة تسهل معالجتها والتخلص من آثارها. ولكن علاج بعض الأمراض الأخلاقية الأخرى ثقيل وصعب جداً، ولا يتحقق إلّا ببذل الجهد والتفاني والتغاضي.

إن من يكون أسير حبّ الذات وحبّ الاستعلاء والتفوّق، وقد قضى سنوات من عمره ظالماً متجبّراً، وتطبّع على هذا الخلق الذميم الذي يُشبِعُ فيه حبّه للاستعلاء، وكذلك الذي استعبده الجشع والطمع، فقضى السنوات يغمط حقوق الآخرين ويستولي على أموالهم إرضاءً لجشعه وأطماعه، وكذلك أيضاً الذي استسلم لغرائزه وشهواته، فألف طبائع البهائم والحيوانات المفترسة، فهؤلاء يكون فسادهم الأخلاقي عميق الجذور، وإذا أرادوا أن يُصلحوا أنفسهم ويعالجوا أمراضهم الخلقية، فلا بدَّ لهم من أن يغيّروا طراز تفكيرهم، وأن يهدموا البناء الأعوج الذي بنوه في حياتهم، وأن يُقيموا أُسس بناءٍ جديد على وفق أُصول الفضائل والسجايا الإنسانية، وإنه لأمر شديد عسير.

كثيرون أُولئك الذين لا يرتضون حمل هذا العبء الثقيل، ويرفضون تنفيذ مثل هذه البرامج الصعبة، ويمضون في سوء سلوكهم وفساد أخلاقهم، حتى تنتهي حياتهم بالشقاء والتعاسة، إلّا أنّ أفراداً معدودين من هؤلاء يرغبون في شرف النفس والحياة الإنسانية، فيتّخذون قرارهم البات، دون خوف من الصعاب، باتّباع أوامر المربّين الأخلاقيّين العظام، وينفّذون برامجهم تنفيذاً دقيقاً كما ينبغي، فينالون السعادة الأبدية والكمال الحقيقي.

علي بن أبي حمزة قال: كان لي صديق من كُتّاب بني أُميّة فقال لي: استاذن لي على أبي عبد الله (ع) فاستأذنت له، فأذِن له فلما أن دخل سلّم وجلس ثم قال: جعلت فداك إني كنت في ديوان هؤلاء

القوم، فأصبتُ من دنياهم مالاً كثيراً، وأغمضت في مطالبه.

فقال أبو عبد الله (ع): «لولا أن بني أمية وجدوا من يكتب لهم، ويجبي لهم الفيء، ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم، ما وجدوا شيئاً إلّا ما وقع في أيديهم». قال، فقال الفتى: جعلت فداك فهل لي مخرج منه؟ قال: «إن قلت لك تفعل؟»، قال: أفعل قال: «فاخرج من جميع ما كسبت في ديوانهم، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله ومن لم تعرف تصدَّقت به وأنا أضمن لك على الله الجنّة». فأطرق الفتى طويلاً ثم قال له: قد فعلت جُعلت فداك.

قال ابن أبي حمزة: فرجع الفتى معنا إلى الكوفة فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلّا خرج منه، حتى ثيابه التي على بدنه، قال: فقسمت له قسمة واشترينا له ثياباً وبعثنا إليه بنفقة قال: فما أتى عليه إلّا أشهر قلائل حتى مرض، فكنا نعوده قال: فدخلت عليه يوماً وهو في السوق قال: ففتح عينيه ثم قال: يا علي وفى لي والله صاحبك، قال: ثم مات فتولينا أمره فخرجت حتى دخلت على أبي عبد الله (ع) فلما نظر إلي قال: يا علي وفينا والله لصاحبك قال: فقلت له: صدقت جُعلت فداك، هكذا والله قال لي عند موته[٣٦].

(٣٦) بحار الأنوار، المجلسي ١٢: ١٤٤، ٤٧: ٣٨٣.

# الفصل السابع

*﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾*

*القرآن الكريم*

## الآفات الطبيعية والشرور النفسية

الناس على سطح الأرض، من أيِّ طبقة كانوا وفي أيِّ مقام، معرَّضون لنوعين من الشرور والآفات:

الأول: هو ما يأتي من خارج وجودهم فيبتليهم، مثل الأمراض، والزلازل، والحرائق، وما إلى ذلك.

والثاني: هو ما تكون له جذور نفسية وينبع من داخل وجودهم، كالآفات التي تنشأ عن اتِّباع الهوى، والأنانية، وحب الجاه، وأمثالها من السيِّئات الأخلاقية التي تصيبهم فتشقيهم وتسبب هلاكهم.

إنَّ للمفاسد الأخلاقية والآفات النفسانية التي تصدر عن الإنسان نفسه أضراراً أبلغ بكثير من أضرار الكوارث الطبيعية الخارجية، إذ إن هذه الكوارث الطبيعية تصيب دنيا الإنسان، أما الآفات النفسانية فتعرِّض دين الناس ودنياهم لخطر الخراب. الكوارث الطبيعية تعرِّض ظاهر حياة الإنسان للخطر، فيما تعرِّض السيِّئات الأخلاقية ظاهر الحياة وباطنها كليهما للخطر. الكوارث الطبيعية المرَّة

العفوية تسبب مرارة الحياة المادية، ولكن الفساد الأخلاقي يقضي على الحياة المعنوية بالإضافة إلى الحياة المادية، ويحتقر الشرف والفضيلة، ويحمل الإنسان على التطبُّع بطبائع البهائم والحيوانات المفترسة.

إن من سوء الحظ أنَّ أغلب الناس الذين ينظرون إلى الإنسان من منظور مادي، يهتمون كثيراً بالحوادث الطبيعية الظاهرية، ولكنهم يستهينون بالآفات الداخلية. أما الذين يحملون نظرة واقعية فلا يخفى عليهم أن الشرور النفسية والآفات الداخلية أخطر بكثير على سعادة الإنسان من الحوادث الطبيعية.

## اللُّجوء إلى الله

لقد أوصى أئمة الإسلام أصحابهم بأن عليهم ـ لكي يأمنوا شر الأحداث الطبيعية والكوارث التصادفية، وكذلك لكي ينجوا من الآفات الأخلاقية والسيِّئات النفسية ـ أن يلجأوا إلى الله فيلوذوا به ويستمدوا العون من قدرته الأزلية الأبدية.

في القرآن الكريم سورتان تخصّان اللُّجوء إلى الله تعالى، وهما سورة (الفلق) وسورة (الناس). السورة الأولى تتناول الآفات الطبيعية والكوارث الخارجية. والسورة الثانية تعالج الشرور النفسية والأفكار الشيطانية. إن منشأ الكوارث الطبيعية والحوادث المفاجئة يرجع إلى العلل التكوينية والحوادث التصادفية، ومنشأ الشرور النفسية والآفات الأخلاقية يرجع إلى اتِّباع الغرائز الحيوانية والأهواء النفسية من دون قيد ولا شرط.

إنَّ الاستعاذة بالله تعالى من الآفات الطبيعية والشرور النفسية من البرامج التنفيذية الأخلاقية في الإسلام. ولكي نتعرف على معنى الاستعاذة بالله واللجوء إليه تعالى من جميع جوانبها، وتتضح آثارها العملية والنفسية في تطوير الحياة وضمان السعادة للناس، نبدأ في هذا الفصل بالكلام على الشرور الطبيعية والآفات التصادفية، ومن ثم نبحث الشرور النفسية والأخلاقية.

هذا العالم الذي نعيش فيه أقامه الله تعالى بقضائه الحكيم على أساس من

التّضادّ والتباين، حيث تمتزج البلايا المختلفة بطبيعة الحياة نفسها، فأنت في هذه الحياة السريعة الزوال القُلّب تجد الفرح والترح، والانتصار والهزيمة، والصحة والمرض، والموت والحياة، متجاورين متوازيين، اللّذّة توأم الألم، والسرور ينتظر الغمّ، والسلامة بإزاء المرض، والقوة يقابلها الضعف، والنجاح يتهدده الإخفاق، وفتوة الشباب يذهب بها وهن الشيخوخة، وهدوء البال يزلزله القلق، والسعادة في الحياة معرّضة للتعاسة فيها. عجلة الحياة لا تدور على وفق هوى أحد، وكل امرىءٍ تراه محاطاً بالمنغّصات من كل جانب، فهذا مريض، وذلك عنده مريض، وهذا يتألم من المشكلات العائلية، وآخر من الضغوط الاجتماعية، هذا يتعذّب بسبب الفقر، وذاك تعرّضه ثروته للخطر، لذلك فكل إنسان، رجلاً كان أو امرأة، شيخاً أو شاباً، عالماً أو جاهلاً، مُبتلى بشكل من الأشكال في الحياة، وكأنّ العيش من دون مصيبة أو بلاء غير ممكن للإنسان. ولهذا يقول القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[1].

سمع الإمام علي(ع) رجلاً يدعو لصاحبه فقال: لا أراكَ اللهُ مَكْرُوهاً. فقال(ع): *«إنما دَعوتَ لَهُ بالموتِ، لأنَّ مَنْ عَاشَ في الدُّنيا لا بُدَّ أنْ يَرى المَكْرُوه»*[2].

«...ولا يقول: *اللّهمَّ إنّي أعُوذُ بكَ منَ الفِتْنَةِ، بَلْ يقولُ: مِنْ مُضِلاّتِ الفِتَنِ*»[3].

عن الإمام علي(ع)، قال: *«دارٌ بالبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ، وبالغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لا تَدُومُ أحوَالُها، ولا يَسْلَمُ نُزّالُها»*[4].

إن الاستعاذة بالله تعالى من الكوارث الطبيعية لا يعني أننا نطلب من الله تعالى أن يصوننا من جميع البلايا والمحن التي تلازم الحياة الدنيا، إذ إن مثل هذا الطلب مستحيل وبخلاف سُنّة الخليقة. لقد أقام الله تعالى الدنيا على أساس من التّضادّ،

---

(١) التوبة: ٤.

(٢) نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٢٠: ٢٨٩.

(٣) سفينة البحار، القمّي، مادة «دعاء»: ٤٤٧.

(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح الخطبة ٢٢٦.

وخلق مع الناس الألم والشقاء. لذلك فإنّ الاستعاذة بالله لا تغيِّر سنن الخليقة، ولا تبدِّل القوانين التكوينية، ولا تعطِّل نظام الكون.

فالاستعاذة بالله تعالى إلّا كالدعاء وكطلب شيء منه، لقد ورد في الأحاديث الإسلامية أنّ من شروط الدعاء الصحيح القمين بالاستجابة هو أن لا يكون المطلوب في الدعاء مخالفاً لسنن الخلق ومنافياً لضرورات الحياة.

قال أمير المؤمنين(ع): *«يَا صَاحِبَ الدُّعَاءِ، لَا تَسْأَلْ مَا لَا يَكُونُ وَلَا يَحِلُّ»*[٥].

*«..ولا يقول: اللَّهُمَّ لَا تُحْوِجْنِي إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ، فإنه ليس من أَحَدٍ إلّا وهُوَ مُحتاجٌ إلى النَّاسِ. بَلْ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَا تُحْوِجْنِي إِلَى شِرَارِ خَلْقِكَ»*[٦].

إن المصائب والبلايا التي تصيب الإنسان في الحياة تستند إلى التحوّلات التكوينية، وتنشأ عن مجموعة من القوانين والأنظمة المقررة في نظام الخليقة. فالزلازل، والفيضانات، والصواعق، والسيول، والمرض، والجوع، وما إلى ذلك من الحوادث الطبيعية، معلولة كلها لعوامل تنظِّم نظام الخلق، وتتحقّق بتحقّق شروطها الخاصة. ولكن هذه الحوادث الطبيعية تخلف آثاراً ونتائج ضارَّة بالإنسان، ولذلك نسمّيها الكوارث والبلايا.

الإنسان خاضع لقوانين الخلق، ولا قدرة له على إيقاف عملها وصيانة نفسه من مصائبها الضارَّة، ولكنه يستطيع أن يستفيد من التّضادّ الموجود في نظام الخليقة بإرادة الله لمصلحته ضمن إطار القوانين الكونية وخصائصها بحيث يخفف بعض الشيء من تلك الكوارث والبلايا.

لقد خلق الله الأمراض، وأوجد لها الدواء أيضاً. ليس في قدرة الإنسان أن يمحو الأمراض المختلفة من على سطح الأرض، ولكنه يستطيع بمعلوماته الطبية أن يصنع الدواء الذي يقي من المرض أو يشفيه، ويخفف من آلامه. كذلك خلق الله تعالى

---

(٥) بحار الأنوار، المجلسي ١٩: ٤٥.

(٦) سفينة البحار، القمّي، مادة «دعا»: ٤٤٧.

الآفات الزراعية وأمراض الحيوانات، وخلق في قبالها السموم لدفع الآفات، والعقاقير لشفاء أدواء الحيوانات. الإنسان ليس قادراً على القضاء على الآفات الزراعية ولا على أمراض الحيوانات، ولا الآفات التي تتلف المواد الغذائية وتسبب الجوع والموت له، قضاءً تاماً، ولكنه يستطيع بالسموم والعقاقير المفيدة أن يقضي على بعض الآفات والأمراض وينقذ نفسه من الموت جوعاً.

إن العوامل التكوينية التي تدفع الشرور الطبيعية تعتبر بمثابة الملاجىء التي أوجدها الله تعالى بحكمته في العالم، ويلجأ إليها كل الناس، الإلهيين والماديين، ويستفيدون منها، ويجنّبون أنفسهم نسبياً أخطارها وأضرارها. إلّا أنَّ ما يلفت النظر هو أنَّ عوامل النجاة هذه غالباً ما تكون مجهولة ومعقدة، لا يكتشفها الإنسان بسهولة. إن القسم الأعظم من تلك العوامل المكتشفة حتى الآن كانت مختفية في زوايا الطبيعة المظلمة ولكن العلماء بجهودهم ومساعيهم ومعلوماتهم استطاعوا أن يعرفوها ويضعوها في متناول أيدي الناس. وهناك عوامل أُخَرُ ما زالت مجهولة وغامضة، وقد يمكن، بتقدُّم العلم، اكتشافها فيستفيد منها إنسان المستقبل.

فيما مضى من القرون والحقب أُصيب الملايين من أبناء البشر بأمراض مثل الهيضة، والطاعون، والخنّاق، والكزاز، والجدري، والشلل، وغيرها، فمات منهم كثيرون وأُصيب كثيرون بعاهات أو نقص عضوي، حتى استطاع العلماء الباحثون، بالعمل وبالتجربة، أن يعثروا على طرق الوقاية من تلك الأمراض أو علاجها باعتبارها ملاجىء إلهيّة اكتشفوها. واليوم ما يزال البشر يئنّ من أمراض مثل السرطان، وداء السكر، والأمراض النفسية، دون أن يستطيع العلماء حتى الآن العثور على علاجها القاطع واكتشاف ملاجئها الإلهيّة.

في السابق، يوم لم يكن الإنسان، لجهله المطبق، يعرف الطريق الصحيح لمكافحة الكوارث والشرور الطبيعية، ولم يكن قد اكتشف العوامل التكوينية بصفتها ملاجىء إلهيّة، كان يلجأ إلى الخرافات. بعض الأقوام لجأوا إلى الأجرام السماوية لكي تنجيها من الآفات والبلايا، فاعتبروها آلهة سماوية. ولجأ بعض آخرون إلى الحجر أو

الخشب يصطنعون منها الأصنام يلوذون بها من تلك الآفات، بدعوى أنها آلهة أرضية، يقرِّبون لها القرابين ويقدِّمون لها النذور لكي تحميهم عند الخطر وتدافع عنهم. وفي كل ذلك كان السحرة يقومون بدور مهمٍّ بصفتهم الروابط بين الآلهة والناس، زاعمين أنهم بأورادهم يثيرون سرور الآلهة وعطفها، فتنعم على الناس بالرفاه والفلاح.

ظل هذا الجهل متفشّياً قروناً طويلة بين مختلف الأقوام والملل، وما زال بعض من ذلك، وبصور مختلفة، باقياً في أنحاء من العالم. وقد أشار إلى ذلك العلماء والباحثون في كتب علم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي، والبحوث التاريخية. وفيما يلي بعض أمثلة لذلك:

«في قبيلة (داياك) في بورينو، إذا أحسَّت امرأة بآلام المخاض استدعوا لها الساحر ليخفّف عنها الألم وليولِّدها، فيأخذ الساحر بالتلوّي وكأنه هو أيضاً يحسُّ بآلام الطلق. وبعد دقائق من التظاهر بالتألم، يُسقط الساحر قطعة حجر من عنده على الأرض، ويتمتم بألفاظ القصد منها إرشاد الجنين إلى كيفية السقوط على الأرض من رحم الأمّ اقتداءً بقطعة الحجر.

ولاستسقاء المطر، يرش الساحر الأرض بالماء، ويفضل أن يكون من فوق شجرة. وحتى هذا اليوم نجد في البلقان وبعض أقسام ألمانيا أنهم، إذا تأخَّر عليهم المطر، يعمدون إلى فتاة شابة يجردونها من ثيابها ويرشُّونها بالماء في مراسيم خاصة، وهم يتمتمون بألفاظ سحرية.

وإذا لم ينفع سحر الساحر فإنه يخسر الكثير، ولكن الناس كانوا يتذكَّرون نجاحاً واحداً منه أكثر من عشرات الإخفاقات. وفي بعض الأماكن كانت مهارة الساحر أو شهرة أوراده السحرية من القوة بحيث إنهم لم يكونوا يُعزون إخفاقه إلى نقص في سحره أو أوراده، بل إلى عناد الآلهة ولجاجتها، فكانوا ينتقمون منها. ففي اليونان القديمة كان الشبَّان يضربون تمثال الإله (بان) لعدم توفيقهم في الصيد..

وإذا لم تأت أدعية الصينيين بنتيجة، فربَّما حملوا صورة أحد الآلهة بشكل

مهين في الشوارع، وينهالون عليه بالضرب مع عبارات التوبيخ والعتاب، أو حتى التحقـير، فيخاطبونه قائلين: أنت يا روح الكلب، لقد بنينا لك معبداً عالياً لتسكنه، وقد وشّيناك بالذهب بصورة جميلة، وربّيناك تربية جيِّدة، وقرّبنا لك القرابين، ومع ذلك فإنك ناكر للجميل»[٧].

كان الرجل من العرب إذا نزل الوادي في سفره ليلاً قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من سفهاء قومه. وكان هذا منهم على حسب اعتقادهم أن الجنّ تحفظهم. وأول من تعوَّذ بالجنّ قوم من اليمن، ثم بنو حنيفة، ثم فشا في العرب[٨].

وفي ذلك قال القرآن الكريم:

﴿وأنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ ٱلإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ ٱلجِنِّفزادوُهُمْرَهَقاً﴾[٩].

لقد خففت الاكتشافات العلمية واستخدام بعض العوامل الطبيعية الكثير من مشكلات الحياة، وتغلّبت على بعض الآلام والآفات التي كان إنسان الأمس يعاني منها. فالحامل اليوم في كثير من بلدان العالم تضع حملها بكل سهولة بمعونة الأطباء المتخصِّصين في دورٍ للولادة مجهَّزة بمختلف الأجهزة والوسائل الطبيّة الحديثة، حيث لم يعد للسحر والسحرة مكان. بل أمكن إنقاذ الأم من كثير من الأخطار والآلام التي كانت تحيق بها في السابق.

وفي الإسلام، لأول مراحل اللجوء إلى الله والاستعاذة به هو الاستفادة من قوانين الخليقة وسننها لدفع البلايا والآفات. وهذا ما تكرَّرت الإشارة إليه في أقوال أئمة المسلمين.

المـرضى الذين يريدون، بالاستعاذة بالله تعالى، أن ينجوا من شر المرض، عليهم قبـل كل شيءٍ أن ينفّذوا البرنامج العلاجي ـ وهو ملجأ إلهي ـ وأن يطلبوا الشفاء من الله عن طريق نظام الخليقة.

---

(٧) مناهج الفلسفة: ٤١٤

(٨) مجمع البيان ١٠: ٣٦٦.

(٩) الجن: ٦.

عن علي بن أبي طالب(ع)، قال: قيلَ يا رسولَ الله، نتَداوى؟ قال(ص): *«نَعَم، مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعالى مِنْ داءٍ إلّا وَقَدْ أَنْزَلَ مَعَهُ دَوَاءً»*[١٠].

ومن يريد أن يستعيذ بالله تعالى من بلاء الفقر، عليه أن يلوذ بالملاجىء التي أقرَّها الله في نظام الخليقة، وأول ملجأ للخلاص من شرّ الجوع والفقر هو السعي والعمل. على جميع أفراد البشر أن يعملوا من أجل حياة شريفة، وأن يستخدموا قواهم استخداماً صحيحاً مثمراً، لينعموا بفضل الله ونعمته في ظل السعي والمجاهدة.

أمّا الأصحّاء الأقوياء الذين يملكون وسائل العمل في متناول أيديهم ويستطيعون مكافحة الفقر عملياً، ولكنهم، بسبب من كسلهم وبطرهم يجلسون مكتوفي الأيدي تبطّلاً، ويكتفون بالاستعاذة بالله تعالى بألسنتهم، فإن استعاذتهم هذه فضلاً عن كونها لا قيمة لها من حيث الشرع، فإنهم مطرودون ومبغوضون عند الله وأوليائه.

كان أمير المؤمنين(ع)، يقول: *«مَنْ وجَدَ ماءً وتُراباً ثُمَّ افتَقَرَ، أَبْعَدَهُ اللهُ»*[١١].

فيما يتعلق باستثمار العلل والعوامل التكوينية، يتساوى الإلهيّون والماديون، فللجميع أن يستفيدوا من الوسائل الطبيعية في مختلف شؤون الحياة، مع فارق أن رجاء الماديين قائم بالعوامل المادية، فإذا يئسوا من تلك العوامل قعد بهم اليأس. أمّا الإلهيّون فأملهم قائم بخالق الكون، فهم يباشرون عملهم بالوسائل الطبيعية، ولكنهم لا يقنطون إذا يئسوا من تلك الوسائل. وبتعبير آخر، يعتقد الماديون أن المادة هي المؤثرة، وكل أملهم محصور في العوامل الطبيعية على قدر معلوماتهم عنها، وإذا ما انقطع أملهم من الأسباب المادية، استولى عليهم اليأس والقنوط. أما الإلهيّون فالمؤثر الحقيقي عندهم هو خالق العالم، ويرون أن القوانين التكوينية هي السنن الإلهيّة، وهم يعتمدون قدرة الله تعالى اللّا متناهية، ولا يعلّقون آمالهم على العلل والأسباب الطبيعية

---

(١٠) جعفريات: ١٦٧

(١١) قرب الإسناد: ٥٥.

أبداً، وإذا ما يئسوا من الأسباب المادية توجهوا إلى الله تعالى وأسلموا أمورهم إليه، ورفعوا أيديهم بالدعاء والتضرّع، يطلبون منه أن يجعلهم موضع رحمته وأن يدفع عنهم الشرور والآفات. وقد يستجيب لهم سبحانه وتعالى في صورتين، فقد يدفع عنهم الشرور والآفات عن طريق تنظيم العوامل العادية التي تؤدي إلى دفعها، وقد يدفعها عنهم بطريق خارق للعادة بمشيئته التي لا تُرَدُّ، وقد تحقّقت هاتان الصورتان كلتاهما في حياة الأنبياء وأتباعهم مرّات عديدة، نشير فيما يلي إلى مثالين منها.

في إحدى الحروب الإسلامية حاصر جند الإسلام إحدى قلاع العدو بهدف الاستيلاء عليها بالقوة العسكرية. غير أن القلعة كانت حصينة وطالت أيام الحصار. وعلى الرغم من أن جند الإسلام بذلوا خلال تلك المدّة جهوداً جبّارة ومساعي حميدة، فإنّهم لم ينجحوا في اقتحام الحصن، فأخذت معنويات الجيش تهبط شيئاً فشيئاً ويضعف عزمهم على الاستمرار. وإذ وجد قائد الجيش أنّ انتصاره في تلك الظروف مستبعد جداً، توجّه إلى الله تعالى واستعاذ به من ذُل النكوص، فصام أياماً، ورفع يديه بالدُّعاء إلى الله مخلصاً صادقاً، طالباً الانتصار على العدو، فتقبّل الله تعالى دعواته، وسرعان ما استجاب لها.

كان القائد في أحد الأيام جالساً فشاهد كلباً أسود يركض بين المعسكر. فجلب ذلك انتباهه وراح يدقق في ذلك الكلب. وبعد ساعات وجد الكلب نفسه على حائط القلعة، فأدرك أن للقلعة طريقاً إلى الخارج، وأن الكلب يأتي من القلعة إلى المعسكر بحثاً عن طعام ويعود إليها. فكلّف بعض الجند بتقصّي مسير الكلب لمعرفة الطريق الذي يسلكه، ولكنهم لم يوفّقوا للعثور على الطريق. فأمر بجراب أن يلوّث بالسمن لإغراء الكلب به، ويملأ بالدخن ويثقب في عدة مواضع لينساب منه الحب فيما يجر الكلب الجراب إلى حيث يريد. ففعلوا ما أمر به، وألقوا بالجراب في المعسكر في طريق الكلب. وفي اليوم التالي خرج الكلب من القلعة متجهاً إلى المعسكر حتى وصل إلى الجراب المدهون، فعضّ عليه بأسنانه وكرّ راجعاً إلى القلعة، مخلّفاً وراءه حبّات الدخن التي كانت تسقط من ثقوب الجراب. وبعد ساعة تتبع الجند آثار الدخن

على الأرض حتى وصلوا في النهاية إلى نقب كبير كان يسمح بالدخول إلى القلعة بيسر وسهولة. فعيّن القائد موعداً لجنده فاجتازوا النقب إلى داخل القلعة، وهاجموا العدوّ الذي لم يجد بدّاً من الاستسلام، وانتهى الحصار بانتصار الإسلام[١٢].

لقد كان هذا الكلب دائم التردد على المعسكر، ولكن أحداً من الضباط والجنود لم يلتفت إليه، لأنّ أحداً منهم لم يخطر له أن يكون هذا الحيوان سبباً لفتح القلعة ولانتصار المسلمين. ولكن الله سبحانه وتعالى، وعندما استجاب دعوة القائد، أوقع في قلبه أن يتنبّه إلى الكلب كسبب من أسباب الانتصار، وبذلك أخرج المسلمين من مشكلتهم الكبرى، وفتح أمامهم باب الظفر، وأنقذهم من ذلّ الهزيمة والانكسار.

إنّ الله تعالى يستجيب في أغلب الحالات لدعوات المؤمنين بطرق عادية، كما استجاب لقائد المسلمين المذكور، فيوفّر الأسباب المألوفة لدفع الآفات عنهم.

إلّا أنّه تعالى قد يشاء أن يصون المؤمنين من الأخطار والبلايا بطرق خارقة للعادة وعن طريق إزالة العلّة التي تتهددهم بالخطر، ومن ذلك صيانة خليل الرحمن من الاحتراق بنيران عبَدَة الأصنام.

لقد حطّم النبي إبراهيم(ع) أصنام المشركين، فأثار غضبهم ، فقرروا أن يحرقوه دفاعاً عن أصنامهم. فأوقدوا ناراً عظيمة وألقوا به فيها. في مثل هذه الحالة لم يكن أمام إبراهيم الخليل مفر من الاحتراق في تلك النيران ليستحيل رماداً. ولكن الله لم يرد له ذلك، بل أراد أن يصونه من نيرانهم، فقال للنار:

﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وسَلَاماً علَى إبرَاهِيمَ﴾[١٣].

فانقلبت النارَ المحرقة برداً وسلاماً عليه بمشيئة الله تعالى الخاصة، وتبدّل ذلك السعير الملتهب إلى جوّ من السلامة وخالٍ من كل خطر، وانهارت خطة المشركين في إحراق نبي الله، وظلّ سليمًا في حفظ الله وصيانته.

---

(١٢) ملخص من جوامع الحكايات: ١٥٧.

(١٣) الأنبياء: ٦٩.

ولتبيان الاختلاف بين يأس الماديّين والإلهيّين من الأسباب الطبيعية، ولتوضيح كيفية الاستجابة للدعاء بالطرق العادية والخارقة للعادة، يمكن أن نتناول موضوع المرض بالبحث، وأن ندرس معنوية المرضى والممرضين دراسة دقيقة.

لنفرض أن شخصاً أُصيب بمرض مجهول، وطالت أيام مرضه، وساء مزاجه وضعف. وعلى الرغم من أنّه يكون طوال مرضه قد راجع الأطباء، وأجرى مختلف الفحوص والاختبارات، واستعمل أنواع الأدوية، ولم يترك وسيلة طبية إلّا وتوسّل بها، ولكنه لم يبرأ من علّته، بل ازدادت عليه شدة، حتى اعترف الأطباء بعجزهم عن تشخيص مرضه وعلاجه، وامتنعوا عن عيادته.

في مثل هذه الحالة، إذا كان المريض وأهله من الماديّين، ولا يرون علاجاً له إلّا عن طريق الوسائل الطبيّة الموجودة، فإنّ حالتهم ستكون اليأس من شفاء المريض، كما يقنط المريض من شفائه، ويعتبر حياته قد انتهت. وهذا الشعور نفسه يُسرع في تحطيمه وتقريب ساعته. كما أن أهله الساهرين على راحته يصابون باليأس من شفائه لاعتراف الأطباء بعجزهم عن ذلك، فيغسلون أيديهم من مريضهم، ويتركونه وشأنه، قاطعين كل أمل في بقائه حيّاً مدة طويلة.

أمّا إذا كان المريض وأهله من المؤمنين بالله تعالى، ويرون أن شفاء المريض بيد الله، فإنّهم لا يصابون باليأس، بل هم، في مثل هذه الحالة، يلجأون إلى الله تعالى، يرفعون أيديهم إليه بالدعاء والتوسّل، طالبين منه شفاء المريض بكل خلوص نيّة. وإذا ما استجاب الله تعالى لدعواتهم فذلك قد يكون عن طريق إيجاد سبب عادي، كأن يرجع المريض وأهله إلى طبيب آخر، وإن يكن غير مشهور ولا معروف، فيلهمه الله تعالى ما يدرك به منشأ المرض ويشخّصه، وينظّم له برنامجاً فاعلًا للعلاج، فيتحسّن حال المريض ضمن المعالجات الطبية المألوفة. وقد يكون شفاؤه عن طريق وسيلة خارقة للعادة، بعيداً عن المعالجات الطبية، فيستجيب لدعائهم بشفاء المريض بإرادته القيُّومة ومشيئته الخاصة.

إن الذين يحصرون أفكارهم في العلل والمعلولات الطبيعية، وينظرون إلى جميع

الأمور من الناحية المادية، يقولون باستحالة الشفاء بالطريق الثاني. أمّا أتباع مدرسة الأنبياء الإلهيّين فيصدِّقون هذه الحقيقة، ويرونها أمراً واقعياً ممكن الحدوث.

## الدعاء

«يقول الدكتور (كارل): الدعاء معراج معنوي تنجذب فيه الروح نحو خالق الكون. لا مكان للفكر في هذه الحالة الروحانية، ويعجز الفلاسفة ورجال العلم عن فهم هذه المرحلة وإدراكها.

«لقد اعتقد الناس، في كل عصر ومكان، بنوع من العلاج السريع للأمراض في المعابد، والمزارات، والأماكن المقدَّسة. ولكن بعد تقدّم العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر ضعف أساس هذا الاعتقاد. ولكن المشاهدات والملاحظات المتوفرة لدينا توجب ضرورة التعمّق في تأمل هذا الأمر.

هناك مشاهدات كثيرة جمعتها مؤسسة (لورد) الطبيّة. هذه المعلومات المتوفرة حالياً عن تأثير الدعاء الفوري في شفاء الأمراض، تستند إلى تقارير عن مرضى مصابين بأمراض متنوعة، مثل السل العظمي، وخراج السل البارد، والقرحة المتعفّنة، والسل الجلدي، والصمم، والسرطان، وغيرها من الأمراض التي شُفي أصحابها، بطرق لا تختلف كثيراً بين هذا وذاك من المرضى. ففي معظم الحالات يشعر المريض بألم شديد ثم يبرأ من المرض برُءاً تاماً، وبعد بضع ثوان، أو دقائق، أو ساعات، في الأكثر، تلتئم الجروح وتزول أعراض المرض كليّاً»[١٤].

«دنيا العلم تختلف عن دنيا الدعاء، ولكنها ليستا متباينتين، مثل عدم تباين العقلاني مع اللّا عقلاني. هذا إنسان يحتاج إلى العون، فيدعو، فيأتيه العون. إنَّ صحة هذا الأمر خالدة، مهما يكن التفسير الذي يأتي به المستقبل»[١٥].

---

(١٤) الإنسان ذلك المجهول: ١٤١.

(١٥) منهاج الحياة وتقاليدها: ١٣٨.

نستخلص مما مرَّ أنَّ خالق الكـون القدير قد أقام الطبيعة على أُسس من التضـادّ، وخلق الإنسـان قرين العـذاب والنصب. طبيعـة العـالم ممزوجـة بالآلام والمصائب، وحياة الإنسان غير ممكنة بدون الابتلاء بالآفات والشرور الطبيعية، ولكن باللجوء إلى الله تعالى والاستعاذة به يمكن درء بعض تلك البلايا، ودفع بعض الشرور والآفات.

الخطوة الأولى في اللوذ بالله تعالى هي الاستفادة من العوامل الطبيعية في نظام الخلق، إذ إن كل عامل منها بمثابة ملاذ جعله الله تعالى للبشر، ولجميع أفراد البشر (مؤمنين وماديين) أن يلجأوا إليها ليحموا أنفسهم نسبياً من الشرور والآفات الطبيعية.

الخطوات التالية من اللجوء تختص بالمؤمنين بالله. وكما سبق شرحه، يستجيب الله تعالى لطلب لجوء المؤمنين إمّا بوساطة الطرق المألوفة بإيجاد الأسباب والعلل، فيحميهم من البلايا والآفات، وإما بغير وساطة سبب، بل بمشيئته القيُّومة يحقق لهم طلبهم ويصونهم من البلاء.

والإنسـان، بالإضـافة إلى الابتلاء بالحوادث الطبيعية، والكوراث المفاجئة، يصاب أيضاً بالشرور النفسية والسيِّئات الأخلاقية. وقد سبق القول بأن الأمراض الأخلاقية والعيوب المعنوية أخطر بكثير من الكوارث الطبيعية والحوادث المفاجئة. وقد أُشير إلى هذا في الأحاديث الإسلامية.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*يا بُنَيَّ إنَّ منَ البلَاءِ الفاقَة، وأشَدُّ مَنْ ذَلِكَ مَرَضُ البَدَنِ، وأشَدُّ مِنْ ذلك مَرَضُ القَلْب*»(١٦).

خطب رسـول الله(ص)، في حجّـة الوداع في الحجيج المجتمع في عرفات، فتحدَّث عن أهم موضوع ابتلي به المسلمون يومذاك، ولكنه في البداية، وبعد الحمد لله والثناء عليه وطلب الغفران منه، تكلم على شرور النفس قبل كل شيء وعن أعمال المجتمع الذميمة، واستعاذ بالله من هذا البلاء الكبير الذي عنه تنشأ التعاسة الفردية

---

(١٦) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ١٠٦.

والاجتماعية، فقال:

«*الحَمْدُ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتعِينُه ونَسْتَغفِرُهُ ونَتوبُ إليهِ، ونَعوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أنفُسِنَا وسيِّئاتِ أعمالِنَا...*»(١٧).

إنَّ منشأ الشرور النفسية والآفات الأخلاقية هو الدوافع الغريزية، والأهواء النفسية. فهذه الغرائز والأهواء تحكم الإنسان بكل قوة واقتدار، وهي لا تعرف حدّاً لطلباتها تقف عنده، ولا تدري ما هي الأخلاق والفضيلة، ولا تُعنى بالحق والمصلحة. إنَّما هي تريد إشباع حاجتها، وهي لكي تحقق هدفها لا تتورع عن ارتكاب أيِّ عمل قبيح ولا أخلاقي.

وأحياناً تثير هذه الغرائز والأهواء الشرور والمفاسد مباشرة، فتوسوس لنا بارتكاب الإثم والخيانة، وتقوّي في نفوسنا الأفكار الباطلة الخبيثة، وتحرّكنا وتدفع بنا إلى الإعتداء على حرمة القانون والأخلاق.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*مَنْ كَثُرَ فِكْرُهُ في المَعاصي دَعَتْهُ إليْها*»(١٨).

وفي أحيان أخرى تستغل الشياطين الظاهرة والخفيّة تلك الغرائز والأهواء، فتوقظ بوسوساتها المضلة الغرائز النائمة، وتحرّك الشهوات، وتدفع بأصحابها إلى طريق الشر والفساد. وقد جاء ذكر هاتين الحالتين في القرآن الكريم. الحالة الأولى يشير إليها في معرض بيان إحاطة علم الله بكل شيء:

**﴿ولَقَدْ خلَقْنَا ٱلإنْسَانَ ونَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نفْسُهُ ونَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حبْلِ ٱلوَرِيدِ﴾**(١٩).

والحالة الثانية تشير إليها سورة «الناس» حيث يأمر الله الناس بأن يستعيذوا بالله من وسوسة شياطين الجن والإنس:

---

(١٧) ناسخ النواريخ، حالات الرسول(ص): ٤٩٩.

(١٨) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٦٦٤.

(١٩) ق: ١٧.

﴿...مِنْ شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[٢٠].

إن الحيوانات التي تعيش بطبيعتها في مجتمعات، مثل النمل والنحل، مدفوعة في حياتها الاجتماعية هذه بغرائزها. وهي تلتزم ببرنامج التعايش بدقة، ولا تخالف القوانين التكوينية، ولا يعتدي أحدها على الآخر. الإنسان هو الوحيد الذي يراوده الإثم والعصيان، فيعتدي على حقوق إخوانه من بين البشر، ويدوس في سبيل تحقيق أهوائه على مصالح المجتمع.

«الإنسان دائم الوسوسة في نفسه في أن يشبع إحساسه بالحاجة عن طريق الاعتداء والتجني، وإن أضرّ بغيره من أبناء جنسه، وأن يستثمره ويمتّع نفسه جنسياً بدون رضى الطرف الآخر، ويستحوذ على أمواله ويهينه. إن هذا العداء البدائي الذي يحمل الناس على التخاصم فيما بينهم، يضع المجتمع المتحضِّر في معرض الانهيار، دون أن تصل المساعي المبذولة في هذا الخصوص إلى هدفها المطلوب حتى الآن، إذ ما زال الاعتداء والتجنِّي مستمرين فيما وراء الظاهر الاجتماعي»[٢١].

«يواصل النمل والنحل عمله الاجتماعي بغرائزه الطبيعية، ولا حاجة به إلى القوانين الأخلاقية، وبحسب الظاهر لا يشعر بأيِّ وسوسة في صدره لارتكاب أيِّ ذنب. أما فيما بين بني البشر فتجد الصراع قائماً بين الفرد والمجتمع. كل فرد يشعر بأنه شخص مستقل كما يشعر في الوقت نفسه بأنه عضو في مجتمع، ولما كان هذان الشعوران يصدران عن طبيعته، كان لا بدَّ له من قوانين أخلاقية ونواهٍ قانونية. إن العلاقات غير السليمة بين الناس سببها أنه عندما تتعارض المصلحة الشخصية مع المصلحة الاجتماعية، تتغلب النوازع الشخصية على

---

(٢٠) النّاس: ٤ ـ ٦.

(٢١) مذكرات فرويد: ١٢٣.

الدوافع الاجتماعية»[٢٢].

لقد انتشر الفساد الأخلاقي والجريمة، لسوء الحظ، بتقدم الحياة المعتمدة على الآلة، وفي كل عام تزداد نسبة الجرائم والجنايات في العالم، وكأن تقدم العلوم الطبيعية بقدر تخفيفه من الآفات والبلايا التكوينية، قد زاد من نسبة الشرور النفسية والآفات الأخلاقية، أو حتى أكثر من ذلك. فالحقّ والفضيلة قد فقدا قيمتهما في عالمنا اليوم، ونُسي العدل والإنصاف، ولجأ الإنسان إلى المعاندة والعدوان وعُرِّضَت الحضارة الإنسانية القيّمة إلى خطر محقّق.

«إنَّ البشرية ـ بحسب نظرية فرويد ـ قد أُبتليت بداء وبيل، وإنَّ الحضارة قد أُصيبت بالاختلال. إلّا أنَّ البُرء من هذا الداء ممكن باتّباع معالجة جادّة. المهم في الأمر هو أنّنا يجب أن نسعى ونعمل من أجل تغيير الحالة السائدة، لأن الإنسانية مهدّدة بعاقبة مؤلمة مرّة.

يقول (فرويد): ليس صحيحاً أن نقول: إن البشرية منذ بدء الخليقة، وعلى الرغم من التقدم العلمي والفني، لم تبلغ درجةً مّا من التكامل، وأنها ما زالت كما كانت في بداية التاريخ، ذلك لأن في داخل الإنسان أُمنية روحية خاصة وقوية تعمل على التوفيق تدريجياً بين الضغوط الخارجية والحالات النفسية الباطنية، وهذا العامل النفساني، الذي يحملنا على عدم إبراز غرائزنا بشكل سافر، يحتفظ بأهميته دائمًا. هذا العامل القوي رأسمال نفساني حضاري ثمين، وتعزيزه يبعث على تقدم المدنية وتخفيف الضغوط الخارجية.

هذا الرأي يشرحه السيد (إدجار بش)، وهو أُستاذ فرنسي، فيقول: بهذا يبيّن فرويد أُصول نظرياته ونتائج دراساته، قائلًا: إن تلك القوة الحقيقية التي تبدل الغرائز الابتدائية المناوئة للمجتمع إلى ميول نحو المجتمع موجودة في هذا العامل الإنساني السامي. إن هذا العامل وهذه الأمنية الروحية القوية هما اللّذان يسمحان بقيام حياة منسجمة، أو، في الأقل، يحولان دون وقوع

---

(٢٢) الآمال الجديدة: ٧٩.

تصادمات شديدة»[٢٣].

إذا أُخذ بنظر الاعتبار أن فرويد لا يؤمن بخالق الكون، ولا بوجود ضمير أخلاقي فطري، فإن السؤال التالي يطرح نفسه: ما ذا يعني فرويد بالأمنية الروحية القوية التي هي رأسمال نفساني ثمين، والتي يراها عاملاً على تعديل الغرائز والتقدّم الحضاري؟ هل هي العقل؟ هل هي الإحساس بضرورة التمدُّن؟ أم هي شيء آخر؟

إذا كان المقصود هو العقل، فإنّنا نعلم أن العقل ضعيف أمام جبروت الغرائز ولا يقوى على مقاومتها. وإذا كان المقصود هو الإحساس بضرورة التمدُّن، فإنّنا نرى أُناساً متمدِّنين يحسُّون بهذا الإحساس ولكنهم يعتدون على حقوق الآخرين، ويقدِّمون مصالحهم على مصلحة المجتمع. وإذا كان المقصود من تلك الأمنية الروحية القوية والرأسمال النفساني شيئاً آخر، فما هو هذا الشيء؟

يبدو أن الأستاذ الفرنسي لم يدرك قصد فرويد من تلك القوة الحقيقية التي تحوِّل الغرائز الابتدائية المناوئة للمجتمع إلى ميول موالية له. كل ما في الأمر أنّه أضاف وصف «العامل الإنساني السامي» إلى أوصاف فرويد التي أوردها في أقواله. وفي ختام مقاله يترك تعريف تلك الحقيقة المنجية والرأسمال الثمين الذي يشير إليه فرويد باعتباره العلاج الناجع لمرض البشرية وللحؤول دون انهيار الحضارة، إلى ما يراه فرويد نفسه وإدراكه الخاص، فيقول:

«إنّ الذين يعرفون فرويد ويعرفون صلابته وحبه الممزوج بالتعصُّب للحقيقة، يعرفون أيضاً أنّ فرويد عندما يتحدّث عن الأمل لا يقصد شيئاً وهمياً، بل إنّه ينظر إلى حقيقة أدركها بحسب تعقله لها»[٢٤].

في مدرسة الأنبياء الإلهيّة، تلك الأمنية الروحية والعامل الإنساني السامي الذي يمتزج بمصائر الناس، ويستطيع أن يمنعهم من ارتكاب الشر والفساد، هو

---

(٢٣) مذكرات فرويد: ١٣٢.

(٢٤) (ن.م).

المعرفة الفطرية بالله. تلك هي الرأسمال الثمين الذي يستطيع أن يكبح جماح الغرائز العنيدة، ويصلح من الميول المتطرفة على وفق مصلحة المجتمع، وينقذ البشرية من خطر الانهيار. يقول القرآن الكريم في هذا:

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾(٢٥).

إن النفس الأمارة تحرض الإنسان على ارتكاب الأعمال القبيحة، ما لم يشمل فضل الله حال ذلك الإنسان فيصونه من الخطر.

إنَّ الرجال الصالحين من ذوي القلوب الطاهرة الذين يعوذون بالله من خطر الوقوع تحت سيطرة أهوائهم النفسية وغرائزهم، يستمدُّون منه العون للتغلب على النفس الأمّارة بالسوء، وللوقاية من شرورها ومن الآفات الأخلاقية.

وبحسب الشرح الذي سوف نورده نجد أن الاستعاذة بالله من الشرور النفسية أفضل وسيلة مؤثرة لتزكية النفس، وإصلاح الأخلاق، وطهارة العمل. ولكي تتضح جوانب هذا الأمر أكثر، لا بدَّ من الإشارة إلى بعض النقاط:

١ـ اللُّجوء إلى الله من الشرور النفسية لا يعني أنَّ اللاَّجئين سوف يكونون محصّنين ضد جميع الأفكار السيِّئة، وأن ضمائرهم ستكون منزَّهة من جميع الأفكار المخالفة للأخلاق، لأن هذا غير ممكن، إذ إن بعض الوساوس النفسية والنوايا غير الأخلاقية، أشبه ببعض الآفات الطبيعية والحوادث المفاجئة التي لا يمكن تجنُّبها، وإنَّ الناس مبتلون بها شاءُوا أم أبوا. وقد ورد هذا في كثير من الأحاديث الإسلامية.

إنَّ الاستعاذة بالله في أمثال هذه الحالات تمنع المؤمنين من إخراج نواياهم السيِّئة إلى حيِّز التنفيذ، وتقيهم من تلويث أذيالهم بالإثم والمعصية.

عن رسول الله(ص): *«ثَلاثٌ لَا يَنْجو مِنْهنَّ أَحَدٌ، الظَّنُّ، والطِّيرَةُ، والحَسَدُ. وسَأُحَدِّثُكُم بِالمخْرجِ مِنْ ذَلِكَ. إِذا ظَنَنْتَ فَلا تُحقِّقْ، وإذا تَطَيَّرْتَ فَامضِ، وإذا حَسَدْتَ فَلا تَبْغِ»*(٢٦).

---

(٢٥) يوسف: ٥٣.

(٢٦) مجموعة ورّام ١: ١٢٧.

وعنه(ص): «*لِكُلِّ قَلْبٍ وسْوَسَةٌ، فَإذَا فَتَقَ الوَسْواسُ حِجَابَ القَلْبِ ونَطَقَ بِهِ اللِّسانُ، أُخِذَ بِهِ العَبْدُ، وإذا لَمْ يُفْتَقِ الحِجَابَ ولَمْ يَنْطِقْ بِهِ اللِّسانُ فلا حرَجَ*»[٢٧].

٢ـ إن الشرور الطبيعية والآفات المفاجئة تسببها العوامل التكوينية والحوادث التصادفية، والقسم الأعظم من تلك العوامل يبقى خارج نطاق قدرتنا وإرادتنا، فالحوادث المنغِّصة تقع بموجب ظروفها الخاصة بها، شئنا أم أبينا، فإذا كنّا في طريقها أصابتنا شرورهاوأذاها. أمّا الشرور النفسية والآفات الأخلاقية فتنشأ عن الأهواء النفسية والغرائز الحيوانية. وعلى الرغم من أنَّ الأهواء والغرائز تسيطر علينا بكل قوة واقتدار، وأن التغلّب عليها ليس من السهولة بمكان، إلاّ أنَّها، على ما تملك من قوة، تبقى في إطار إرادتنا إلى حدٍّ كبير، فإذا كنا جادِّين في إرادتنا وعزمنا، استطعنا أن نقهرها ونسخِّرها لإرادتنا، فنكبح جماح الرغبات المتمردة ونضع زمامها بيد العقل، ونصون أنفسنا من الآفات والسيِّئات الأخلاقية والأفكار الشيطانية. وعليه، فإنَّ مهمة الناس في مكافحة الشرور النفسية أصعب بكثير من مكافحة الشرور الطبيعية. إنَّ الذين يشعرون بخطر شرورهم النفسية، ويريدون التحصُّن ضدَّها باللُّجوء إلى الله تعالى، عليهم أن يستخدموا إرادتهم وحريتهم في تقييد رغباتهم النفسية إلى أقصى حدٍّ ممكن، ويعمدوا إلى تزكية النفس وتنـزيهها ويزيلوا، بالإيمان، الأخلاق السيِّئة من ذاكرتهم، ويتخلَّقوا بالسجايا الإنسانية، وبذلك يوفِّرون لأنفسهم أسباب الوقاية من الآفات النفسية.

٣ـ مثلما أنَّنا يجب أن نلوذ من الشرور الطبيعية بالملاجىء التكوينية الإلهيّة، كذلك يجب أن نلوذ من الشرور النفسية بالملاجىء التشريعية الإلهيّة. إن ملاجىء الله التكوينية هي القوانين والسنن الإلهيّة التي استقرت في نظام الخلق بصورة علل طبيعية للأحداث. أمّا ملاجىء الله التشريعية فهي التعاليم الإلهيّة التي أقرَّها تعالى في الشرع المقدَّس بصورة أُسس اعتقادية ومناهج تربوية.

---

(٢٧) سفينة البحار، القمّي، مادة «وسا»: ٦٥٥.

إن الانتفاع بالقوانين والسنن الطبيعية ليس مقصوراً على الإنسان وحده، بل تشاركه في هذا الانتفاع الحيوانات، بهداية الله التكوينية، من أجل دفع الآفات والبلايا الطبيعية. أما التعاليم الإيمانية والتكاليف الدينية ـ وهي ملاجىء الله التشريعية ـ فتختص بالإنسان دون الحيوان، إذ إن الحيوانات لا تداخلها الوسوسة لارتكاب إثم أو اعتداء، ولا تخطو خطوة واحدة خارج إطار غرائزها الطبيعية. فالإنسان هو الذي يملك حرية العمل في اختيار الإتجاه نحو الفساد الأخلاقي، وفي التفكير في ارتكاب الآثام والمعاصي، فيعتدي عملياً على أبناء جنسه. لذلك، ولكي يصان من الفساد والانحراف لا بدّ له من قوانين وسنن أخلاقية. ولهذا نجد في سورة «الفلق»، التي تتناول الشرور الطبيعية والآفات التكوينية، أي إشارة إلى الناس، وإنما يشير الله تعالى إلى نفسه بأنه «رب الفلق» الذي يشق عمود النور في الصباح، أو رب عالم التكوين كله. ولكنه في سورة «الناس»، التي تتناول الوساوس الشيطانية والشرور النفسية المختصة بالإنسان، يشير إلى الناس ثلاث مرات، ويصف نفسه بأنه مربٍّ الناس، وملك الناس، ومعبود الناس:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾.

إن الله تعالى بذكره هذه الصفات الثلاث، إنّما يقدِّم، في الواقع، ثلاثة ملاجىء يمكن للناس أن يلوذوا بها من الشرور النفسية والأفكار الشيطانية. الملجأ الأول هو التربية الربانية، والملجأ الثاني هو السلطنة الإلهيّة، والملجأ الثالث هو عبادة الله. فمن يرغب في أن يتمتع بحماية الله تعالى من خطرات الأهواء النفسية والسيِّئات الأخلاقية فيصون نفسه منها، عليه أن يلوذ بهذه الملاجىء الدفاعية المهمة الثلاثة في الوقت نفسه وعلى التوازي، وذلك بأن يلائم أعماله وأفكاره مع ظروف تلك الملاجىء ومقتضياتها. وللتوضيح لا بدَّ من الإشارة إلى كل واحد منها باختصار:

### التربية الربّانيّة

القسم الأكبر من التشريعات الإلهيّة تتناول التعاليم الأخلاقية والتمييز بين

الفضيلة والرذيلة. وإنك لتجد مئات الآيات في القرآن الكريم وآلاف الأحاديث عن أئمة المسلمين العظام تدور كلّها حول ذلك. إن الدين الإسلامي في مناهجه التربوية عملَ على إشباع الغرائز والميول النفسية بقدر مقدَّر، واضعاً الحدود بين ما يجوز وما لا يجوز، وطالب المسلمين بالتزامها. وكلما ازدادت نسبة التزام المسلم بتلك المناهج الأخلاقية، وتكييفه أهواءه بموجبها، ازداد بالنسبة نفسها اطمئنانه من صيانة نفسه من الشرور النفسية والآفات الأخلاقية. والعكس صحيح أيضاً، فكلما ازداد تهاونه في التمسّك بتلك المناهج التربوية الرَّبانيَّة، ازداد ابتلاؤه بالوساوس الشيطانية والأفكار والأعمال اللّا أخلاقية.

قال الإمام الصادق(ع): *«لا يَتَمَكَّنُ الشَّيْطَانُ بالوَسْوَسَةِ مِنَ العَبْدِ إلَّا وَقَدْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ واسْتَهانَ بأَمْرِهِ وسَكَنَ إلى نَهْيِهِ ونَسِيَ اطِّلاعَهُ على سِرِّهِ»*[٢٨].

ومثلما أن الاستعاذة بالله تعالى من الأمراض الجسمية تتطلب العمل بموجب السنن التكوينية التي وضعها الله تعالى وتنفيذ البرامج الصحيّة، فإنَّ الاستعاذة به سبحانه من الأمراض الأخلاقية أيضاً تستوجب تنفيذ السنن التشريعية الإلهيّة والتزام البرامج التربوية. وكما أن الإنسان اللّاأباليّ الذي لا يمتنع عن المأكولات والمشروبات المضرَّة، ولا يترك استعمال المواد المخدرة الخطرة، يكون عرضة للأمراض الجسمية، فإنَّ الإنسان اللّا أباليّ الذي يدوس بقدمه على مبادىء الأخلاق والفضيلة في سبيل الحصول على مبتغاه، ويرتكب كل سيِّئة لإشباع شهواته وغرائزه، لا يمكن أيضاً أن يكون بمنجاة من الشرور النفسية والآفات الأخلاقية.

يطلب الإمام زين العابدين(ع) في دعائه من الله تعالى أن يعيذه، فيقول:
*«اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ هيجانِ الحِرْصِ، وسَوْرَةِ الغضَبِ، وغلَبَةِ الحسَدِ، وضَعْفِ الصَّبْرِ..ومتابعَةِ الهوى، ومُخالفَةِ الهُدى...وسُوءِ الولايَةِ لِمَنْ تحتَ أيدِينا، وترْكِ الشُّكرِ لِمَنْ اصْطنَعَ العارِفَةَ عنْدَنا، وأن نعضُدَ ظالِماً، وأن نخْذُلَ ملْهوفاً، أو نرُومَ ما ليسَ*

---

(٢٨) (ن.م): ٦٥٤.

*لنا بِحَقٍّ، أو نقولَ في العلْمِ بِغَيْرِ عِلْمٍ*»[٢٩].

يبين الإمـام السجّاد(ع) في هذا الدعاء جانباً من التشريعات الإسلامية في المسائل الأخلاقية. وعلى الرغم من أن الإمام قد أورد ذلك بصورة دعاء، ولكنه في الحقيقة كان يبيّن لأصحابه أن المستعيذ بالله تعالى يجب أن يسعى لإصلاح أخلاقه وأعماله، وأن يستعين به على قهر الغرائز المتمرِّدة والتغلّب على هوى النفس، فيحترم حقوق الآخرين وحدودهم، وأن يصوغ نفسه طبقاً للبرامج التربوية الإلهيّة، لكي يكون بحماه في حرز حريز من الشرور النفسية.

لا بدَّ من القول أيضاً إن اتِّباع التعاليم الإلهيّة والتزام التشريعات الرَّبانيّة، لا تصون المرء من شرور الآفات النفسية والأخلاقية فحسب، بل إن ذلك يصنع منه إنساناً حقّاً، ويفيض عليه النبل وشرف النفس، ويجعله متخلقاً بمكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية.

إن محمَّد بن أبي عمير كان رجلًا بزازاً فذهب ماله وافتقر، وكان له على رجل عشرة آلاف درهم، فباع داراً له كان يسكنها، بعشرة آلاف درهم وحمل المال إلى بابه، فخرج إليه محمَّد بن أبي عمير فقال: ما هذا؟ فقال: هذا مالك الذي عليَّ قال: ورثته؟ قال: لا، قال. وهِب لك؟ قال: لا. قال: فهل هو ثمن ضيعة بعتها؟ قال: لا. قال: فما هو؟ قال: بعت داري التي اسكنها لأقضي ديني، فقال محمَّد بن أبي عمير: حدَّثني ذريح المحاربي عن أبي عبدالله(ع) قال: «*لَا يُخْرَجُ الرَّجُلُ عنْ مسقطِ رأسِه بالدَّيْنِ*»[٣٠].

دار السكنى من المستثنيات في الشريعة الإسلامية، فلا يجوز للدائن إخراج المدين من محل سكناه بحجّة استحصال الدين. ولكن في هذه الحالة لم يكن هناك مانع شرعي يمنع ابن عمير من قبض مبلغ العشرة آلاف درهم، لأنه لم يجبر المدين على بيع داره التي يسكنها، بل قام المدين بذلك بكامل اختياره، فباع الدار برغبة منه ليسدِّد ما عليه من دين، وليعيش هادىء

---

(٢٩) الصحيفة السجّادية، الدعاء الثامن.

(٣٠) جواهر الكلام ٢٥: ٣٣٤.

البال من غصّة الدين في دار يستأجرها. ولكن تأثير التربية الإسلامية في ابن عمير كان من العمق بحيث إن كرم نفسه ونبله لم يسمحا له بأن يغض النظر عن الشرف الإنساني من أجل تسلّم دينه، وهو يرى إنساناً محترماً يترك دار سكناه في سبيل تسديد دينه. لذلك، فإنّه، على الرغم من فقره وخلو يده في تلك اللحظة وحاجته حتى إلى الدرهم الواحد، ردَّ العشرة آلاف درهم لكي يردها المدين على من اشترى منه داره، ويفسخ المعاملة، ويبقى مستقراً في دار سكناه.

نخلص من كل ذلك إلى أنَّ الله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه في بداية سورة «الناس» بأنه «ربُّ النَّاس»، وأمر أن يلجأ الناس إلى مربّيهم في الاستعاذة من شرّ الوساوس الشيطانية: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

نستدل من وصف الله تعالى نفسه برب الناس في مقام الاستعاذة به، دون الأوصاف الأخرى من خالق الناس أو رازقهم، على أن التربية الإلهيّة هي الملاذ الأول للوقاية من الشرور النفسية. فمن يريد أن يصون نفسه من الأفكار الشيطانية والسيّئات الأخلاقية، عليه أن يلوذ بملجأ التربية الإلهيّة، فيمتنع عن إطاعة هوى النفس، ويحدّد غرائزه وشهواته بحدود أوامر المربّي، وينفذ جميع التعاليم الإلهيّة في مختلف المسالك الأخلاقية.

## السلطنة الإلهيّة

الملجأ الثاني لحماية النفس من وساوس الشيطان والشرور النفسية الذي جاء في سورة «الناس» هو اللَّجوء إلى «ملك الناس».

لا شك في أن لتنفيذ المناهج التربوية الإلهيّة أثراً عميقاً في تصحيح الميول وتقدير الأهواء النفسية، فهو يربّي المجتمع على السجايا الإنسانية، ويطهّر قلوب الناس، ويحسّن أخلاقهم، ويصونهم من الشرور النفسية والآفات الأخلاقية. ولكن لا بدَّ من الالتفات إلى أنَّ المناهج التربوية لا تكفي وحدها لدرء خطر الشرور النفسية في كل وقت وكل زمان، وأن تحفظ الإنسان من الآفات الأخلاقية، ذلك لأن الغرائز والشهوات عندما تثور وتطغى يتحطم معظم السدود التربوية الأخلاقية، ويستهان بالموازين الإنسانية، وتندفع النفس الأمّارة بالسوء في عنادها واعتداءاتها. في مثل هذه الحالات لا بدَّ من سلطة تربوية أقوى تستطيع أن تكبح جماح

هذه النفس الأمّارة بالسُّوء، وأن تمنع الإنسان من ارتكاب أعمال لا أخلاقية.

يشير الله تعالى في سورة الناس إلى مسألة التربية أوّلاً، ومن ثم يصف نفسه بأنه «ملك الناس» ويأمرهم بأن يلجأوا إلى «ملك الناس»، بالإضافة إلى لجوئهم إلى «ربِّ الناس» للتخلُّص من الوساوس الشيطانية والشرور النفسية، مؤمنين بقدرته اللاّ محدودة على تحطيم قدرة هوى النفس، وكبح الميول غير المشروعة، والنجاة من أسر الغرائز والشهوات.

إن من يؤمن بسلطان الله تعالى المطلق، وبأن قدرته فوق كل قدرة، لن يسمح لنفسه بأن تفكر في معصيته أو تمتنع عن إطاعة أوامره. إنَّ مثل هذا الإنسان، مهما يكن قوياً وشديداً في نفسه، لن يركبه الغرور والعناد، ولا يفلت الزمام من يده عند طغيان غرائزه، ولا يغفل عن ذكر الله القدير ولا عن المسؤولية التي يتحمّلها أمامه، بل يضع نفسه دائماً في حمى ملك الناس، وبتذكر قدرته اللاّ متناهية يطرد عن نفسه شرورها وشرور الأفكار الشيطانية.

نصب الإمام علي (ع) مالكاً الأشتر والياً على مصر وعهد إليه بإدارة شؤون تلك البلاد الواسعة. ولكي يعينه على أداء واجبه بنقاء وبسلوك حسن، ويزن اهتماماته بالموازين الإلهيّة، ولا ينحرف عن طريق الحق والفضيلة، كتب له وصايا مسهبة بيَّن له فيها خطَّ سيره في مختلف شؤون الحكم، وكيفية تعامله مع مختلف طبقات الشعب، كالفلاّحين والتّجار والعمال وأرباب العمل وقواد الجيش والجنود والقضاة والموظفين وغيرهم. وعند الكلام على كل جانب من هذه الجوانب كان يذكِّره بالتعاليم الإلهيّة:

«فليَكُنْ أَحَبُّ الذَّخائِرِ إلَيْكَ ذَخيرَةَ العَمَلِ الصَّالِحِ. فامْلِكْ هَواكَ، وشُحَّ بنَفْسِكَ عمّا لَا يحِلُّ»[٣١].

تحمُّل مسؤولية الحكم في مصر كان صعباً ثقيلاً، وكان على مالك الأشتر أن يستعيذ بالله لكيلا يقع تحت تأثير الأفكار الشيطانية وليقي نفسه من الآفات المعنوية والسِّيئات الأخلاقية وهو في ذلك المنصب الخطير. لذلك كتب الإمام علي(ع) التعاليم الإلهيّة في عهده لحاكم مصر، وبيَّن له كيفية الحكم على وفق رضى الله تعالى، وبذلك

---

(٣١) نهج البلاغة، الرسالة: ٥٣.

عيّن لمالك الأشتر طريق الاستعاذة برب الناس كما جاء في سورة «الناس»، وعرَّفه على المناهج التربوية الإلهيّة التي هي الملجأ الإلهيّ الأول. ولكن أكبر خطر يمكن أن يهدد كبار القادة الأقوياء هو غرور السلطة، والرضى عن النفس، والتكبر، إذ إن هذه الأمراض تدفع بعقولهم إلى الظلام، فلا يعودون يرون الواقع أو يدركون الحقائق، يستولي عليهم سوء الظن والأفكار الخبيثة، وينجرُّون إلى طريق الفساد والهلاك، بوعي أو بدون وعي.

على الرغم من أن مالكاً الأشتر كان رجلاً طاهر الذيل شريف النفس، ولكنه بطبيعة الحال لم يكن معصوماً من الخطأ والزلل، لذلك لم يكن من المستبعد أن يصاب بالغرور والجبروت خلال حكمه، فيفلت زمام التوازن من يديه، وينظر إلى الناس نظرة تعالٍ وتحقير، وقد يرتكب أحياناً بعض الأعمال غير المقبولة. لذلك نبَّهه الإمام عليٌّ(ع) في عهده على هذه الأخطار المحتملة، وللحفاظ عليه من الانحراف الأخلاقي وجَّهه إلى الملجأ الثاني من ملاجىء الاستعاذة بالله تعالى الوارد ذكره في سورة «الناس»، وهو «ملك الناس»، فكتب يقول:

*«وَإذَا أَحْدَثَ لكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَـةً أو مَخِيلَةً، فانْظُرْ إلى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فوقَكَ، وقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لاَ تَقْدِرُ عليْهِ مِنْ نفْسِكَ، فإنَّ ذلكَ يُطَامِنُ إلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، ويَكُفُّ عنْكَ مِنْ غرْبِكَ، وَيفِيءُ إلَيْكَ بِمَا عزَبَ عنْكَ مِنْ عقْلِكَ. إيَّاكَ وَمُسامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ، والتَشبُّهَ بِهِ في جبَرُوتِهِ، فإنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ»* (٣٢).

إنَّ من بين المزالق الأخلاقية الخطرة هو غرور العظمة والسلطة. وهو خطر كبير يتهدد جميع ذوي النفوذ في المجتمع، مثل أصحاب المقامات الرفيعة، والمحبوبين، والمثقفين، الأثرياء، والأبطال، إذ إنَّ الشعور بالقوة والسلطان يمكن أن يغلِّف عقولهم بظلامه، فيمنعهم من أداء واجباتهم الأخلاقية لإحساسهم بالكبر والجبروت والزهو،

---

(٣٢) (ن.م).

وقد تدفعهم الأنانية وحبُّ الاستعلاء إلى ارتكاب أعمال غير مشروعة ولا إنسانية.

إن الذين ترسّخ إيمانهم بالتعاليم الإلهيّة، ويرون أنفسهم مسؤولين عن أداء واجباتهم الأخلاقية وتنفيذ المناهج التربوية الإلهيّة، يلجأون إلى «ملك الناس» في مثل هذه الحالات، وكل تفكيرهم متوجّه إلى سلطنة الله العظيمة، وبتذكرهم قدرته اللاّ محدودة يستهينون بكل ما لديهم من قدرة وسلطة، وبمعرفتهم قوة خالق الكون الجبارة يدركون مدى ضعفهم، وعلى أثر هذا التوجه الروحي يعودون إلى صوابهم، وتخمد سورة غرورهم، ويزول تكبُّرهم، وتبرز عقولهم، ويتخلّصون من الوساوس والأفكار الفاسدة والمعاصي. وهذا هو الطريق الثاني الذي تهدي إليه سورة الناس لصيانة النفس من الشرور النفسية والآفات الأخلاقية.

## عبادة الله

بعد ذكر «ملك الناس» يشير الله تعالى إلى أنه «إله الناس»، فيقيم سلطانه وقدرته اللاّ محدودة على مقام الألوهية الرفيع لكي يدرك الناس عظمة السلطان الإلهيّ فلا يقارنوا سلطان الله تعالى على الناس بسلطان الملوك على شعوبهم.

وبعبارة أجلى، إن سلطان الحكام والسلاطين في أقطار العالم يستند إلى العوامل المادية والقوى الطبيعية، ولا تتعدّى قدرتهم مجالات حفظ الأمن الداخلي، وصدٍّ العدوان الخارجي، وحماية المصالح الوطنية، وإدارة الشؤون الاجتماعية، والتنظيم الاقتصادي، والقيام بعمران البلاد، وتحسين الظروف الحياتية لشعوبهم. أما السلطان الإلهي، فلا هو قائم على العوامل المادية، ولا هو منحصر في إدارة الشؤون الحياتية للناس، وإنما الله هو المالك الحقيقي للناس، فأجسامهم وأرواحهم، حياتهم وموتهم، ظاهرهم وباطنهم، قيامهم وقعودهم، وحركتهم وسكونهم، كلُّها تحت سلطانه وفي قبضة قدرته تعالى. إنه إله الناس ومعبودهم، وقدرته تهيمن على كل ذرّة من ذرّات كيانهم، وهي قدرة وسلطنة تختص بذات الله المقدّسة وحده.

إن من يؤمن بالله ويعبده بصفته الإله الجدير بالعبادة، يحني رأسه تعظيماً له،

ويطوق عنقه بطوق عبوديته بكل اعتزاز، ويعبده بكل خضوع وتذلُّل، إن مثل هذا الإنسان يكون بعيداً عن الشرور النفسية والآفات الأخلاقية، لأنه لم يجعل هوى نفسه معبوداً يعبده، ولم يطع غرائزه وشهواته، وهو موحِّد في عبادته، ويطيع الله من دون قيد ولا شرط، ولا يخطو إلاّ في طريق مرضاة الله، وهو، كما نعلم، طريق الحقّ والفضيلة، طريق الطهارة وصحة العمل، وطريق جلب الخير ودفع الشر.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«لَمْ يَأْمُرْكُم اللهُ سُبحانَهُ إلَّا بِحَسَنٍ، ولَمْ يَنْهَكُمْ إلا عَنْ قَبِيحٍ»*[٣٣].

هؤلاء المؤمنون الذين يعرفون مسؤولياتهم، يستسلمون لله بكل وجوده، ويطيعون أوامره دون نقاش لأنهم يعتبرون إطاعته واجباً حتمياً من واجباتهم، وهم، لتمسكهم الدائم بالتعاليم الإلهيّة، محفوظون عن الوساوس الخبيثة والأخلاق الفاسدة.

## الانحراف عن عبادة الله

خلال القرون والعصور انحرف كثير من الناس ـ بسبب الجهل ـ عن خط عبادة الإله الواحد. وعلى الرغم من اعترافهم بأن خالق الكون هو الله تعالى، فقد انحرفوا إلى الشرك في عبادته، واتخذوا غير الله معبوداً لهم، ظانين أن بعض المخلوقات جديرون بالعبادة، وكانوا يعتقدون أن لآلهتهم قدرات خارقة للعادة، وأنها قدرات أصيلة ومستقلة. كانوا يعتقدون أن سعادة الإنسان وتعاسته منوطتان بإرادة تلك الآلهة ومشيئتها، وأنها إذا رضيت عنهم فسوف تصونهم من الشرور والآفات، وإذا سخطت عليهم فسوف تُنزل عليهم البلاء والشقاء وتصيبهم بأنواع المصائب والأمراض.

لذلك كان أُولئك الجهلة يرتكبون أبشع الأعمال البربرية والوحشية بحجّة استرضاء آلهتهم لتحميهم من الشرور والآفات. وإليك فيما يلي بعض الأمثلة:

---

(٣٣) فهرست الغرر: ١٥.

«يقـول (ويل دورانت): كانـوا في أثينـا وفي أعياد الربيع من كل سنة يختـارون شخصـين للتضحية بهما في سبيل الآلهـة، فيقـومـون برجم ذينك الشخصين حتى الموت، ويعتبرون ذلك كفّارة عن ذنوب الناس. كان اختيار الضحيتـين يتم قبل الموعد بسنة تقريباً، وخلال السنة يعبدانهما كما يعبدان الآلهة، ويعنون بهما أشدَّ العناية من حيث الضيافة والاهتمام، وفي يوم القربان كانوا يجلدونهما أوّلاً ثم يرجمونهما»[٣٤].

«ويقـول (اوتـو كلاينـبرغ): كانت الحـروب فيما بين قبـائل الأزوتيك المكسيكية تقوم غالباً بسبب عوامل دينية. كان من أهم معتقداتهم أن الآلهة، وخاصة الشمس، إذا حُرِمَتْ من الطعام ماتت، وأن قلب الإنسان هو الغذاء الوحيد الذي يليق بمقام الآلهة، فكانوا يعتبرون الذي يضحّون به إلهاً، وأنهم بقتله وأكله يسـاعدون على انبعاث الله وعلى تجديد قواه. كانوا يقولون إن الآلهة قد ضحّوا بأنفسهم في السابق من أجل الشمس لكي يمنحوها الطاقة على العمل، ولكنهم بعد ذلك أوكلوا تلك الوظيفة إلى ممثليهم من البشر، أي إنهم أمروهم بالاحتراب فيما بينهم، فيقتل بعضهم بعضاً من أجل إعداد الغذاء اللّازم للشمس. كذلك كان أهالي (تلاكسكان) في حرب مستمرة مع جيرانهم بهدف أن يأسروا منهم بعض الأسرى للتضحية بهم.

في سنة ١٤١٦م عندما أُهدي معبد (هوئيت زيلو بوجتلي) إلى إلههم، بلغ طول صف الأشخاص الذين أُوقفوا للتضحية بهم ميلين، وكان عدد الذين قتلوا في هذه المذبحة الوحشية وانتزعت قلوبهم لا يقل عن (٧٠٠٠٠) إنسان، وكان معظمهم من الذين وقعوا في الأسر خلال الحروب مع الجيران»[٣٥].

إن الأرض والسماء وجميع ما فيهما من كائنات هي من مخلوقات الله تعالى، وما من مخلوق يقوم بذاته مستقلّاً أصلاً. فالإنسان العاقل المفكّر إذا أمعن النظر بصدق

(٣٤) مباهج الفلسفة: ٤١٤.

(٣٥) علم النفس الاجتماعي ١: ٩٣.

لا يمكن أن يجيز لنفسه اتخاذ كائن ذي وجود مؤقت، وذي قدرة مكتسبة وزائلة، إلهاً يعبده.

إن الذين يجعلون من المخلوق معبوداً وشريكاً للخالق، ويضعون غير الله في مقام الألوهية، إنما هم أسرى التوهُّم والتخيل، فيصطنعون لأنفسهم إلهاً يركعون أمامه ركوع الذل والعبودية، ثم يقومون، باسم التقرّب إلى الله والعبودية له، بارتكاب أبشع الجرائم. إن في مثل هذه الأعمال الشائنة اتّباعاً للجهل، وإطاعة للأوهام والخرافات، وغمطاً للعقل، وتحقيراً لمقام الإنسان، وإهداراً للكرامة الإنسانية. والقرآن الكريم يشابه بين انحطاط المشركين المعنوي وسقوطهم الظاهري:

﴿ومَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فكأنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ في مَكانٍ سَحِيقٍ﴾[٣٦].

نخلص من مجموع البحث في الاستعاذة بالله من الشرور النفسية والآفات الأخلاقية إلى أنَّ الله تعالى قد أمر في سورة الناس باللُّجوء إلى «رب الناس» و«ملك الناس» و«إله الناس» من الوساوس الشيطانية والأفكار السيئة.

إن الاستعاذة بربِّ الناس توجه الناس نحو تعاليم مربِّي الناس المنجية من السيِّئات الأخلاقية، وتحثّهم على اتّباع المناهج التربوية الإلهيّة التي أبلغها لنبيه الكريم، فيتخلَّقوا بأخلاقها لينجوا من الأفكار السيئة.

﴿مَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٣٧].

أما الاستعاذة بملك الناس فتقول لهم إنهم، من أجل أن يغلبوا هوى النفس ويقمعوا الميول غير المشروعة، علّيهم أن يفكروا في سلطنة الله العظيمة، وليدركوا، بالتّمعن في قوته وقدرته، وعجزهم وضعفهم، فيتركوا المعاندة، ويحطّموا الغرور والطغيان، ويزيلوا عن تفكيرهم فكرة عصيانه، ولا يتقاعسوا عن تنفيذ المناهج التربوية الإلهيّة، ولا

---

(٣٦) الحجّ: ٣١.

(٣٧) الحشر: ٧.

ينسوا أبداً أن لقدرة الله تعالى اللاّ محدودة السلطة الكاملة على كل قدرة وسلطان.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾(٣٨).

والاستعاذة بإله الناس، وهي أرفع مراحل الاستعاذة وأكبر ضامن لتحقيق القوانين الأخلاقية، توجه الناس نحو أُلوهية الله تعالى وعبودية الناس له، وتريهم طريق التوحيد في العبادة بوصفه الوسيلة للنجاة من الشرور النفسية والسيّئات الأخلاقية.

إنّ الذين يؤمنون بالله، ويعتقدون حقاً أنه المعبود الوحيد الخليق بالعبادة، لا يكونون عبيداً لأهوائهم، ولا يعبدون المال ولا الجاه ولا الشهوة ولا ما إلى ذلك، ولا يطيعون رغباتهم النفسية التي هي منشأ السيّئات الأخلاقية.

إنّ عباد الله الصادقين يقفون أمام معبودهم عدة مرات في اليوم للصّلاة يتعبدونه، ويتذلّلون أمام «إله الناس» بخضوع، يسجدون له على التراب، ويوثّقون حبل الاعتصام به بقوة. إنهم، لاهتمامهم بالعبادة وأداء الفرائض الدينية، يذكرون الله دائماً ويرونه حاضراً في جميع المحالّ وناظراً على جميع الأحوال، ويسعون لأن تكون أعمالهم وأقوالهم على وفق رضى الله تعالى، فلا يخطون خطوة ليس له فيها رضى. هؤلاء الناس الطاهرو القلب يكونون، في حمى إله الناس وفي ظل عبادة المعبود الحق، مصانين من الشرور النفسية والآفات الأخلاقية. لقد وصفهم الله تعالى في القرآن الكريم بأنهم عباده المخلصون الصادقون، ولذلك فإن الشيطان والأفكار الشيطانية لا سلطان لها على ضمائرهم النقية وإرادتهم القوية:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾(٣٩).

---

(٣٨) الأنعام: ١٨.

(٣٩) الزُمر: ٦٥.

# الفصل الثامن

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾

*القرآن الكريم*

## الهجاء

إن مملكة الأسرة الصغيرة، وكذلك الأسر الدولية الكبيرة، أشبه بجسم حيٍّ فعّال، أعضاؤه هم أعضاء الأسرة وأفراد المجتمع، فسلامة ذلك الجسم ترتبط بسلامة أعضائه وكذلك ترتبط سلامة المجتمع بسلامة أخلاق أعضائه وصدق عملهم. وكما أن إصابة أيِّ عضو من الجسم بمرض تؤثر في حالة الجسم العامة قوّة وضعفاً بحسب شدة مرض العضو وخفّته، فيحشد قواه الدفاعية لمكافحة المرض، ويبذل جهده للحفاظ على حياته وإعادة الصحة والسلامة إليه. كذلك يجب على أعضاء المجتمع أن يحافظوا على حياة مجتمعهم، بأن يقفوا في وجه هذا وذاك ممن يرتكبون أعمالاً تضرُّ بالمجتمع، فيدينون الجريمة ويظهرون اشمئزازهم من الفساد والفاسدين، وبذلك يقُون مجتمعهم من التعاسة والشقاء.

إن إغضاء الناس عن الذنب يكون بمثابة الموافقة عليه وحماية المذنب من العقاب. إنَّ من يرى الجرائم والإساءات أُموراً عادية، ولا يصدر منه أيُّ ردٍّ فعل ضدَّها، عَلناً أو سِرّاً، يستحق المؤاخذة والتوبيخ، إذ إن الاستمرار في اتّخاذ مثل هذا

الأسلوب يعدّ استهانةً بالقيم الاجتماعية السليمة، ولا أُباليَّةً أزاء الحياة الإنسانية. إن مثل هذا الإنسان يكون، في نظر أئمة المسلمين، عضواً ميّتاً في جسم المجتمع.

قال الإمام الصادق(ع) لقوم من أصحابه: «*إنّه قَدْ حَقَّ لي أَنْ آخُذَ البريءَ مِنْكُمْ بالسَّقيم. وكَيْفَ لَا يَحِقُّ لي ذَلكَ وأَنْتُمْ يَبْلُغُكُمْ عَنِ الرَّجُلِ منكُمُ القبيحُ فلا تُنكِرُونَ عليهِ، ولَا تَهْجُرُونَهُ، وَلَا تُؤْذُونَهُ حتّى يَتْرُكَ*»[١].

عن الإمام عليٍّ(ع)، قال: «*مَنْ تركَ إنْكارَ الْمُنْكرِ بقلْبِهِ ولِسانِهِ ويَدِهِ فهُوَ مَيِّتٌ بيْنَ الأحْياءِ*»[٢].

«يقول (جون ديوي): لو كان شخص منفرداً بنفسه في العالم، فيضع لنفسه عاداته ويطبِّقها لوحده في فراغ أخلاقي باعتبارها تخصه وحده، فإنَّ مسؤولية قبح تلك العادات أو حسنها تقع بالطبع على عاتقه وحده. ولكن العادة تستدعي التأييد والقبول من جانب مجتمع أو فئة خاصة، بحسب مقتضيات الظروف المحيطية، ولذلك فهي تكون ذات علاقة وثقى بالمحيط الذي يصدر عنه رد فعل إزاءها، أي إنَّ الآخرين سوف يؤيدونها، أو ينتقدونها، أو يسلقونها بألسنة حداد في حملة اعتراض عليها ومقاومة لها، بل إنَّ مجرد امتناع المجتمع عن إبداء أيِّ رد فعل إزاء تحركها وتركها وشأنها يعتبر بذاته نوعاً من رد الفعل.

إن عدم الاعتناء بجرائم الآخرين وزلّاتهم يعتبر اشتراكاً معهم في تلك الجرائم، لأنه يؤدِّي إلى تشجيع الآخرين على ارتكاب الإساءات، فرغبة المرء الذي يريد أن يتجنب تلويث ضميره قد تنقلب - بسبب لا أُباليّة الآخرين بردع الجريمة - إلى رغبة في مجاراة الآخرين في أعمالهم السيِّئة. ومع ذلك، فهناك حالات من المقاومة السلبية التي يمكن أن تكون من أنجع الوسائل المؤثرة في القضاء على الفساد، وقد يكون العكس مفيداً، فإنزال شواظ الغضب والسخط على رأس المذنب يمكن أن يكون أشد تأثيراً في إصلاحه. أمّا إبداء

---

(١) وسائل الشيعة، العاملي، كتاب الأمر بالمعروف: ٦٩.

(٢) مشكاة الأنوار: ٥٢.

العطف والشفقة على المذنب فيكون، في الحقيقة، بمثابة المشاركة في خلق المجرمين»[٣].

تثير الأمراض المختلفة الأعراض المرضيّة في جسم الإنسان، فما لم تتم معالجتها ويوقف انتشارها فإنّها ستؤدي إلى القضاء على حياة المريض. وعلى الرغم من أن بعض الأمراض لا يؤدي إلى الموت، إلّا أنه يُوجد الخلل والاضطراب والألم، وينغّص الحياة ويجعلها مرّةً كالعلقم. على كل حال، المرض انحراف عن السير الطبيعي، وفقدان للسلامة، فتجب مكافحته.

للذنوب أيضاً آثار وأعراض في جسم المجتمع، ولكل ذنب نتيجة معنوية ومادية مضرّة بالأسرة وبالمجتمع، وينحرف الناس بشكل من الأشكال عن طريق الحياة الصحيحة السليمة، لذلك لا بدّ من المحافظة على سلامة المجتمع عن طريق مكافحة الذنوب وآثارها. إلّا أن هناك ذنوباً على قدر من العظم والخطر بحيث إنها إذا لم توقف عند حدّها ولم يمنع مرتكبوها من الاستمرار فيها، فإنّ المجتمع يؤول إلى الانهيار والسقوط، وتكون المصائب الناجمة عن ذلك مما لا يمكن معالجتهُ. وقد أشار نبي الإسلام العظيم إلى أمثال هذه الذنوب ضمن تشبيه دقيق، ونبّه المسلمين على مسؤولياتهم إزاءها:

عن النبي(ص): *«إنَّ قَوْماً رَكِبُوا سفِينَةً في البحْرِ واقتسَمُوا، فصَارَ كُلُّ واحِدٍ منْهم موضعَهُ. فنقَرَ رجُلٌ موْضِعَهُ بفأسٍ. فقالوا: مَا تَصْنَعُ؟ قال: هوَ مكَاني أَصْنَعُ بهِ مَا شئْتُ. فَإِنْ أخَذُوا عَلى يدَيْهِ نَجا ونَجوْا، وإِنْ لَمْ يَأْخذُوا على يَدَيْهِ هلكَ وَهَلَكُوا»*[٤].

فالمملكة أشبه بالسفينة، وأهلها أشبه براكبي السفينة، فعلى كلّ فرد من أهل المملكة أن يحترم حريمها ويرعى حقوق الآخرين، ولا يرتكب أعمالاً تضر بالمجتمع وتتعارض ومصلحته. فإذا شاء جاهل أن يسيء استعمال حريته الفردية، فيرتكب ذنباً

---

(٣) طبع الإنسان وخلقه: ٣٠.

(٤) مجموعة ورّام ٢: ٢٩٤.

كبيراً مهلكاً، فمن واجب الناس أن يقفوا في وجهه وأن يمنعوه من ارتكاب عمله الآثم، ليخلّصوا المجتمع من الخطر، وإلاّ فإنّ المذنب سوف يجرّ المملكة إلى هاوية السقوط، ويلقي بالناس إلى التهلكة.

وقوانين الإسلام قوانين إلهيّة سماوية، وضمان تنفيذها هو الإيمان بالله والشعور بالمسؤولية أمامه. إن المسلم الحق يطيع أوامر الله تعالى بهدف جلب رضاه، فيؤدّي واجباته خير أداء، ولكي يتّقي عذاب الله فهو لا يفكّر في معصيته. ولكن الناس ليسوا كلهم على قوة واحدة من الإيمان، وقد يرتكب بعضهم جريمة أو معصية، لذلك قرر المشرِّع، من أجل صيانة المجتمع وسلامته، وضع قوانين جزائية لتقوم المحاكم الإسلامية بمعاقبته، وطلب من الناس في الوقت نفسه أن يراقبوا الحالة الاجتماعية وكلّفهم بالإشراف على حسن تنفيذ القوانين الشرعية عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيحثون الناس على أداء الفرائض والأعمال الصالحة، وينهونهم عن الفساد وارتكاب الموبقات، وبذلك تتوفر عوامل سلامة المجتمع وسعادته.

في عدد من الدول الحيّة والحرة في العالم يتمتع الناس اليوم بحق الإشراف الشعبي والاعتراض على الأعمال غير القانونية والمخالفة للمصلحة العامة. ولكن النقطة التي لا بدّ من تذكّرها هي أنّ الناس في هذه الدول المتقدّمة ليسوا ملزمين قانوناً باستعمال حق الإشراف والاعتراض على الأعمال غير المشروعة، وأنهم إذا سكتوا عن ذلك يحق عليهم العقاب. أمّا في الإسلام فإن الاعتراض على الإثم فريضة دينية، وعند توفر شروط النهي عن المنكر يكون من الواجب على المسلم أن يستعمل حقه الشرعي، فيعترض على المذنب، ويمنع الإثم والفساد، فإذا التزم الصمت وتغاضى عن الذنب يكون مسؤولاً أمام الله تعالى ويستحق العقاب.

وبالإضافة إلى القوانين الجزائية وقرارات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هنالك في الإسلام مناهج أخرى، مثل الموعظة الحسنة، الانتقادات الأخوية، والإرشادات المفيدة المثمرة.

لقد أوصى الرسول الأكرم(ص) والأئمة الطاهرون(ع)، فيما أوصوا به

الناس، أن يطلبوا الخير للمسلمين جميعاً، وأن يرعوهم، وأن يتذاكروا عيوب بعضهم بعضاً، وأن يُصلحوا أخلاق إخوانهم، وأن يدفعوهم إلى طريق الفضيلة والكمال.

إلّا أنَّ النقطة المهمة التي يجب أن لا تغرب عن البال أبداً هي أنَّ المسلمين لا يحقّ لهم، باسم النهي عن المنكر، أو نقد العيوب الأخلاقية، أن يتجسّسوا على الناس، ويتسقّطوا ذنوبهم، ويهتكوا أستارهم، ويهدروا كراماتهم. فالتجسّس على الناس والبحث عمّا فيهم من عيوب هو بذاته من الذنوب الكبيرة، ومن الأعمال القبيحة المثيرة للفساد الاجتماعي، والتي حذَّر أولياء الدين المسلمين منها ونهوهم عنها.

ولكي يتّضح هذا الأمر فإننا سندرس في هذا الفصل باختصار صفة البحث عن عثرات الناس وعوراتهم، ومنشأه النفسي، وبعض آثاره ونتائجه الضارّة.

لما كان الناس يختلفون من حيث طراز تفكيرهم وتوجهاتهم، فإنهم كذلك يختلفون أيضاً في مفاهيمهم عن الأعمال الحسنة والسيِّئة التي يفعلها الناس، فيختلفون أيضاً من حيث ردود أفعالهم إزاء مختلف الأعمال المشروعة وغير المشروعة التي يرتكبها الناس.

ثمّة أُناس يتمتّعون بسلامة الفكر وطهارة الضمير، وهم منزّهون من العيوب الأخلاقية والأفكار الفاسدة، فيثمّنون الطيبة ويثنون على الطيِّبين على قدر طيبتهم، ويشجعِّونهم على القيام بالصالحات من الأعمال، وبهذا يُشيعون الطهارة والطيبة في المجتمع. كما إنهم يتأثرون بمشاهدة الأعمال القبيحة ويأسفون لسوء حظ أصحابها، ولكي يمنعوهم من القيام بتلك الأعمال القبيحة، يذكِّرونهم بها بحسن نيَّة وحب الخير لهم، وينتقدون ذنوبهم وأخلاقهم المذمومة، وبهذا يمنعون المذنب من الاستمرار في ارتكاب الذنب، ويحولون دون أن تشيع الفاحشة في المجتمع.

وثمّة أُناس يشاهدون أفعال الناس الطيبّة والسيّئة، فيظهرون ردود أفعال إيجابية إزاء الأعمال الحسنة، فيمتدحون العمل الحسن، ويشجعون المحسنين، يذكرون أعمالهم الحسنة عند هذا وذاك من الناس، ولكنّهم لا يُظهرون أي ردِّ فعل إزاء الأعمال السيِّئة، ولا ينتقدون المسيئين. وقد يكون بعض هؤلاء من ذوي النوايا

الحسنة، فهم يمجّدون الصالحات من الأعمال بهدف إشاعة الطيبة في المجتمع وتقدير أعمال المحسنين، وهم بسكوتهم على السيّئات العلنية مدفوعون باهتمامهم بالحالة الاجتماعية وشعورهم بالمسؤولية إزاء المصلحة العامة. إلّا أنّ هناك من هذه الفئة كثيرين لا ينظرون في تمجيدهم الخير والخيّرين، وسكوتهم على الشر والأشرار، إلى المصلحة العامة، ولا يفكّرون في سعادة المجتمع، بل هم لا يفكّرون إلّا في أنفسهم ولا يُعنون إلّا بمصلحتهم، فهم يثنون على الطيبة والطيّبين لكي يستلفتوا أنظار أُولئك إليهم، وليقعوا في نفوسهم، موقعاً حسناً، وليزيدوا من محبوبيتهم في المجتمع. إنهم لا يتحدّثون عن الشر ولا ينتقدون الأشرار لئلا ينزعج هؤلاء منهم ويضعف حبهم لهم.

وبما أن هؤلاء الأنانيين لا يمتدحون الطهارة والطاهرين عن حسن نيّة، فإنّهم لا يعنيهم في شيء أن يهتمّوا بالحق أو بالمصلحة، وقد يبالغون أحياناً في مدحهم وثنائهم ويتجاوزون حدود التحسين والتقدير، فيبدأون بالتملّق والمراءاة. وفي أحيان أخرى قد يميلون إلى جانب التفريط، فيخفون الحقيقة ويبخسون الناس أشياءهم، ولا يؤدون حقوق الأخيار كما ينبغي. وكلا هذين الأسلوبين مخالف للفضيلة والأخلاق، ومناف للتعاليم الإسلامية السامية.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«الثَّناءُ بأكْثَرَ مِنَ الاسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ، والتَّقصيرُ عَنِ الاسْتِحْقَاقِ عِيٌّ أو حَسَدٌ»*(٥).

وثمّة أُناس آخرون يرون سيّئات الناس ويستكبرونها، ولكنهم يعمون عن رؤية الحسنات، أو لا يريدون أن يروها، وحتى إذا رأوها يستصغرون شأنها ولا يعنون بها، كما أنهم لا يقدّرون الإحسان والمحسنين حقّ قدرهم. هؤلاء يضعون نظّارات سوءِ الظنّ على عيونهم، ويدأبون على تقصّي العيوب والقبائح في الناس، وإذا كان لامرئٍ ألف حسنة وسيّئة واحدة، فإنّهم يغضون الطرف عن صفاته الحسنة ولا يذكرونها أبداً، بل يركّزون على تلك الصفة السيّئة الفريدة، ولا يفتأون يردّدونها. هؤلاء مرضى

---

(٥) نهج البلاغة، الكلمة: ٣٣٩.

بمرض تقصّي عورات النـاس وهفواتهم. لقد أوصى أئمة المسلمين أتباعهم بعدم الركون إلى هؤلاء واعتبارهم من الأعداء، وحذّروهم من معاشرة أمثال هؤلاء الخبيثة نفوسهم لتجنّب شرهم وأذاهم.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«لِيَكُنْ أَبغضُ النَّاسِ إِلَيْكَ وَأَبْعَدُهُمْ مِنْكَ أَطْلَبَهُمْ لِمعائِبِ النَّاسِ»* [٦].

وعنه(ع): *«إِيَّاكَ ومُعاشَرَةَ مُتَتَبِّعِي عُيُوبِ النَّاسِ فإنَّهُ لَمْ يَسْلَمْ مُصاحِبُهُمْ مِنْهُمْ»* [٧].

## معالجة العيّابين في الإسلام

في المنـاهـج الـتربوية الإسلامية: إن المجالس بالأمانة. فإذا تحادث اثنان بحديث فلم يشأ أحدهما أن يُذاع بين الناس ما دار بينهما فعلى الآخر أن يمتثل لهذه الرغبة، فيخفي ما دار بينهما من حديث في ذلك المجلس، ويكون مسؤولاً أمام الله إن هو باح بالحديث إلى هذا وذاك من الناس، وينال عقاب المغتاب وخيانة الأمانة.

عن رسـول الله(ص)، قال: *«إنّما يَتَجالَسُ المُتَجالِسانِ بأمانَةِ اللهِ، فَلا يَحِلُّ لأحَدِهِمَا أَنْ يُفْشِيَ عَلى أَخِيهِ مَا يَكْرَهُ»* [٨].

العيّابون الخبيثة نفوسهم ينفّذون مقاصدهم أحياناً باسم الدين، فيعرضون باسم الأخـوّةِ الإسـلامية صداقتهم على المسلمين، فيسيئون استعمال حسن ظنهم وثقتهم، ويتعرّفون على زلاّتهم وهفواتهم ليعيبوهم بها حين يرغبون، أو يشيعونها بين الناس، ليُسيئوا إلى سمعتهم والحطّ من شأنهم. وهذا لا يعدُّ في نظر الإسلام مجرد سيئة فحسب، بل هو انحدار نحو هوة اللاّ دينية، فالعيّابون فضلاً عن سحقهم الشرف الإنساني بعملهم هذا، فإنهم ينزلقون نحو الكفر بالله.

---

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٥٨٦.

(٧) فهرست الغرر: ٢٨٦.

(٨) مجموعة ورّام ١: ٩٨.

عن أبي جعفر الباقر(ع)، قال: «*أَقْرَبُ مَا يكونُ العبْدُ إلى الكُفرِ أنْ يُؤَاخِيَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ على الدِّين فَيُحصِيَ علَيْهِ زَلَّاتِهِ لِيُعَيِّرَهُ بها يَوْمَاً مّا*»(٩).

وقد استعاذ رسول الله(ص) بالله من شرِّ هؤلاء العيَّابين النّهاشين، فقال:

«*اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ خَليلٍ مَاكِرٍ، عَيْنَاهُ تَرَيَاني وَقَلْبُهُ يَرْعَاني، إنْ رَأى حَسَنَةً دفَنَهَا، وَإنْ رَأى سَيِّئَةً أذاعَهَا*»(١٠).

وعن أبي محمَّد الحسن العسكري(ع)، قال: «*مِنَ الفَواقِرِ التي تَقْصِمُ الظَّهْرَ جَارٌ إنْ رَأى حسَنَةً أخْفاهَا وَ إنْ رَأى سَيِّئَةً أفْشاهَا*»(١١).

ورب إنسان يشتدّ به الحرّ في ظهيرة قائظة فيخلع ثوبه لينام ساعة عارياً، فيكشف عن جسد لا شائبة فيه، سوى بثرة صغيرة عند طرف شفته. وتأتي ذبابة على بدنه، فتترك كل ذلك الجسد السالم لتحطَّ على تلك البثرة المتقيِّحة فتنشب فيها خرطومها. إن العيَّابين بطبيعتهم الوضيعة، أشبه بتلك الذبابة، يعشقون الخبث والقذارة، ويفتشون دائماً عن الشرور والسيِّئات، ويبحثون عن عيوب الناس ومثالبهم، ولايلتفتون إلى الحسنات. وقد ورد هذا التشبيه في كلام للإمام علي(ع)، إذ قال:

«*الأشْرارُ يَتَّبِعُونَ مَساوِىءَ النَّاسِ ويَتْرُكُونَ مَحاسِنَهُمْ،كما يَتَّبِعُ الذُّبابُ المَواضِعَ الفاسِدَةَ مِنَ الجَسَدِ ويَتْرُكُ الصَّحيحَ*»(١٢).

وثمّة تشبيه آخر في كلامٍ لرسول الله(ص) بشأن العيَّابةِ والعيَّابين. يقول رسول الله(ص):

«*مَثَلُ الَّذي يجلِسُ فَيَسْمَعُ الحِكْمَةَ مِنْ غيْرِهِ وَلا يُحدِّثُ إلَّا بَشرِّ ما سَمِعَ، مَثلُ رَجُلٍ أتى رَاعِياً فقالَ لَهُ: أعْطِني شَاةً مِنْ غَنمِكَ. فَقالَ: إذْهَبْ فَخُذْ خيْرَهَا، فجاءَ*

(٩) الكافي، الكليني ٢: ٣٥٥

(١٠) نهج الفصاحة: ١٠١.

(١١) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ٢١٦

(١٢) سفينة البحار، القمي: ٢٩٥

*فأخَذَ بأُذنِ الكَلْبِ الذي مَعَ الغَنمِ»*(١٣).

تقصِّي عيوب الناس مرض أخلاقي ناجم عن الإحساس بالضعة، والمصابون بهذا الطبع القبيح هم أنفسهم يعانون من عدد من العيوب الطبيعية أو الاجتماعية، ويشعرون في دخيلتهم بالحقارة والهوان، ولذلك فهم بنشر عيوب الآخرين والتشهير بهذا وذاك وتحقيرهم يريدون أن يخفوا ما فيهم من عيوب، ويخففوا من ذُلِّهم، ويقلّلوا من الضعف الذي يحسُّون به. هناك عوامل وعلل وعيوب ونقائص عديدة يمكن أن تكون سبب الإحساس بالضعة، فتحمل بعضهم على تَقَصِّي عيوب الناس. وفيما يلي بعض تلك العوامل:

بعض الأشخاص، لسوء خلقهم وقبح أعماله، تسوء سمعتهم في المجتمع وتُصاب بالعار، وينظر إليهم الناس بعين الاحتقار واللّا مبالاة. هؤلاء يستطيعون، إذا شاءُوا أن يصلحوا أنفسهم بالسعي والمجاهدة، وأن يزيلوا عيوبهم ونقائصهم، ويستعيدوا سمعتهم المفقودة. ولكن معظم هؤلاء بدلاً من أن يبادروا إلى إصلاح أنفسهم وتزكيتها، ينبرون للبحث عن عيوب الآخرين ويتجسَّسون على أخلاق هذا وذاك لكي يعثروا على نظرائهم، فيعيبونهم لكي يخفوا قبح أعمالهم، ويوجِّهوا بعضاً من سوء ظن المجتمع ونقده نحو أُولئك.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«ذَوُو العُيوبِ يُحِبُّونَ إشاعَةَ مَعايِبِ النَّاسِ لِيَتَّسِعَ لَهُم العُذْرُ في معايِبِهِمْ»*(١٤).

بعض الأشخاص يعانون طوال حياتهم من الحرمان المديد والإحباطات المتوالية فينتابهم الشعور بالحقارة المذلّة، ويتعذّبون من سنوات المرارة والإخفاق، وتستولي عليهم حالة من سوء الظّن بكل شيء وبكل شخص، ويشملهم اليأس والقنوط، فيملؤهم سخطاً وفظاظة، ويثيرهم أتفه حدث، فيتهجمون على هذا وذاك،

---

(١٣) مجموعة ورّام ١: ٢٩.

(١٤) فهرست الغرر: ٢٨٧.

تبـدو الـدنيا في نظرهم قبيحة ومؤلمة، ولا يرون من الناس سوى الأعمال القبيحة والهفـوات، وهم لكي يخففوا من آلامهم الباطنية ويغطّوا على حقارتهم إلى حدّ ما، يسعون للعثور على بعض العيوب في الآخرين لكي يسيئوا بها إلى سمعتهم، ويهتكوا أسرارهم، ويضعوا من مكانتهم، حتى يكونوا على غرارهم في التعاسة والشقاء.

وقـد يبلغ الأمـر بهؤلاء المحرومين التعسين، لشدة ما يلاقونه في الحياة من الصعـاب والمنغّصـات، أنهم يصـابـون بالأمـراض النفسيةوالانحـرافات الروحية الاعتدائية، بحيث إنهم يشعرون باللّذة من تعذيب الآخرين وإيذائهم، فهؤلاء لا يخفّفون فحسب من ضغوطهم الداخلية وإحساسهم بالحقارة والوضاعة بكشف عيوب النـاس، بل إنهم ليشعـرون باللذّة والسرور من أنهم بهتك أسرار الناس وتشويه سمعتهم يسبّبون لهم العذاب والألم والشقاء.

### من هم «الساديون»؟

«هؤلاء هم أُناس يعتقدون أنهم محرومون من كل أسباب السعادة وحسن الحظ، ويشعـرون أنهم عاطلون لا نفـع فيهم. وفي الوقت الذي يتمتع فيه الآخرون بجمال الحياة ونعمها، يكونون هم محكوماً عليهم بالحرمان من كل أنواع الجمال. ولذلك فهم يحاولون باستخدام مختلف الطرق والوسائل أن يُخلُّوا بسعادة الآخرين ولذائذهم. هؤلاء أُناس بائسون سيِّئوا الحظ يتخبّطون دائماً بيأس في براثن أعصابهم المتوترة، ويسعون لحرمان الآخرين أيضاً من السعادة والهناء. إنهم أشبه بالجائع الذي يرى الآخرين يتلذذون بأشهى الأطعمة، وهو محروم منهـا. فما دامت يده لا تصل إلى شيءٍ منها، فلماذا تصل إليها أيدي الآخرين الذين يرى أنهم هم السبب في حرمانه وعذابه؟ لذلك فهو يريد أن ينقل عذابه وشقاءه إلى الآخرين لكي يحسَّ بشيءٍ من التخفيف فيما يشعر به من حرمان.

إن «السادي» يحسد الناس على حياتهم. ولكيلا يعذبه هذا الحسد كثيراً

يتوسَّل بأسلوبٍ خاص، وهو أنه لا يرى من الآخرين سوى الجوانب السيِّئة القبيحة والسلبية في حياتهم ليجد لنفسه المسوِّغات والأعذار في أنَّ الآخرين أيضاً مثله، وأنه ليس أدنى منهم في ذلك، أيّ إنه بالتحديق إلى الجوانب السيئة فقط في حياة الآخرين يقتنع بأنهم لا يقلّون عنه تعاسة وبؤساً، فيخف عنه إحساسه بالألم والبؤس.

عندما ينظر «السادي» إلى شخص ما تبرز أمامه نقاط ضعف ذلك الشخص بأجلى مما تظهر به حسناته. فإذا صادف، مثلاً، امرأة جميلة ولكنها خفيفة الشعر، أو قصيرة القامة، فإنّه لا يرى جمالها، بل يتّجه نظره إلى شعرها الخفيف أو قامتها القصيرة. وإذا سمع، مثلاً، خطبة تهذيبية مفيدة، فأخطأ الخطيب في لفظ كلمة، أو تلعثم فيها، فإنّه ينسى روعة الخطبة وفائدتها التعليمية، ويتمسّك بالخطأ الذي وقع فيه الخطيب أو بتلعثمه. وإذا دخل، مثلاً، غرفة مزيَّنة ومزخرفة بفخامة، سوى أن لون الفُرُش فيها لم يكن زاهياً، فإنّ أول ما يُلفت نظره في تلك الغرفة هو لون فرشها الحائل.

على الرغم من أن البحث عن عيوب الناس يخفف من عذاب الحسد الذي يتحمله الشخص الحسود، ولكنه من جهة أخرى يوصِّل فيه تدريجياً طبيعة سوء الظّنّ والتقليل من قيمة الآخرين، لتخلق فيه حالة دائمة من عدم الرضى واليأس، أي إنه يقوم برؤية الجوانب القبيحة والسيِّئة حتى في نفسه أيضاً.

...وح يشكو من ثقل مصاريف أولاده ومسؤوليتهم، مثلاً، وإذا لم يكن له أولاد، اعتبر نفسه وحيداً فريداً لا يُعنى به أحد. وإذا لم تكن له علاقات جنسية رأى نفسه محروماً وغير مرغوب فيه، وإذا كانت له مثل هذه العلاقات فهو نجسٌ وملوّث وما أشبه ذلك. ففي جميع الحالات يكون متذمّراً من حاله»[١٥].

التعاسة والحرمان أشبه بشوكة تخز قلوب هذه الفئة من الناس دائمًا وتؤلمهم.

---

(١٥) تناقضاتنا الداخلية: ١٦٤.

إن مشكلة هؤلاء لا تنحل بتقصّي عيوب الآخرين وإيذاء هذا وذاك، بل إنّهم على العكس من ذلك فهم من جهة يزدادون بعداً بعملهم القبيح هذا عن المجتمع، ويزيدون من جهة أخرى عمق حالة اليأس والقنوط التي تنتابهم. إن إصلاح الحال المؤلمة والمعذّبة لهؤلاء البائسين المنكودي الحظ ينحصر في أن يقوموا بتحليل أفكارهم وأعمالهم تحليلاً صحيحاً، ليشخّصوا علل إخفاقهم وحرمانهم، ويسعوا في إزالتها على قدر الإمكان. إن معظم هؤلاء الأشخاص ليسوا قادرين، لسوء الحظ، على القيام بمثل هذا الاختبار العلمي الدقيق لأنفسهم ليدركوا سر إخفاقهم، ذلك لأن استمرار خيبتهم ودوام حرمانهم قد سلباهم الثقة بالنفس، وحطّما شخصيتهم، وأضعفا إشعاعات عقولهم، حتى ركدت قوة الإدراك عندهم ولفّها الظلام. على هؤلاء أن يستعينوا بعلماء الأخلاق وعلماء النفس المتطلّعين المحبّين للخير، فيشرحوا لهم حالتهم لتتضح علل تعاستهم وبؤسهم، ومن ثم يبادرون بتطبيق وصايا هؤلاء العلماء لإصلاح عيوبهم والنجاة مما هم فيه.

بعض الأشخاص ضعة نفوسهم ناشئة عن سوء تربيتهم في فترة الطفولة. فربما هم قد تلقوا تربيتهم على أيدي أبوين جاهلين وأشخاص سيئيّ الأخلاق والسلوك ممن يحيطون بهم، وكانوا في الجوّ العائلي هدف الاهانة والتحقير، فتحطّمت شخصياتهم منذ البداية. هؤلاء لو استطاعوا في الكبر أن يعالجوا أنفسهم ويطردوا من أذهانهم ذكرياتهم المرّة عن أيام طفولتهم، لأمكنهم أن يعيشوا براحة ضمير، ويعاشروا الناس معاشرة عادية. أما إذا لم يعالجوا أنفسهم وبقيت فيهم مظاهر الضعة والحقارة، فستسوء حالهم بشكل غير عادي، ويضطرون إلى اتّخاذ وسائل سلوكية مختلفة لإخفاء حالاتهم النفسية.

بعضهم يحاول أن يغطّي وضاعته الباطنية بأن يكون محبوباً لدى الآخرين، وذلك بالقيام بأعمال تجعلهم مطلوبين ومحبوبَين ومرغوباً فيهم في المجتمع، فيقبلهم الناس بينهم ويثنون عليهم. فهم للوصول إلى هذا الهدف يقيمون علاقات حارة مع الناس، يبالغون في التواضع والتأدُّب، يمتدحون الناس في أفعالهم وأقوالهم، ويضعون

أنفسهم في خدمة الناس ولا يأبون التوسّل بالتذلُّل والتخضّع والرياء والنفاق في سبيل لفت نظر الآخرين والوقوع منهم موقع القبول.

«هؤلاء بحاجة شديدة إلى اجتلاب حبِّ الآخرين وتأييدهم ورضاهم، ولذلك فهم يَبدُون أشخاصاً مسالمين، طائعين، منقادين وتابعين تماماً، ويكيِّفون طلباتهم وسلوكهم على وفق رغبات سائر الناس وإراداتهم. إنهم يتظاهرون بأنهم متفاهمون مع المحيطين بهم في جميع المسائل، وأنهم متّفقون معهم في وجهات نظرهم أكثر من اختلافهم معهم. إن عدم رؤية جوانب الاختلاف لا تعود بالطبع إلى جهل هؤلاء أو بلاهتهم أو عدم دقتهم، وإنما السبب هو أنهم لحاجتهم الحياتية إلى الآخرين، لا مندوحة لهم عن البحث أوّلاً عن بعض الصفات والخصال البارزة فيهم، وعن رؤية بعض العلائق المشتركة فيما بينهم لكي يحملوهم على الدفاع عنهم إذا اقتضى الأمر»[١٦].

ثمّة فريق آخر من هؤلاء الفاسدي التربية، من أجل أن يُخفوا وضاعتهم النفسية، يعتذرون بكبر السن، فيعتزلون المجتمع ويحيون بعيدين عن أعين الناس، ويلقون بأنفسهم فعلاً في أحضان النسيان، فهم يرون راحة الفكر، وهدوء البال، والسعادة في الوحدة، فيقطعون علائقهم بالناس ولا يتّصلون بأحد لكيلا ينكشف سرهم، ولا يعرف أحد ضعفهم النفسي، فيدرك حقارتها وضعتها.

«يكون هؤلاء بأشد الحاجة إلى الخلوة، وكأنهم أغلقوا على أنفسهم باب الغرفة وكتبوا عليه: يرجى عدم الإزعاج! وإذا سألهم سائل عن حياتهم الخاصة ألفيتهم يضطربون أشدَّ الاضطراب ويقلقون، لأنهم يرون في مثل هذا السؤال منفذاً يُوصل إلى كشف عوالم خلوتهم الباطنية الغامضة.

المعتزل يريد أن لا يزعجه أحد في عزلته، وأن لا يحتاج إلى أحد، وأن لا يتدخّل في شؤونه أحد، وأن لا يصطدم بأحد. أي إن المعتزل شخص قد خنق

---

(١٦) (ن.م): ٣٨.

جميع مشاعره الإيجابية، فلا هو ينفر من أحد، ولا هو يحبُّ أحداً. وهذا بالطبع نتيجة منطقية للرغبة في الانزواء، إذ إن الشعور بحب الآخرين يجبره على الإتصال بهم، بينما الشعور بالنفور منهم يحمله على الاشتباك معهم. لذلك فإن محب الانـزواء يكبح عواطفه ومشاعره لكيلا يتّصل بأحد أو يصطدم بأحد، فيجعل بينه وبين الآخرين بعداً تلقائياً، كما يقول (ساليفان)»[١٧].

وهناك آخرون ممن أُصيبوا في طفولتهم بعقدة الشعور بالحقارة بسبب التربية السيِّئة، يحاولون في كبرهم أن يخفوا هذا الضعف فيهم عن طريق التفوّق والاستعلاء، فيتظاهرون بالقوة والقدرة والعظمة، ويسعون بكل الطرق الممكنة إلى أن يظهروا بمظهر الاقتدار والتسلُّط على الآخرين، فيستعبدوهم ويسخّروهم لمشيئتهم، وبهذا يُغطّون على شعورهم بحقارتهم الباطنية.

هؤلاء أشبـه بمن استولى عليهم الخوف الشديد حتى فقدوا السيطرة على أنفسهم وامتلأت أنفسهم رعباً وضمائرهم هلعاً، ولكنهم لكي يخفوا سرَّهم ولا يطّلع أحد على نقـطة ضعفهم الداخلية، يتظاهرون بالبطولة ويتحدَّثون عن القوة والاقتدار، ويتقمَّصون صفات الجرأة والإقدام.

هكـذا كان حال الناس الحقيرين الوضيعين في العصر الجاهلي، كما عرّفهم الإمام علي(ع)، في إحدى خطبه، فبيَّن هذه الحقيقة في عبارة قصيرة، فقال:

*«شِعَارُهَا الخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ»*[١٨].

أي إنهم في البـاطن كان الخـوف مستولياً عليهم، ولكنهم في الظاهر كانوا يتفاخرون بالبطولات تحت صليل السيوف.

الضعفاء الذين يريدون التفوُّق، من أجل اكتساب القدرة وإثبات العظمة، يتوسَّلون بكل وسيلة ويعاملون كل فريق من الناس بطريقة خاصة، فبعضاً يواجهون

---

(١٧) (ن.م): ٦٣.

(١٨) نهج البلاغة، الخطبة: ٨٨.

بالتكبّر والاستعلاء وينظرون إليهم نظرة تحقير واستصغار، ويعاملون بعضاً آخر بالاستهزاء والسخرية ويهتكون أستارهم ويهينونهم، ويستعملون مع بعض آخر الخشونة والعنف، وقد يسبُّونهم ويشتمونهم، لكي يظهروهم بمظهر الحقارة ويظهروا أنفسهم بمظهر العظمة والرفعة، وقد يتدخّلون في شؤون الآخرين متظاهرين بأنهم يحبُّون الخير لهم ويريدون مصلحتهم ويتطلّعون إلى مستقبلهم، لكي يثبتوا بذلك تفوُّقهم عليهم.

ومن جملة الوسائل التي يتوسَّل بها هؤلاء هو البحث عن عيوب الناس، فيتجسَّسون على دخائل الناس وشؤونهم الخاصة، ويطَّلعون على بعض نقائصهم وعيوبهم، ثم يكشفون لهم عمَّا اطَّلعوا عليه من أسرارهم ويهدِّدونهم بالتشهير بهم وفضحهم أمام الناس، لكي يفرضوا سلطتهم وسيطرتهم عليهم، ويحملوهم على الاستسلام لهم وإطاعتهم. فإذا لم ينفع التهديد معهم في حملهم على الرضوخ، أشاعوا عيوبهم، ولطَّخوا سمعتهم بالوحل، وهتكوا سترهم، وتسببوا في تحقيرهم ويثبتون من جهة أخرى قدرتهم وتفوقهم على الآخرين.

«يختفي في دخيلة طالِبيّ التفوق والاستعلاء الكثير من التشويش والاضطراب مما يكرهون إظهاره أشدَّ الكره. ولإخفاء مدى ضعفهم الباطني وحيرتهم العميقة، يظهرون من أنفسهم الجرأة والخشونة دائمًا، باعتبار أن أمثال هذه الصفات دليل على الشخصية القوية. يحاول طالب التفوّق أن يفرض سيطرته على الآخرين، ويتَّخذ تحقيق هذه الرغبة صوراً متنوِّعة، فقد يفرض سيطرته بصورة مباشرة وصريحة على الآخرين، وقد يتَّخذ صورة حُسن النيّة والرغبة في حلّ مشاكل الآخرين، فيتدخل في شؤونهم، وقد يتجلّى ذلك بصور أخرى من صور تطويع الآخرين وإجبارهم على القيام له بما يريد.

من خصائص طالب الاستعلاء الأخرى حاجته إلى نيل بعض المقام والجاه والشهرة، فيصرف جانباً من جهوده للوصول إلى أيِّ مقام أو مركز، لأن نيل الشهرة في المجتمعات المعاصرة دليل على القوة والقدرة، كما أن ذلك يجلب له

إستحسان الآخرين وتأييدهم، ومن ثم يقلُّ إحساسه بحقارته وضعة نفسه»[١٩].

وعليه، فإن البحث عن عيوب الناس ناجم عن وضاعة النفس والاضطراب الداخلي، والعيّاب يحاول بعمله هذا أن يخفف من شعوره بالدونية، مع أنه بتحقير الناس واهانتهم يزيد، في الواقع، من تحقير نفسه وإذلالها.

عن النبيّ(ص)، قال: «*أذلُّ النّاس مَنْ أهانَ النّاسَ*»[٢٠].

روي أن عمر بن عبدالعزيز دخل إليه رجل فذكر عنده عن رجل شيئاً. فقال عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامنوا إنْ جَاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾[٢١]، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[٢٢]، وإن شئت عفونا عنك. فقال: العفو، لا أعود إلى مثل ذلك أبداً[٢٣].

كان معاوية بن أبي سفيان من بني أمّية، وعقيل من بني هاشم،وكان آل هاشم سادات قريش، مكرّمين ومحترمين، بينما كان آل أمّية يشعرون قبالهم بالصغار والضعة، فكان ذلك مدعاة لحقدهم على آل هاشم، والسعي لمعاداتهم والانتقام منهم.

كان مجلس معاوية في الشام يوماً مكّتظاً بالحاضرين،ومنهم عقيل، فأراد معاوية أن ينتهز الفرصة لينتقص منه، فالتفت إلى الحاضرين وسألهم: أتدرون من أبو لهب الذي قال عنه القرآن: ﴿تَبَّتْ يدا أَبِي لَهَبٍ﴾[٢٤]؟ إنّه عمّ عقيل هذا. فبادر عقيل قائلاً: أتدرون من كانت زوج أبي لهب التي قال عنها القرآن: ﴿وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلحطَبِ * في جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾[٢٥]؟ إنها عمّة معاوية هذا[٢٦].

---

(١٩) تناقضاتنا الداخلية: ٥٣.

(٢٠) نهج الفصاحة: ٤٨.

(٢١) الحجرات: ٦.

(٢٢) القلم: ١١.

(٢٣) مجموعة ورّام ١: ١٢٢.

(٢٤) و (٢٥) المسد: ١، ٤ و ٥.

(٢٦) تتمة المنتهى: ٢٧٥.

كان معاوية يومئذٍ في أوج سلطانه وفي يده أزمّة الأمور في البلاد الإسلامية الشاسعة، فلم يكن أحد ليجرؤ على اهانته، ولكنه بكلامه المهين الذي قاله في عقيل، مزّق ستار الاحترام عن نفسه وجرّأ عقيلاً على أن يكلمه بغلظة، وأن يردَّ إهانته بمثلها ويحقِّره أمام الحاضرين.

كان الحكم من ألدِّ أعداء الإسلام، وساهم مع مشركي مكة في إيذاء الرسول(ص) والمسلمين. وبعدهجرة الرسول(ص) إلى المدينة، ظل الحكم في صفوف أعداء الإسلام ولم يترك إيذاء المسلمين، وعندما فتح جندُ الإسلام مكة، تظاهر باعتناق الإسلام، وترك مكة إلى المدينة، ولكنه لم يكفّ هناك عن أعماله القبيحة، فاضطر الرسول(ص) إلى نفيه إلى الطائف حيث ظل حتى حكم عثمان.

بعد موت يزيد بن معاوية، تسنّم مروان بن الحكم كرسي الخلافة في الشام وراح يدير شؤون البلاد، غير أن أهل مكة والمدينة لم يبايعوه لأنهم كانوا قد بايعوا عبدالله بن الزبير بالخلافة على نجد والحجاز. وبعد موت مروان خلفه ابنه عبدالملك، فصمَّم هذا على القضاء على خلافة عبدالله بن الزبير عن طريق الحرب ليبسط سلطانه على تلك البلاد أيضاً، فأرسل الحجاج، بن يوسف على رأس جيش إلى مكة، حيث اندلعت حرب ضروس، انتصر فيها الحجّاج، وقتل عبدالله بن الزبير، ودخلت منطقة نجد والحجاز الواسعة في ملك عبدالملك القوي.

كان لعبدالله بن الزبير ولد اسمه ثابت اشتهر بالخطابة حتى سمُّوه بلسان آل الزبير. وفي أحد الأيام دخل ثابت على عبدالملك، خليفة بني مروان، المقتدر، مبعوثاً من قبل شخصٍ ما. فبادر عبدالملك إلى تحقيره وذكر مثالب آل الزبير، وقال له: إن أباك كان يعرفك يوم سبك وشتمك. فغضب ثابت من كلامه، وقال له: يا خليفة، أتدري لِـمَ كان أبي يسبني؟ قال: كلّا. قال ثابت: لأني كنت انصحه بألّا يدخل الحرب اعتماداً على مساندة أهل مكة لأنَّ الله لا ينصر بهم أحداً، ولأن أهل مكة هم الذين آذوا الرسول(ص) وأخرجوه منها. ثم جاءوا إلى المدينة واستمروا في فسادهم وقبيح أعمالهم حتى نفاهم رسول الله(ص) منها عقاباً لهم.

كان هذا تعريضاً من ثابت بن عبدالله بالحكم بن أبي العاص، جدِّ عبدالملك، قصد به ردّ اهانته والانتقام منه لما تفوّه به عنه فغضب عبدالملك، وقال: لعنة الله عليك. فردَّ ثابت في الحال لعنة الله على الظالمين كما لعنهم الله تعالى في القرآن الكريم. وكان هذا تعريضاً آخر بعبدالملك، فاشتدَّ غضبه وأمر بسجن ثابت[٢٧].

عبدالملك بن مروان، الخليفة القوي المقتدر، بذكره مثالب ثابت بن عبدالله، عرَّض نفسه لاهانته وتحقيره، وبلعنه زاد من جرأة ثابت على ردِّ اللعنة، وإن كان من دون تصريح، وبسجنه دلَّ على ضعفه وكشف عن عجزه،وكأنه في الحقيقة قد اعترف بهزيمته.

كان ليزيد بن أبي مسلم مقامٌ رفيعٌ في حكومة الحجّاج بن يوسف، إذ كان كاتبه الخاص، ولكنه كان يتدخّل في كل أمر. وفي أيام خلافة سليمان بن عبدالملك طُرد من وظيفته وأصبح غير مرغوب فيه. وفي يوم من الأيام أُدخل على سليمان بن عبدالملك وهو مكبّل بالحديد، فلما رآه ازدراه، فقال: ما رأيت كاليوم قط. لعن الله رجلاً أجّرك رسنه، وحكّمك في أمره. فقال له يزيد: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنّك رأيتني والأمر عني مدبر، وعليك مقبل، ولو رأيتني والأمر مقبل عليَّ لأستعظمت مني ما استصغرت، ولأستجللت مني ما استحقرت. قال: صدقت، فاجلس، لا أمّ لك. فلما استقر به المجلس، قال سليمان: عزمت عليك لتخبرني عن الحجّاج، ما ظنّك به؟ أتراه يهوي بعد في جهنم، أم قد استقر فيها؟ قال: يا أمير المؤمنين، لا تقل هذا في الحجّاج، فقد بذل لكم نصحه، وأحقن دونكم دمه، وأمّن وليكم، وأخاف عدوّكم، وإنه يوم القيامة لعن يمين أبيك عبدالملك ويسار أخيك الوليد، فاجعله حيث شئت. فصاح سليمان: أُخرج عني إلى لعنة الله.

ثم التفت إلى جلسائه فقال: قبّحه الله! ما كان أحسن ترتيبه لنفسه ولصاحبه، ولقد أحسن المكافأة. خَلُّوا سبيله[٢٨].

---

(٢٧) بتلخيص من «معجم البلدان»: ٢١٢.

(٢٨) مروج الذهب. المسعودي ٣: ١٧٧

إن العيَّاب الـذي يهتك أستار الناس ويشوّه سمعتهم، لا يهتك ستر نفسه ويحقّرها ويكشف عن عيوبه الخفية فحسب، بل إنه ينجرُّ إلى تهيئة نفسه للافتراء والبهتان، وذلك لأن الذي يقع ضحية العيّابين وتحقيرهم يكون متعطِّشاً للانتقام، فإذا لم يستـطع التشفِّي وإطفـاء نار غضبـه بإفشاء عيوب العيّابين الحقيقية ونقائصهم الواقعية، فإنَّه يأخذ بالافتراء عليهم وإلصاق شتّى الصفات والأعمال القبيحة بهم مما يكون هو منزَّهاً منها.

عن علي بن الحسين(ع)، قال: «*مَنْ رَمَى النَّاسَ بِمَا فيهِمْ رَمَوْهُ بِمَا لَيْسَ فيهِ*»[٢٩].

وقد يكلّف البحث عن العيوب العيّاب ثمناً باهظاً، إذ إن الذين يتعرَّضون لاهاناته قد لا يكتفون بمجرد إظهار الغضب والتعنيف والردِّ بالكلام الجارح فحسب، بل يتجاوزون ذلك إلى محاولة القضاء على العيّاب، كما أن البحث عن العيوب والهتك ربّما كلَّـف الـذين يقعون ضحية ذلك غالياً أيضاً، وقد يبلغ الأمر حدَّ القتل وإيجاد الكثير من الفساد الذي لا يمكن تلافيه. هنالك في التاريخ شواهد كثيرة على هاتين الحالتين. وفيما يلي نذكر مثالاً :

## الأول

«يقـول (ديل كارنيجي): رئيس جمهـورية الـولايات المتحـدة السابق (لينكـولن)، كان في شبابه مولعاً بالإساءة إلى الآخرين وتعييرهم، وحتى في الوقت الذي كان يسكن فيه ولاية أنديانا كان ينظِّم الشعر يهجو به بعض الأشخـاص، ويكتب الـرسـائـل السـاخـرة ويرميها في طريقهم من باب الاستهزاء بهم. وبعد أن اشتغل بالمحاماة في سيرنغ فيلد، كان يُرسل رسائل مفتوحة إلى الصحف عن خصومه في الدعاوى. وأخيراً بلغ السيل الزبى، كما

(٢٩) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ١٦٠.

يقال. ففي سنة ١٨٤٢م خاصم لينكولن أحد السياسيين الايرلنديين، واسمه (جيمز شيلدز)، وكان رجلاً أنانياً عركاً، فأخذ لينكولن يسخر منه في صحيفة سبرنغ فيلد ويستهزىء به، فاستشاط شيلدز المغرور والحسّاس غضباً، وطلبه للمبارزة. غير أن لينكولن لم يكن يريد المبارزة لأنه لم يكن يؤمن بها، ولكنه كان مضطراً إلى ذلك لحماية شرفه. وترك له الخيار في اختيار نوع السلاح، فاختار السيف لأنه كان طويل اليد والذراع، وراح يتمرّن على المبارزة.

وفي اليوم المعيّن تقابل الخصمان على شاطىء نهر الميسيسيبي وكل منهما مصمم على غمس يده في دم الآخر. ولكن سرعان ما وصل الشهود لحسن الحظ ومنعوا إجراء المبارزة.

كانت هذه من أفجع الحوادث في حياة لينكولن الخاصة، وكانت له درساً علّمته كيف يعامل الناس، وانقطع منذئذٍ عن كتابة الرسائل الساخرة المثيرة للحقد، كما ترك عادة البحث عن العيوب»[٣٠].

البحث عن عيوب الآخرين يعني هتك سترهم وفضحهم بين الناس. إن العيّاب، بعمله القبيح واللّا أخلاقي، يشوّه سمعة الناس، ويهدر كراماتهم، وينشر سوء الظن بينهم، ويثير الفتنة والفساد في المجتمع. البحث عن عيوب الناس من الذنوب الكبيرة في الإسلام، ولقد توعّد الله في القرآن الكريم الذين ينشرون الفضائح والقبائح في المجتمع ويكشفون عن معايب الآخرين عذاباً أليمًا في الدارين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾[٣١].

محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن الأول(ع)، قال: قلت له: الرَّجلُ من إخْواني يبلُغني عنهُ الشَّيءُ الَّذي أكرهُهُ، فأسالُهُ ذلِكَ، فينْكِرُهُ، وقدْ أخْبرَني قومٌ ثِقاتٌ. فقال لي: «*يا محمّد كَذِّبْ سَمْعَكَ وبصرَكَ على أخيكَ، فإن شَهِدَ عندك قَسامَةٌ قالوا لَكَ قولا*

(٣٠) كيف تكسب الأصدقاء: ٢١.

(٣١) النور: ١٩.

فَصَدَّقَهُ وكَذَّبَهُمْ ولا تُذِيعَنَّ عليه شيئاً تَشِينُهُ بِهِ وتَهدِمُ به مُرُوَّتَهُ فتكونُ مِنَ الَّذينَ قالَ الله تعالى في كتابه: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ»(٣٢).

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ ما رَأَتْهُ عَيْنَاهُ وَسَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ فَهُوَ مِنَ الذينَ قالَ اللهُ تعالى فيهم: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفاحِشَةُ»(٣٣).

ستر العيوب هو النقطة المقابلة للبحث عن العيوب وهتك الستر، وهو من الفضائل، والبحث عن العيوب من الرذائل. ستر العيوب يثبت الصداقة والمحبة، والبحث عن العيوب يبعث على الحقد والعداء. ستر العيوب يوطِّد العلائق الاجتماعية ويقرِّب فيما بين الناس، والبحث عن العيوب يفصم عرى العلائق الاجتماعية ويباعد ما بين الناس. ستر العيوب من صفات الخالق جلَّ وعلا، وقد جاء في دعاء الجوشن الكبير:

«يَا مَنْ أَظْهَرَ الجَميلَ، يَا مَنْ سَتَرَ القَبيحَ».

فستر عيوب الآخرين والتغطية على نقائصهم وتجنب هتك أستارهم إتّباعٌ لله تعالى وتشبُّه بالكامل، وفضيلة حميدة تجعل المرء محبوباً في المجتمع، وصفة رفيعة من الصفات الإنسانية.

إن العيّابين الجهلة يستجلبون سوء ظن الناس بهم بسلوكهم القبيح، ويثيرون الغضب والحقد ضدهم، ويتسبَّبون في طردهم من المجتمع، ويفقدون أصدقاءهم، إن كان لمثل هؤلاء أصدقاء. وعلى العكس من ذلك الذين يسترون العيوب، إذ إنهم بعملهم الأخلاقي العقلائي يبذرون بذور المحبة في القلوب، ويقرِّبون البعيد، ويحظون بحبٍّ الناس، ويتمتَّعون بعطفهم ومحبتهم.

كان اسماعيل بن أحمد الساماني يحكم بلاد ما رواء النهر، فعزم عمرو بن الليث الصفاري على أن يحاربه، ويخرجه من ما وراء النهر، ويضم أرضه إلى أرض بلده التي

---

(٣٢) تفسير البرهان: ٧٣٠.

(٣٣) (ن.م)

يحكمها. فجهّز جيشاً كبيراً في نيسابور، ثم انطلق نحو بلخ، فبعث إليه اسماعيل بن أحمد برسالة قائلًا له: إنك تحكم أرضاً واسعة، بينما لا أحكم أنا إلاّ على منطقة صغيرة من ما وراء النهر، فاقنع بما عندك واترك لي ما عندي. ولكن عمرو بن الليث لم يلتفت إلى قوله، وواصل سيره، وعبر نهر جيحون، وطوى المنازل حتى بلغ بلخ. فاختار مكاناً لجيشه حيث حفر الخنادق، وأعد المراصد، وقضى بضعة أيام يتهيأ للقتال، بينما ظلّت فرق جيشه تتوافد وتستقر في المكان المخصص لها[٣٤].

أما قواد اسماعيل بن أحمد وحاشيته الذين كانوا قد سمعوا بشجاعة عمرو بن الليث، فعندما شاهدوا كثرة جنوده المدججين بالسلاح، ارتهبوا وتشاوروا فيما بينهم قائلين: إننا إن دخلنا الحرب مع عمرو وجنوده الأشداء، فإمّا أن نقتل عن آخرنا، وإما أن نولّي الأدبار عندما يحمى وطيس الحرب، ونرضى بذل الفرار، وكلا هذين الأمرين ليس فيهما عقل ولا صلاح. فمن الخير إذن أن نغتنم الفرصة، فنتقرّب إليه ونطلب منه الأمان قبل أن تقع الهزيمة المحتّمة، فهو رجل عاقل وقوي ولا ينتظر منه أن تشوّه سمعته بقتل هذا وذاك وهو سلاح العجزة والحمقى. فقال أحد الحاضرين: هذا كلام معقول ونصح شفوق، فلا بدّ من العمل به. فتقرر أن يجتمعوا في ليلة معينة لينفذوا ما عزموا عليه. وفي الليلة المعيّنة اجتمعوا وكتب كل منهم رسالة إلى عمرو يعرضون عليه إخلاصهم، ووفاءهم له، طالبين منه الأمان. ووصلت الرسائل إلى يد عمرو، فقرأها واطّلع على مضامينها، ووضعها في خرج وختمه بختمه، وأرسل إليهم بالأمان الذي طلبوه.

ودارت رحى الحرب، وانتصر اسماعيل بن أحمد، بخلاف ما كان قواده يتوقعون، إذ حاصر اسماعيل جيش عمرو وما لبثوا ان هزموا وقتل الكثير منهم، وأسر منهم كثير، وفر آخرون. وكان عمرو بن الليث من الفارين ولكنه أُسر، ووقع ما كان عنده غنيمة بيد اسماعيل، ومنها الخرج. فلما رآه مختوماً وقرأ ما كتب عليه، أدرك ما

---

(٣٤) الكامل. ابن الأثير ٧: ١٧٨.

هنالك، وأن الخرج يحتوي على رسائل قواده إلى عمرو. وهمّ أن يفتح الخرج ليطلع على الذين كتبوا تلك الرسائل، ولكنه بحكمته الصائبة وتدبّره العواقب، امتنع عن ذلك، قائلاً في نفسه: لو إنني اطّلعت على أسمائهم لساء ظني بهم، كما أنهم إذا عرفوا انكشاف سرّ خيانتهم ونقضهم لعهودهم، سوف يستولي عليهم الخوف، وقد يدفعهم ذلك إلى العصيان والثورة ومحاولة اغتيالي، أو قد يشكّلون معارضة تسعى للإخلال بالانضباط في الجيش، ويقلبون النصر إلى هزيمة، مما يؤدي إلى مفاسد لا يمكن تلافيها.

وبناءً على ذلك أبقى الخرج مختوماً، ثم استدعى قادته وخواص أصحابه، وأراهم الخرج وعليه ختم عمرو، وقال لهم: هذه رسائل كتبها بعض قادتي وأصحابي إلى عمرو يتقرّبون إليه ويطلبون منه الأمان. أحلف أن أحجّ عشر حجّات إذا كنت أعلم ما في هذه الرسائل والذين كتبوها. فإذا كان ظنّي في أنهم قد طلبوا منه الأمان صحيحاً، فإني أعفو عنهم، وإذا كان غير صحيح فإني استغفر الله على ظنّي. ثم أمر بإحراق الخرج بما فيه، فأُحرق ولم يبق للرسائل من أثر.

فاستولت على كاتبي الرسائل الدهشة والحيرة لما رأوه من اسماعيل من كرامة النفس والعفو الأخلاقي، وأحسوا بالراحة والاطمئنان بعد أن شاهدوا رسائلهم قد استحالت إلى رماد، وإن سرهم قد قُبِر إلى الأبد ولكنهم ندموا على ما بدر منهم، ومالوا إلى قائدهم العظيم وأحبوه، وعزموا عزماً صادقاً مخلصاً أن يبقوا على وفائهم له[٣٥].

اسماعيل بن أحمد، بستره العيوب والتزامه الأصول الأخلاقية، لم ينقذ نفسه من الخطر المحتمل فحسب، بل إنّه، بكريم عمله هذا، جذب إليه محبة الضُبّاط وسائر أفراد شعبه، وزرع محبته في قلوبهم، وحملهم على الوفاء له والتضحية في سبيله.

نستنتج من مجموع البحث أن الميل إلى المعصية والإثم في طبيعة المجتمع أشبه بالمرض في جسم الإنسان. فمثلما أن الجسم يتهيّأ للدفاع عن ظهور بوادر المرض فيه،

(٣٥) جوامع الحكايات: ٥٦.

فيحشد قواه ويكافح المرض وينجّي الجسم من المرض، كذلك يجب أن يكافح الإنسان الإثم في المجتمع، وأن يمنع المفسدين من ارتكاب المفاسد، لإنقاذ المجتمع من خطر الهلاك.

في الإسلام، الإيمان بالله والاعتقاد بالمسؤولية أمام الله تعالى، من أهمّ ما يضمن تنفيذ الأوامر والنواهي الإلهيّة. ولكن لّما لم يكن جميع الناس أقوياء الإيمان، وقد لا يتورعون عن ارتكاب المعاصي إرضاءً لشهواتهم وغرائزهم، فإنّ المشرّع اتّخذ الاحتياطات اللّازمة من أجل الحؤول دون ارتكاب الذنوب، ووضع مجموعة من القوانين والمبادىء الأخلاقية:

١ـ كلّف الجهات القضائية بمحاكمة المجرمين والمذنبين بموجب القانون وإنزال العقاب القانوني بهم بعد ثبوت الجريمة عليهم، لكي يصبحوا عبرة ودرساً للآخرين، فلا يقترفوا الجرائم والمعاصي.

٢ـ أعطى المشرّع للمسلمين كافة حق الإشراف العام باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلّفهم بمراقبة الشؤون الاجتماعية، لينهوا عن المنكرات، ويعاملوا العاصي باستنكار وبرود، ويقطعوا علائقهم به، ويسجنوه في سجن الرأي العام الذي هو أشدُّ وقعاً من السجن الانفرادي.

٣ـ أوصى المشرّع المسلمين، أخلاقياً، بأن يكونوا محبّين للخير، يذكِّرُ بعضهم بعضاً بعيوبهم ويصلحوها أخوياً، الأمر الذي يبعث على إسعاد المجتمع ورفعته.

إن النقطة المهمة التي يجب ألا تغرب عن البال دائمًا في مكافحة الآثام والسيِّئات الأخلاقية، هي أن على المسلمين دائمًا أن يكونوا على حذر من أن ينقلبوا إلى عيّابين وباحثين عن العيوب باسم النهي عن المنكر وانتقاد العيوب الأخلاقية، فلا يتجسّسوا ويُحصوا على الناس هفواتهم فيهتكوا أستارهم ويشوِّهوا سمعتهم، إذ إن ذلك يؤدي، كما شرحنا، إلى إشاعة الفحشاء والفساد، فقد أوعد القرآن الكريم العاملين على ذلك بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

إن البحث عن العيوب وهتك الأستار لا يُصلح المجتمع ولا يعالج الأمراض

الاجتماعية والفساد الأخلاقي فحسب، بل على العكس من ذلك، يزيد من شيوع الإثم والفساد الأخلاقي، وينشر سوء الظنّ بين الناس، ويبذر بذور الحقد والعداء في الصدور، ويحمل الناس على الانتقام، مما يؤدّي إلى تعاسة الفرد والمجتمع وشقائهم. ولهذا اعتبر أئمة المسلمين البحث عن عيوب الناس من الكبائر، ونبّهوا أصحابهم على تجنبه.

عن الإمـام علي(ع)،قال:«*تَتَبّعُ العُيُوبِ مِنْ أقْبَحِ العُيُوبِ وشَرِّ السَّيِّئاتِ*»[٣٦].

(٣٦) فهرست الغرر: ٢٨٧.

# الفصل التاسع

*«مَنْ رَأى أخَاهُ عَلى أمرٍ يَكْرَهُهُ فَلَمْ يَرُدَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ فقَدْ خَانَهُ»*

*الإمام الصادق(ع)*

## النقد

في السابق، عندما كان البيع والشراء بين الناس يجري بمسكوكات من الفضة، كان هناك من يزيِّفها بأن يسكَّ من معدن الرصاص مسكوكات تشبه النقود الرائجة ويتعاطاها مع الناس على اعتبار أنها أصلية، وكثيراً ما كان الكيس من النقود الفضة يحتوي على عدد من المسكوكات الرصاص. فإذا شاء أحد أن يتأكد من أن تكون نقوده خالصة بإخراج المزيَّفة منها، كان يذهب إلى صراف نقّاد لينقد له نقوده، أي يستخرج المزيَّف منها من السليم. وهكذا أخذت العرب تطلق على الصّراف الذي ينقد الدراهم اسم المنتقد، وعمله هو الانتقاد أو النقد.

وينظِّم الشاعر قصيدة، ثم يعرضها على ضليع في الشعر لينتقدها ويبيّن له عيوبها ومحاسنها. فيقرأ الأستاذ الضليع القصيدة ويشرح ما فيها من نقاط ضعف من الناحية الأدبية، ويصلح ما فيها من خلل. فهذا الأستاذ ناقد، وعمله النقد.

ومن يريد أن يتعرّف على عيوبه الأخلاقية، ويتبيّن ما في أقواله وأعماله من خطأ فيصحِّحها، فإنَّ عليه أن يستفيد من انتقاد أُناس عارفين طاهرين، فيطلب منهم

أن يطلعوه على نقائصه ونقاط ضعفه الأخلاقية.

عن موسى بن جعفر(ع)، قال: *«اجْتَهِدُوا في أنْ يَكُونَ زمانُكُمْ أَرْبَعَ ساعاتٍ: ساعةً لِمناجاةِ الله، وساعة لأمرِ المَعاش، وساعة لِمعاشَرَةِ الإخوانِ الثِّقاتِ الَّذينَ يُعرِفونَ عُيُوبَكُمْ ويُخْلِصُونَ لَكُمْ في الباطِن، وساعَة تَخْلُونَ لِلَذّاتِكُمْ في غَيْرِ مُحَرَّمٍ، وبِهذِهِ السّاعَةِ تَقْدِرُونَ عَلى الثَّلاثِ ساعاتٍ»*[1].

إنَّ النقد البنّاء طريق من طرق معرفة الصحيح من غير الصحيح، فهو يمنح الناس نظرة واقعية، ويُصلح أفكارهم وأعمالهم، ويفتح طريق النمو والتقدُّم أمام الفرد والمجتمع، ويُعِدُّهم للرقي والتكامل. المعرفة الإنسانية تتقدم في ضوء النقد الدقيق من جانب العلماء، وتسير في مدارج السمو. وبنقد العلماء ودراساتهم تتبيَّن صحة النظريات العلمية أو سقمها، وحقها من باطلها. إن الانتقاد السليم يلفت انتباه الناس للذنوب والسيِّئات الأخلاقية، ويميِّز بين الأخلاق الحميدة والذميمة، والأعمال الحسنة والسيِّئة، وينير طريق السعادة والنجاة.

أهمية الانتقاد تختلف في التعاليم الإلهيّة باختلاف الموضوع الذي يتناوله النقد، فبعض الأعمال المخالفة للأخلاق تُعَدُّ في الإسلام من الكبائر، فيكون على الناس كافة أن يجتنبوها، كالكَذِب، والبهت، وخيانة الأمانة، ونظائرها. ففي مثل هذه الحالات يكون الانتقاد من الفرائض الدينية، والمسلمون مكلَّفون، بموجب قانون النهي عن المنكر، أن يقوموا بهذا الواجب الاجتماعي، فينهوا المذنب عن ارتكاب الذنب.

وهناك أعمال لا تعتبر ذنباً من وجهة نظر القوانين الإسلامية، ولكنها من الناحية الأخلاقية مذمومة وغير مستحبَّة، مثل الثرثرة، والرضى عن النفس، والفظاظة في التعامل مع الناس، وأمثال هذه من الصفات السلوكية. الانتقاد في مثل هذه الحال واجب أخلاقي، فيقوم المسلمون، من باب حبِّ الخير للناس، بتذكير إخوانهم بنقاط

---

(١) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ٢٠٣.

الضعف فيهم، ويتعاونون بعض مع بعض في إزالة نقائصهم.

### شروط النقد السليم

الشرط الأول للانتقاد السليم هو أن يكون الناقد عارفاً بالوضع القانوني والأخلاقي للحالة المنقودة، من حيث تحريمها أو كراهتها أو غير ذلك، بحيث إنه ينبـه عليها عن علمٍ ومعرفة، لا أن يلقي كلامه على أساس من الظنّ والتخمين، فكثيراً ما يحدث أن يتصوَّر جاهل أمراً ذنباً وهو مباح في الواقع، فيمنع الآخرين منه باسم النهي عن المنكر، أو أن يحسب العمل المسموح سيِّئة أخلاقية فينتقد الفاعل أشدَّ النقد. هؤلاء، بما يقومون به من عمل عن جهل، يحرِّمون، من جهة، حلال الله، ويكشفـون، من جهة أخرى، عن جهلهم المطبق وضعف معلوماتهم، مما يؤدي إلى تضليل الناس غير الواعين، وتحقير أنفسهم في أعين الناس. إن محمَّد بن المنكدر قال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة فلقيت محمَّد بن علي وكان رجلاً بديناً وهو متّكٍ على غلامين له أسودين أو موليين، فقلت في نفسي شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا، أشهد لأعظنَّه فدنوت منه فسلمت عليه فسلّم عليَّ ببهر وقد تصبّب عرقاً، فقلت: أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا لو جاءك الموت وأنت على هذه الحال، قال: فخلّى عن الغلامين من يده، ثم تساند وقال: لو جاءني والله الموت وأنا في هذه الحال جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله تعالى أكفُّ بها نفسي عنك وعن النّاس، وإنما كنت أخاف الموت لو جاءني وأنا على معصية من معاصي الله، فقلت: يرحمك الله اردت أن أعِظك فوعظتني[٢].

عن حماد بن عثمان، قال: حضرت أبا عبدالله الصادق(ع) وقال رجل: أصلحك الله، ذكرت أن عليَّ بن أبي طالب كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعه دراهم

(٢) البحار، ٤٦: ٢٨٧.

وما أشبه ذلك، ونرى عليك لباس الجديد. فقال له: *«إنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ كانَ يَلْبَسُ ذلكَ في زمانٍ لا يُنكَر، ولو لبِسَ مثلَ ذلكِ اليومَ شُهِرَ بهِ، فَخَيْرُ لباسِ كُلِّ زمانٍ لباسُ أهْلِه»*[٣].

يكون النقد والدرس - كما سيلي تفصيله - بصور متعدِّدة، وكل صورة من تلك الصور قادرة على التمييز بين الأفكار الصحيحة والسقيمة، والأخلاق الحميدة والذميمة، وتفصل الأعمال المقبولة عن المرفوضة، فتمهِّدُ الطريق لإصلاح العيوب والنقائص.

## الصورة الأولى:

يجدر بكل إنسان أن يكون ناقد نفسه، فيزن أفكاره بميزان الحق والفضيلة، ويتعرَّف على سليمها وسقيمها، فيطرد الفكرة الفاسدة من ذهنه، وكذلك يتفحَّص أقواله بدقَّة، ويميِّز الحسن منها من السيِّئ، فيترك السيِّىء ويزكّي نفسه. إن هذه الصورة من الانتقاد من أفضل الصور، وأسهلها، وأشدِّها تأثيراً في القضاء على السيِّئات الأخلاقية والأعمال الذميمة، وهذه الصورة هي التي أوصى بها أئمة الإسلام أصحابهم لبناء ذواتهم وتهذيبها.

عن الإمام الحسن(ع)، قال: *«مِـنْ دلائـلِ العـالِمِ انتقادُهُ لَحديثِه، وَعِلْمُهُ بحقائقِ فُنُونِ النَّظَر»*[٤].

وعن الإمام الصادق(ع) أنه قال لعبد الله بن جندب: *«حَقٌّ على كُلِّ مسلمٍ يَعرِفُنا أَنْ يَعْرِضَ عَمَلَهُ في كُلِّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ على نَفْسِهِ، فَيكُونَ مُحاسِبَ نَفْسِهِ، فإن رأى حَسَنَةً اسْتزادَ منها، وإنْ رأى سيِّئةً استغْفَرَ منها»*[٥].

## الصورة الثانية:

على الرغم من أن كل إنسان قادر على أن يستعمل عقله في انتقاد أفكاره

---

(٣) (ن.م) ٩: ٥٠٢.

(٤) (ن.م) ١٧: ١٤٩.

(٥) مستدرك الوسائل، النوري ٢: ٣٥٣.

وأعماله ودراستها لمعرفة ما فيه من عيوب ونقائص، غير أن مثل هذه الدراسة لا تجيب عن كل التساؤلات التي يطرحها النقد، ولا تستطيع أن تقفه على جميع عيوبه، وذلك لأن الإنسان، وإن يكن عاقلاً، فإنه ينفعل بعوامل أخرى أيضاً، فمن جهة غريزة حبِّ الذّات تجعله يحبُّ نفسه أكثر من أيِّ شيء وأيِّ شخص، ويرى أعماله التي تمثّل وجوده محمودة وسليمة، ومن جهة أخرى يجد نفسه تحت تأثير المحيط الذي ترعرع فيه واعتاد على آدابه وعاداته، فنظرته إلى الحسن والقبيح من الأخلاق والأعمال تستندُ إلى نظرة ذلك المحيط إليها، ويزن الطيِّب والخبيث بالموازين التي تلقّاها في تربيته. من البديهي إذن أن تغشى العقل غائمة بوجود هذه العوامل، فلا يعود يرى الواقع الحقيقي، ويفقد حرية العمل، ولا يستطيع أن يرى القبيح على حقيقته تماماً، ولا أن يصدر فيها حكماً صحيحاً.

فالذي يريد أن يطّلع على جميع عيوبه ونقائصه وأن يتعرَّف على كل صفاته وأعماله المذمومة، ينبغي له أن يضمّ عقولاً أخرى إلى عقله لكي يستفيد من انتقاداتها وتمحيصاتها. عليه أن يستعين بأشخاص واعين وعالمين ومطّلعين على أحواله لكي يرشدوه. أو أن يطرح أعماله وأفكاره للمناقشة مع أُناس من ذوي البصيرة والحكمة يطلب إليهم أن ينتقدوها، وبذلك يستطيع التعرُّف على العيوب التي كان غافلاً عنها، فيعمل على إصلاحها.

الحكماء والفضلاء أشبه بالمرآة في المجتمع، يعكسون الجمال والقبح، ويوضّحون الحقائق. فعلى طالب الفضيلة والطهارة أن يعرض نفسه على هؤلاء، وأن يستمع إلى انتقاداتهم، ويتعرَّف على سيِّئاته المجهولة، فيعمد إلى إصلاحها بكل جدٍّ وعزم.

قال رسول الله(ص): *«اَلمُؤمِنُ مِرْآةُ أَخيهِ، يُميطُ عَنْهُ الأذى»*[٦].

في عالمنا اليوم أُناس يبدو على ظاهرهم أنهم يتمتّعون بنعمة السلامة، ولكنّهم مع ذلك يبادرون سنوياً إلى عرض أنفسهم على اللِّجان الطبيّة المتخصِّصة لإجراء

---

(٦) مشكاة الأنوار: ١٠٦.

الفحوص على جميع أعضاء أجسامهم بدقّة، واختبارها بالطرق الطبية والمختبرية، وذلك لكي يطّلعوا على حالاتهم الصحية، ويتعرّفوا على مدى سلامة أعضائهم الباطنية والظاهرية وقيامها بوظائفها خير قيام، وإذا ظهر أنهم مصابون بمرض أو بأيّة أعراض مرضية، مهما كانت تافهة، فإنّهم يُسرعون إلى معالجتها والقضاء عليها.

في صدر الإسلام كان هناك مسلمون يقومون بمثل هذا الاستقصاء والاختبار لمعرفة سلامة أفكارهم وتزكية نفوسهم، فكانوا يعرضون أنفسهم على ذوي الحكمة والبصيرة، يطلبون منهم الكشف لهم عن عيوبهم ونقائصهم، وفي مقابل هذه الخدمة الإنسانية الكبيرة كانوا يدعون لهم بالخير ويقولون:

*«رَحِمَ اللهُ مَنْ أهدَى إليَّ عُيُوبِي»*[٧].

## الصورة الثالثة:

بعض الأشخاص الأخيار الذي يحبُّون الخير للآخرين بطبيعتهم ولشرف نفوسهم، يتأثّرون أشدَّ التأثُّر لملاحظة الأخلاق المذمومة عند بعض الناس، فيقومون، بدافع من حبِّهم للآخرين، بلفت أنظارهم، بكل إخلاص، إلى ذلك، وينتقدونهم بحسن نيّة، بأمل أن يتنبَّهوا إلى عيوبهم، فيصلحوها ويزيلوا ما فيهم من العيوب الأخلاقية والعلمية. هذا النوع من الانتقاد الذي تكون المبادرة فيه بالانتقاد من طرف الناقد، من دون أن يطلب إليه ذلك، يكون عادة ثقيلاً على الأسماع وقد يكلِّف غالياً، وغالباً ما يواجه الناقد ردَّ فعل معاكساً.

في حديث أبي الدرداء أن النبي(ص)، قال: *«إنْ نَقَدْتَ النَّاسَ نَقَدُوكَ، وإنْ تَرَكْتَ النَّاسَ تَرَكُوكَ»*[٨].

ومع ذلك فإن هناك الكثيرين الذي يتحمّلون ثقل مثل هذا الانتقاد ويتقبّلونه،

---

(٧) المحجّة البيضاء، الكاشاني ٥: ١١٣.

(٨) لسان العرب، مادة «نقد».

ويشكرون المنتقد على نقده، أو يقابلونه بالسكوت، في الأقل. ولكن الأغلب من الناس عند سماعهم أحداً ينتقدهم، وإن يكن على حقّ ويحكي عن الواقع، يزعجهم ذلك وقد يستولي عليهم الغضب، وتصدر منهم ردود أفعال متباينة، فبعض يدافع عن نفسه ويبذل جهده لإثبات صحة عمله الذي ارتكبه لكي يبرّىء نفسه، وبعض يحاول أن يؤكد أنَّ العمل الصحيح هو الذي فعله حصراً، وأنَّ غير ذلك من فعلٍ هو الخطأ والقمين بالانتقاد. وهناك من قد يهاجم المنتقد في معرض الدفاع عن نفسه، فيواجهه بالمقذع من الكلام، وربما حقد عليه في باطنه وحاول القيام بعمل انتقامي وعدائي. وهكذا نجد أن الانتقاد الذي يبادر به المنتقد يسبب الغضب والسخط، لأنه اعتراض على حبِّ الذّات، ويجرح الشخصية، ويثير العداوة والبغضاء.

عن أبي عبدالله الصادق(ع): *«الاسْتِقْصاءُ فُرْقَةٌ والانتقادُ عَداوَةٌ»*[٩].

«عندما توجهون كلاماً إلى أحد تذكَّروا أنكم لا تواجهون كائناً منطقياً، بل كائناً انفعالياً. إن أمامكم مخلوقاً مؤلَّفاً من مجموعة من العقائد التي لا دليل عليها، وإنه يتحرك بدافع من الغرور وحبِّ الذّات. فالانتقاد شرارة خطرة، صاعقة يمكن أن تفجّر مخزن بارود الغرور. وعندئذٍ سوف تلاحظون أنه على الرغم من أن انتقاداتكم موجَّهة في نظركم وفي محلها، فإنَّ النتائج ستكون غير منتظرة»[١٠].

حبُّ الذّات والمصالح الخاصة تحملنا على أن نُطبِقَ شفاهنا عن الانتقاد، ونترك الآخرين وشأنهم، ولا نتحدّث بشيء عن سيِّئاتهم، لئلا نتسبّب في إزعاجهم وتكدير خواطرهم، إذ إن الانتقاد مرٌّ وغير مستساغ، وهو غالباً ما يؤذي الناس، ويبعث على إثارة الغضب والعنف فيهم، وقد يثير أحياناً العداء.

هاتان الوجهتان المتضادّتان تحملان المرءَ على الشك والترديد في جدوى

---

(٩) تحف العقول، الحراني: ٣١٥.

(١٠) كيف تكسب الأصدقاء: ٢٧.

الانتقاد، ويجد نفسه يواجه السؤال التالي: ما هو واجبه أزاء أعمال الناس القبيحة وسلوكهم الذميم؟ هل عليه أن يكون من محبي الخير للآخرين، وأن يُعنى بمصلحة المجتمع، فينتقد العمل القبيح، أم أن عليه أن يكون محباً لذاته، ويقدِّم مصلحته الخاصة، فيمتنع عن توجيه الانتقاد إلى أحد؟

ونظراً لوجود الاختلافات فيما بين المدارس الفلسفية والعقائد العلمية بالنسبة للأخلاق، فإن الإجابة عن هذا السؤال تكون مختلفة أيضاً، وكل جهة تجيب عنه بما يتّفق ومفاهيم المدرسة التي تتبعها.

سبق أن قلنا إن عُبّاد الفردية يرون سعادة الإنسان في حب الذّات وإشباع غرائزهم وأهوائهم النفسية. وهم للوصول إلى هذا الهدف يرون كل عمل غير مشروع مشروعاً، ولا يرون بأساً في الاعتداء على حقوق الآخرين في سبيل نيل أغراضهم. إنهم لا يحبُّون الآخرين ولا يُعْنون بمصلحة المجتمع، وبما أنهم لا يهتمون بمكارم الأخلاق أو السجايا الإنسانية، ولا يقيمون وزناً للحق، والفضيلة، والعدل والإنصاف، وطهارة الذيل، وكرم النفس، وغيرها من الخصال الحميدة، فكيف يمكن أن ينتقدوا الأعمال اللاّ أخلاقية، وينهوا الناس عن ارتكابها.

إن جواب هؤلاء عن السؤال السابق بشأن الانتقاد جواب رافض، لا لأنّه يسبب العداوة والبغضاء، بل لأنَّ الانتقاد يتعارض مع حرية الشهوات والتمتّع باللَّذائذ. في نظر هؤلاء كل خلق أو عمل يشبع غرائزهم ويوصلهم إلى لذائذهم فهو حسن، حتى وإن يكن إثماً أو مخالفاً للأخلاق، وكل صفة تقف مانعاً في وجه تحقيق الأهواء ونيل المتع صفة سيِّئة، حتى وإن اتّسمت بالفضيلة والنقاء. وبديهي أنَّ من يتبع مثل هذا الطراز في التفكير، وفضلاً عن كونه لا يرى أيَّ نفع أو فائدة في الانتقاد، فإنّما يراه عملاً سيِّئاً يتعارض والحرية.

ومثل هؤلاء هم النفعيون الذين لا يفكّرون إلاّ في أنفسهم، ولا ينظرون إلى الأخلاق إلاّ من حيث ما فيها من المنفعة الخاصة، دون الاهتمام بجانبها الإنساني، ولكنهم يعتبرون أنفسهم جزءاً من المجتمع، فيحترمون السنن الاجتماعية، ويرون أنَّ

مصلحتهم تكمن في أن يراعوا مصالح الآخرين، وأن يمتنعوا عن الاعتداء على حقوقهم.

وهؤلاء الـذي يَزِنُـون كل شيءٍ بميزان المنفعة، إذا علموا أنَّ حبَّ الناس والانتقـادات الأخـلاقية تؤدِّي إلى تحسـين سمعتهم وتضـاعف محبوبيتهم، وبذلك يصيبهم نفع أكبر، فإنَّهم يتمسّكون بها لكي يحققوا لغريزة حبّ الذّات المزيد من الإشباع. وإن رأوا في ذلك ضرراً عليهم وإزعاجاً للآخرين، أمسكوا ألسنتهم عن الانتقاد وغضّوا الطرف عن عيوب الناس ونقائصهم.

هؤلاء أيضاً يكاد ردهم يكون بالنفي على السؤال السابق بشأن الانتقاد، لأنهم من أصحاب الأخلاق النفعية، وكل هدفهم من فعالياتهم الاجتماعية هو المنفعة المادية. إنهم لا يؤمنـون بحبِّ الإنسانية، ولا يهتمون بالمعنويات النفسية، ولا يفكرون في سعادة الناس، ولا يوجِّهون انتقاداً إلى أحد بهدف تخليصه من نقائصه وعيوبه.

أمّا الإسلام فيرعى المصالح الفردية والاجتماعية جنباً إلى جنب، والمسلمون مكلّفـون شرعـاً بأن يحبُّـوا الآخـرين كحبِّهم أنفسهم، وأن يحافظوا على مصلحة الآخـرين كما يحافـظون على مصالحهم الخاصة، وأن يفكّروا في خير الناس مادياً ومعنوياً، ويعينوهم على نيل سعادتهم ونجاتهم، وهذا حق من حقوق الأُخُوَّةِ في الإسلام.

عن موسى بن جعفر(ع)، قال: *«إِنَّ مِنْ أَوْجَبِ حَقِّ أَخِيكَ أَنْ لَا تَكْتُمَهُ شَيْئاً يَنْفَعُهُ لأَمْرِ دُنْيَاهُ وَلِأَمْرِ آخِرَتِهِ»*[١١].

من الأمور التي تفيد الناس في دنياهم وآخرتهم إصلاح أخلاقهم وترك الأعمال المذمومة. والانتقاد الذي يستهدف صلاحهم وخيرهم هو من الطرق الموصلة إلى هذا الهدف السامي. إنَّ الذين يكتمون الحقيقة، ويتجنّبون الانتقاد، هم فضلاً عن كونهم يستحقون بذلك حقاً من حقوق إخوانهم، فإنَّهم يرتكبون عملاً خيانياً إن هم أحجموا

---

(١١) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ٢٠٥.

عن النقد إذا وثقوا من أنه يقع مؤثراً ومفيداً.

## الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عن الصادق(ع) قال: *«مَنْ رأى أخاهُ عَلى أمرٍ يَكْرَهُهُ فَلَمْ يَرُدَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَقَدْ خانَهُ»*[١٢].

هنالك في الإسلام شروط معيّنة للانتقاد الواجب، أي للنهي عن المنكر، وقد صدرت فتاوى الإمامية وفقاً لتلك الشروط. من ذلك أن يحتمل الناهي أن يكون لكلامه تأثير بحيث لا يذهب نهيه عبثاً وسدى. ومنها أيضاً أن لا يؤدّي النهي عن المنكر إلى الاختلال والفساد، ولا يجلب على نفسه أو على المسلمين الآخرين ضرراً في النفس أو في العرض أو في المال. إن ما يميّز النهج الإسلامي عن أخلاق النفعيّين هو أن هؤلاء لا يفكّرون إلّا بمصالحهم الخاصة، ويفضّلون دائماً المصلحة الفردية على المصلحة الاجتماعية، ويقدّمون حبَّ الذات على حبِّ الآخرين. أمّا الإسلام فإنّه على محافظته على مصلحة الفرد، يُعنى بمصلحة المجتمع عناية فائقة أيضاً، وهو يوصي المسلمين بالتضحية الفردية في سبيل المصلحة الاجتماعية، عند أقتضاء الضرورة.

إذا عرف مسلم أن نهيه عن المنكر يؤثر تأثيراً إيجابياً، ويمنع المعصية، ويوقف العاصي عن المُضي فيها، ولكن قيامه بالنهي يجلب عليه الضرر والأذى، فإنّ واجبه الديني، عندئذٍ، هو أن يقارن بين الضرر الناجم عن ارتكاب المعصية والضرر الشخصي الناجم عن النهي عن المنكر، فإذا رأى أن لمنع المعصية أهمية أكبر من الضرر الخاص، فإنّ عليه أن يتحمّل الضرر الشخصي مهما يكن ثقيلاً، فيقدّم مصلحة الدين والمجتمع على المصلحة الخاصة:

«هذا فيما إذا لم يُحرز تأثير الأمر والنهي، وأمّا إذا أحرز ذلك، فلا بدَّ من رعايه الأهميّة، فقد يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع العلم بترتّب الضرر أيضاً

---

(١٢) أمالي الصدوق: ١٦٢.

فضلًا عن الظّنّ بهِ أو حتماله»[١٣].

إن المسلم إذ ينتقد نقداً أخلاقياً يكون محبّاً للآخرين ويريد الخير لهم، في حالة معرفته أنَّ نهيه عن المنكر سيقع موقع القبول من الطرف الآخر ويثمر ثمراً نافعاً في إزالة عيوبه، فإنّه لن يتخلّى عن القيام بواجبه، بل يتحمّل ما قد يكون هناك من مشكلات، ولا يخون إخوانه في النصح لهم.

الانتقاد بمثابة مدرسة متنقّلة تقوم بتعليم الناس وتربيتهم، وتعرِّفهم على الحسن والسيِّء، وتُعِدُّ الأسباب لنموهم المادي والمعنوي. ولكي تبقى الانتقادات الأخلاقية ثابتة الأساس في المجتمع الإسلامي وينتفع منها الناس دائمًا، أوصى أئمة الإسلام بتنفيذ ثلاثة أُمور لها فوائد جّمة على الصعيد النفسي، كما أن التزام هذه الأمور الثلاثة يخفّف الكثير مما في الانتقاد من صعوبة التقبُّل، ويجعل النقد الإصلاحي ممكن التحمُّل، ويصرف الناس عن المقابلة والمقاومة، ويزيل العوامل غير المرغوب فيها من الانتقاد إلى حدٍّ كبير.

### الأمر الأوَّل:

أوصوا الناس أن يطلبوا الموعظة والتذكير، وأن يتقبّلوا الانتقاد تقبُّلًا حسناً باعتباره الطريق إلى معرفة عيوبهم ونقائصهم، وألا ينزعجوا من منتقديهم، ولا يضمروا إليهم حقداً، بل عليهم أن يُعِزُّوه أكثر من كل أصدقائهم، وأن يصغوا إلى ما يقول بكل انتباه، وينفِّذوا انتقاداته الإصلاحية عملياً.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*لِيَكُنْ آثَرُ النَّاسِ عِنْدَكَ مَنْ أهدى إِلَيْكَ عَيْبَكَ، وأعانَكَ على نَفْسِكَ*»[١٤].

وعنه(ع): «*أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْكَ أَعْوَنُهُمْ لَكَ على صلاحِ نَفْسِكَ، وأَنْصَحُهُمْ*

---

(١٣) منهاج الصالحين ١: ٣٤٩.

(١٤) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٥٨٥.

*لَكَ في دِينِكَ»*(١٥).

قال أبو جعفر الباقر(ع): *«يا صالحُ اتَّبِعْ مَنْ يُبْكيكَ وهُوَ لَكَ ناصِحٌ، ولا تَتَّبِعْ مَنْ يُضْحِكُكَ وهُوَ لَكَ غاشٌّ، وسَتَرِدُونَ على اللهِ جميعاً فتَعْلَمُونَ»*(١٦).

## الأمر الثاني:

أوصوا المنتقدين بأن ينبِّهوا إخوانهم على عيوبهم ونقائصهم بشكل خفي، مع رعاية كرامة الأشخاص وسمعتهم، فلا يبادرون بالنصح أمام الآخرين لئلّا يسبِّبوا لهم الخجل والانكسار.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«نُصْحُكَ بَيْنَ المَلأ تَقْرِيعٌ»*(١٧).

عن الإمام الحسن العسكري(ع)، قال: *«مَنْ وَعَظَ أخاهُ سِرّاً فقَدْ زانَهُ، ومَنْ وَعَظَهُ عَلانِيَةً فَقَدْ شانَهُ»*(١٨).

كان رسول الله(ص) إذا بَلَغه عن الرَّجلِ شيءٌ، لم يقلْ: ما بالُ فلانٍ؟ ولكنْ يقولُ: ما بالُ أقوامٍ يقولُون؟ حتَّى لا يفضَحَ أحَداً(١٩).

إنَّ المواعظ الخاصة التي تُقدَّم في السرِّ، والانتقادات الصحيحة والعقلائية التي تجري ضمن حدود الأدب والأخلاق، غالباً ما تكون ذات نتائج إيجابية، فتلفت نظر المرء إلى عيوبه، فيتقبل التنبيهات والنصائح الأخوية، ويعمل على إزالة نقائصه. وحتى إذا لم تأت بنتائج إيجابية فهي، في الأقل، لا تسبِّب المجابهة الحادَّة والكلام الفظَّ والحقد والعداء.

كان مسلمة بن عبدالملك أحد أمراء الجيش في حرب الرُّوم، وعندما تولّى عمر

---

(١٥) فهرست الغرر: ٣٨١.

(١٦) وسائل الشيعة، العاملي، كتاب الحجّ: ٢٠٤.

(١٧) فهرست الغرر: ٣٨٢.

(١٨) تحف العقول، الحراني: ٤٨٩.

(١٩) المستطرف من كل فن مستظرف، الأبشيهي ١: ١١٦.

بن عبدالعزيز الخلافة سمح لمسلمة بزيارته كل يوم.

في أحد الأيام وصل خبر إلى الخليفة بأن مسلمة يسرف كثيراً بتهيئة الغذاء فأدّى هذا الخبر إلى عدم ارتياح الخليفة وصمَّم على نصيحته وإرشاده.

فقد أمر الخليفة في أحد الأيام بإعداد وجبة عشاء مخصصة لمسلمة وفي تلك الدعوة أمر الخليفة طباخ القصر بتهيئة أنواع مختلفة من الطعام ومن ضمنها حساء من العدس والبصل والزيتون. وأمره عندما يحين وقت العشاء أن يقدّم الحساء، وبعد فترة يقدّم أنواع الأطعمة الأخرى.

لما حضر مسلمة بدأ الخليفة يسأل مسلمة عن أوضاع الرُّوم والحرب في تلك المنطقة فأجابه، وبعد ساعتين من وقت العشاء أمر الخليفة الطبّاخ بجلب العشاء، وأول الأطعمة المطلوبة الحساء، وكان مسلمة جائعاً فلم يستطيع انتظار بقية الطعام فقام بأكل الحساء وشبع، وعندما قدَّموا بقية الأطعمة المختلفة لم يستطع مسلمة الأكل بعد ذلك.

فسأله عمر بن عبدالعزيز: لماذا لا تأكل؟ فأجاب لقد شبعت. فقال الخليفة: سبحان الله، أنت شبعت من هذا الحساء، الذي كلَّفنا درهماً واحداً، أما لهذه المأكولات المختلفة فإنّك تصرف الآف الدراهم، خفّ من الله، لا تُسرف، يجب أن تعطى هذه المبالغ إلى المحتاجين طلباً لمرضاة الله.

فقد كانت نصيحة عمر بن عبدالعزيز لمسلمة مؤثرة طول حياته[٢٠].

إنَّ تقديم النصح علناً، والإشارة إلى الأخطاء أمام الناس، وتوبيخ الخاطىء على ما فعل وتخطئته على رؤوس الأشهاد، وانتقاد زلاّته في حضور الآخرين، إنَّما هو في الحقيقة تحطيم لشخصيته. إنَّ مثل هذا النصح فضلاً عن كونه لا يأتي بأيِّ أثر مفيد، فإنَّه يبعث على العداوة والبغضاء، ويثير الرغبة في الانتقام، وتكون له نتائج ضارَّة.

«كان أحد المحامين الشبّان يتابع جلسات دعوى في إحدى محاكم نيويورك

---

(٢٠) ناسخ التواريخ، حالات الإمام الباقر ١: ٤١٠.

بشأن بيع وشراء الأسلحة. والتفت إليه مـــرة أحد القضاة يسأله: المدوّن في قانون البحار ست سنوات، أليس كذلك؟ فراح المحامي الشاب، الذي كان واقفـاً، يحدّق في القـاضي، ثم قال بصوت مرتفع: لا يا سيدي، مواد قانون البحار لا تذكر شيئاً بخصوص المدة أبداً في هذا الأمر.

قال المحامي بعد ذلك إنه بعد أن نطق بهذه العبارة استولى صمت ثقيل على المحكمة، ووصلت حرارة الجلسة إلى درجة الصفر: لقد أخطأ القاضي، وكنت أنا الذي نبّهته على خطئه. هل كانت هذه هي الطريقة المُثلى للفت النظر؟ كلّا. وكانت النتيجة أنّي خسرت القضية، على الرغم من حُسن بلائي في الدفاع، وبالرغم من أن القانون كان يؤيّدني. كنت قد ارتكبت خطأ لا يُغتفر، إذ إني خطّأت شخصية علمية معروفة علناً»[٢١].

## الأمر الثالث:

أوصى أئمـة الـدين المسلمين بالتزام جانب الأدب والاحترام عند الوعظ والانتقاد، بأن يحدِّثوا الناس باللُّطف واللِّين، ويحيطوا كلامهم بالمحبَّة والرعاية.

قال رسول الله(ص)، في معرض ذكر الانتقادات القانونية: إن ما ينبغي على الناقد هو أن يكون:

*«نَـاصِحاً لِلْخَلق، رَحيمًا، رَفيقاً بِهِم، داعِيَاً لَهُمْ باللُّطْفِ وحُسْنِ البيانِ، عارِفاً بتفاوُتِ أخلاقِهِم لِيُنزِلَ كُلّا مَنْزِلَتَه»*[٢٢].

كذلك الأمر في الانتقادات الأخلاقية، فهذه أيضاً يجب أن تُقَدَّم بلغة المحبِّ مع رعاية الأدب. إنَّ النقد اللّيِّن المؤدَّب يكون في الغالب ذا نتائج إيجابية وآثار مفيدة، فيعمـد السـامـع إلى إزالـة نقـائصه وعيوبه، وبذلك يبلغ الناقد هدفه الإصلاحي والتربوي الذي استهدفه.

---

(٢١) كيف تكسب الأصدقاء: ٢٨٥.

(٢٢) بحار الأنوار، المجلسي ٢٢: ١١٤.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*مَنْ كانَ رَفيقاً في أمرِهِ نالَ ما يُريدُ مِنَ النّاسِ*»[٢٣].

إنَّ حسن التعامل ولين الأخلاق لا ينفعان في حالة الانتقاد فحسب، بل إن لهما نتائج طيبة في شتّى شؤون الحياة. إن ليونة الأخلاق والرفق في التعامل مع الناس يسبغ على الحياة الجمال والمحبة، ويقرِّب الناس بعضاً من بعض، ويخلق جوّاً من الاحترام المتبادل، وتبيح للمجتمع حياة ملؤُها الهناء، على العكس من حِدَّة الطبع وخشونة الأخلاق، فهما يحيلان ملامح الحياة قبحاً وبشاعة، ويبعثان على سوء الظنّ والتفرقة، ويحملان الناس على التخاصم واهانة بعضهم بعضاً، ويجعلان الحياة مُرَّة غير مستساغة.

عن النبيِّ (ص)، قال: «*الرِّفْقُ لَمْ يُوضَعْ على شَيءٍ إلّا زانَهُ وَلا يُنْزَعُ عَنْ شَيءٍ إلّا شانَهُ*»[٢٤].

عن الإمام علي(ع)، قال: «*بلينِ الجانِبِ تَأْنَسُ النُّفوسُ*»[٢٥].

كان من أسباب محبوبية الرسول الأكرم(ص) ونجاحه، سلوكه وأقواله المليئة بالعطف والمحبة طوال حياته، فقد استطاع قائد الإسلام بحسن الخلق والرِّفق ولين الجانب أن يجمع الناس من حوله، وأن ينفُذَ إلى أعماق نفوسهم، فيبلِّغهم الأوامر الإلهيّة، ويربِّيهم بالتربية الإسلامية. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله:

**﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾**[٢٦].

هكذا نجد أن وصية أئمة الإسلام الثالثة للمسلمين هي الرفق واللِّين عند الانتقاد. فمن يريد توجيه النقد إلى أحد للفت نظره إلى ما فيه من منقصة أو عيب،

---

(٢٣) سفينة البحار، القمّي ١: ٥٣٢.

(٢٤) (ن.م).

(٢٥) فهرست الغرر: ٣٦٠.

(٢٦) آل عمران: ١٥٩.

إذا اتخذ جانب اللِّين في كلامه، ومزج أقواله بالمحبَّة والعطف، كان احتمال تأثير ذلك تأثيراً حسناً أكبر، فيتقبّل النقد، وقد يعترف بعيبه. وبالعكس إذا كان الانتقاد يجري بأُسلوب خشن فظّ، فإنَّ ردَّ الفعل يكون كذلك فظّاً خشناً، فيعاند المنقود الناقد ويقاومه ولا يعترف بخطئه.

«يقول (ديل كارنيجي): أتذكَّر أنّي عندما عهدت إلى أحد الصبّاغين بتزيين بيتي وستائر غرفتي، قام العامل بما طلبت منه كما أريد، ولكن قائمة الحساب التي قدّمها لي كانت تقصم الظهر.

وبعد أيام زارني صديق، فأريته صبغ الدار، وأخبرته بالثمن الذي دفعته، فصرخ الصديق غير مصدِّق، وقال بلهجة المنتصر: كيف هذا؟ هذا مخيف! لقد غشَّكَ واحتالَ عليك!

كان ما قاله الصديق صحيحاً، ولكن الإنسان لا يرغب أن يسمع الحقائق التي تؤلمه. لذلك أخذت أُدافع عن نفسي، قائلاً لصديقي إنَّ العمل الجيد يستحقُّ كل ثمن يُدفع فيه ولا يُعتبر باهظاً، إذ لا يمكن أن نحصل على وسائل الزينة والترف الفنية بأثمان زهيدة.

وفي اليوم التالي زارتنا إحدى معارفنا، فأثنت على الألوان، وعندما سمعت عن المبلغ الذي دفعته لقاء ذلك، أظهرت أشدَّ الأسف على أنّها لا تستطيع أن توفّر مثل ذلك المبلغ لصبغ عمارتها. فكان لكلامها هذا تأثير مختلف، فقلت لها: أنا أيضاً لا أستطيع تحمّل هذه المصاريف الباهظة، ولكن الأمر وقع وما باليد حيلة، وإلّا فإنَّ أمثال هذه المصاريف ليست مما يطيقها أمثالنا.

إنَّنا عندما نرتكب خطأً يكون من السهل علينا أن نعترف به لأنفسنا، وإذا تحلَّى الآخرون بحلاوة الكلام والرِّفق واللُّطف، يستطيعون بقليل من المهارة أن يحملُونا على الاعتراف لهم أيضاً بأخطائنا، بل إننا في أمثال هذه الحالات قد نفخر بصدقنا وشجاعتنا في كشف أخطائنا وزلّاتنا. ولكن إذا حاول الآخرون إجبارنا على مثل هذا الاعتراف، فإنَّهم لن ينجحوا إطلاقاً»[٢٧].

---

(٢٧) كيف تكسب الأصدقاء: ١٦٠.

في النقد الأخلاقي يستهدف كلام الناقد هدفين اثنين:

الأول: هو العمل الذي يراه الناقد خطأً فينبِّه فاعله عليه.

والثاني: هو الفاعل الذي ارتكب ذلك العمل فاستوجب النقد.

إن الجانب المؤلم والثقيل في النقد والذي قد يؤدِّي إلى إثارة الغضب والعنف، وحتى الحقد والعداوة، هو الضربة النفسية التي يوجِّهها الناقد لكرامة المنقود وحبِّه لذاته. وعلى الرغم من أنّه في الظاهر يسعى للدفاع عن العمل الذي ارتكبه ويحاول الاستدلال على ذلك، ولكنه في الحقيقة إنَّما يدافع عن نفسه وعن شخصيته وكرامته.

«إن ضمير المتكلّم يعتبر أهم لفظة عند كل فرد، وكل من تنبَّه لذلك يكون قد وضع قدمه في دهليز العقل والحكمة. ويبقى هذا الضمير على قوَّته وإن تغيَّر الاسم الذي يضاف إليه، فطعامي، وبيتي، وأبي، ووطني، لا تختلف كثيراً من حيث التعلّق بها. فإذا قال لنا أحد: ساعتك بطيئة، أو سيارتك قديمة الطراز، ربَّما كان شعورنا بالتضايق من كلامه لا يختلف كثيراً عمَّا لو كان قد قال: إن معرفتك بتضاريس المريخ، أو بحضارة الفراعنة، غير صحيحة.

يتفق كثيراً أنّنا نغيِّر عقائدنا بكل يسر وسهولة ومن دون أيِّ قلق واضطراب. ولكن إذا نبَّهنا أحد على أخطائنا وزللنا، ينقلب حالنا فوراً ونقف في مواجهة هذا التنبيه. إنَّنا نتقبَّل معتقَداً ما بكلِّ سهولة، ولكن إذا أراد أن ينتزعه منّا فإنّنا ندافع عنه بجنون. لا شك أنَّ تعلُّقنا ليس بأصل ذلك المعتقد الذي نحمله، ولكنَّنا نحسُّ أنَّ أنانيّتنا معرَّضة للخطر»(٢٨).

فلكيلا يجرح الانتقاد أنانيّة الآخرين، ولا يحملها على اتّخاذ موقف المعاندة والمقاومة، يجب على الناقد أن يلقي كلامه وألفاظه بحيث يكون من الواضح أنَّ هدف انتقاده الأصلي هو العمل غير الصحيح، لا فاعله. في هذه الحالة يمكن أن تكون الانتقادات الإصلاحية مفيدة وذات نتائج إيجابية. وهذا ما طبَّقه أئمة الإسلام في انتقاداتهم، واستطاعوا أن يحملوا الناس على ترك الأعمال السيّئة. من ذلك:

---

(٢٨) (ن.م): ١٥٩.

أن الحسن والحسين(ع) مرّا على شيخ يتوضأ ولا يُحسِنُ. فأخذا في التّنازع، يقولُ كُلُّ واحِدٍ منهما أنتَ لا تُحسِنُ الوضوءَ. فقالا: أيّها الشيخ، كنْ حَكَمًا بيننا، يَتَوَضأُ كُلُّ واحِدٍ منّا. فتوضّأا ثمّ قالا: أيّنا يُحسِنُ. قالَ: كِلاكُما تُحسِنان الوُضوءَ ولكن هذا الشيخُ الجـاهِـلُ هوَ الّذي لم يكُنْ يُحسِنُ، وقد تعلّم الآنَ منكُما وتابَ على أيديكُما بِبَركَتِكُما وشفقَتِكُما على أُمّةِ جدِّكُما[٢٩].

لم ينتقد الحسنان(ع) الشيخ انتقاداً مباشراً، ولـم يجـابهـاه بجهلـه بطريقة الوضوء الصحيحة، ولم يذكرا وضوءه بسوء أو يصفاه بالبطلان. بل أجريا الوضوء بنفسيهما، محتكمين إليه لجلب انتباهه إلى كيفية وضوئهما بحيث يُدرك، بطريقة غير مبـاشـرة، خطأ وضوئه. فكان من نتيجة ذلك الانتقاد المؤدّب العقلائي أن اعترف الشيخ بخطئه صراحة، وتعلّم طريقة الوضوء الصحيحة، وشكر لهما راضياً شفقتهما ومحبّتهما.

لو أنّ الحسنين(ع) انتقدا طريقته مباشرة، وصارحاه بأنك لا تتوضأ على الوجه الصحيح، وأنك لا تعرف كيف تتوضأ وتقوم بواجبك الشرعي، فماذا كان يمكن أن تكون النتيجة؟ هل كانت ستكون نتيجةً إيجابية؟ أمَا كان يزعجه ذلك؟ أمَا كان يردُّ عليهما بعكس ما كان المراد؟ أو ربما لم يكن، في الأقل، يعبأ بانتقادهما؟

عن أبي جعفر الباقر(ع)أنه قال لرجل، وقد كلمه بكلام كثير، فقال: *«أيُّها الرَّجُلُ تَحْتَقِرُ الكلامَ وتَسْتَصْغِرُه؟ إعْلَمْ أنّ الله عزَّ وجلّ لَمْ يَبْعَثْ رُسُلَهُ حيثُ بَعَثها ومَعَها ذَهَبٌ ولا فِضّةٌ، وَلكِنْ بعَثها بالكلامِ، وإنّما عَرَّفَ اللهُ جَلَّ وعَزَّ نَفْسَهُ إلى خَلْقِهِ بالكلامِ والدَّلالاتِ عليهِ والأعْلام»*[٣٠].

هنا أيضاً لم يقل الإمام(ع) شيئاً عن الرجل الثرثار، ولم يجعله هدف انتقاده مبـاشـرةً، كما لم يشر بشيء إلى ثرثرته، ولا انتقد فيه هذه الصفة المذمومة انتقاداً

---

(٢٩) بحار الأنوار، المجلسي ١٠: ٨٩.

(٣٠) روضة الكافي: ١٤٨.

مباشراً، بل اكتفى بذكر قيمة الكلام وأهميته، وأنه ينبغي ألاّ يستصغر شأن الكلام، وألاّ يهدر رأسماله الثمين هذا عبثاً بحق وبغير حق. وحثّه على استثمار موهبته في الحالات المقتضية وبالقدر اللاّزم. وهكذا، انتقد الإمام بشكل مؤدّب وحكيم وغير مباشر ثرثرة الرَّجل.

كان (الشقراني) يعيش في عصر الإمام الصادق(ع)، وعلى الرغم من أنه كان يعتبر نفسه من محبيّ أهل البيت(ع)، فإنّه كان يشرب الخمر، ملوّثاً نفسه بهذا الإثم الكبير، التقاه الإمام يوماً مصادفة في زقاق منفرداً. فانتهز الفرصة لكي ينتقده على ارتكاب هذا المنكر، ويحمله على الإقلاع عنه، فقال له:

*«إنّ الحَسَنَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَسَنٌ، وَإنَّهُ مِنْكَ أَحسَنُ لمكانِكَ مِنّا، وإنَّ القَبيحَ مِنْ كُلِّ أحدٍ قبيحٌ، وإنَّهُ مِنْكَ أقْبَحُ»* (٣١).

إن الإمام الصادق فضلاً عن كونه لم يجعل الشقراني هدفاً مباشراً للانتقاد، ولم يحتقره بلومه، فإنّه أكدَّ احترامه له بسبب مودته لأهل البيت(ع)، وأشار إلى فضله على غيره، ونوَّه بأعماله الحسنة والسيِّئة على صعيد واحد، منتقداً شربه الخمر من دون أن يصرِّح بذلك مباشرة، بل لَمح إلى ذلك تلميحاً. إن لمثل هذا النوع من الانتقاد تأثيراً في الناس الواعين أعمق بكثير من الانتقاد المباشر الصريح.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«تَلويحُ زَلّةِ العاقلِ لَهُ أمضُ مِنْ عِتابِهِ»* (٣٢).

نخلص من ذلك إلى أنَّ الدين الإسلامي يجعل الانتقاد القانوني والأخلاقي من واجبات المسلمين، ويجيب بالإيجاب عن السؤال:

هل يجب انتقاد الآخرين؟ ولكن لكيلا يتطرَّف الناس في انتقاداتهم، ولا يتجاوزوا حدود الحقِّ والمصلحة، فلا يهينون الآخرين ويحقِّرونهم باسم الانتقاد. لقد وضع الإسلام قواعد وشروطاً لذلك، والمسلمون مكلَّفون بأن ينتقدوا ضمن إطار تلك

---

(٣١) بحار الأنوار، المجلسي ١١: ٢٠٩.

(٣٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٣٤٨.

القواعد والشروط، وعلى هداها يذكُرون إخوانهم بعيبوهم ونقائصهم، ليعينوهم على النجاة والسعادة.

إلى هنا دار الكلام على العيوب الفردية والانتقادات الخاصة. أي إذا لوحظ أنَّ أفراداً في المجتمع تصدر عنهم سيّئات أخلاقية أو يرتكبون المعاصي، فمن واجب الآخرين أن ينتقدوهم ضمن القوانين والشروط.

ولكن يحدث في بعض الحالات أن تصبح المعصية أشبه بالمرض الوبائي العام، فتشيع في المجتمع ويتلوَّث بها معظم الناس. في مثل هذه الحالات لا ينفع توجيه النقد إلى فرد أو بضعة أفراد، ولا ينصلح به حال المجتمع، ولا يغيِّر الوضع العام، ولا يمنع الناس من ارتكاب المعاصي، ولا يصحّح مسير المجتمع. في مثل هذه الحالات تقوم الحكومات القوية، عن طريق السلطة التنفيذية وبالإمكانات المتوفرة لديها، بمكافحة تلك الآفات واقتلاع المعصية المتفشيّة من جذورها، أو تحول، في الأقل، دون تظاهر الناس بها وشيوع ارتكابها علناً. إن في التاريخ أمثلة كثيرة لهذا. نشير هنا إلى واحدٍ منها، وهو سعي عمر بن عبد العزيز أيّام حكمه لمنع سبّ عليٍّ بن أبي طالب(ع) على المنابر.

عندما بدأ معاوية بن أبي سفيان حكمهُ على أرض الإسلام الواسعة، أمر بسبٍّ علي بن أبي طالب(ع) في أرجاء البلاد، فارتكب بعمله الظالم والقذر هذا إثماً كبيراً لا يُغتفر. وكان بذلك يرمي إلى الإساءة إلى سمعة الإمام، وحمل الناس على إساءة الظن بالإمام، وانتزاع محبّته من قلوب الناس، ومحو دلائل عدالته ووقوفه بوجه الظلم من ذاكرتهم، وبذلك يغطّي، من جهة، وصمات العار وسوء السمعة التي تُلطّخ اسم معاوية وآل أُمية، وتكون له، من جهة أُخرى، حرية إطلاق يده في الظلم والجَور، دون أن يقارن أحد بين حكومته وحكومة الإمام علي(ع) من حيث ظلمه وعدل علي.

ولكي يعمل على الإسراع في انتشار سبِّ الإمام(ع) في أرجاء البلاد أمر جميع كبار الضباط وكبار أعضاء الحكومة في أنحاء البلاد أن ينفّذوا ذلك عن طريق ذكر اسم الإمام علي بالسوءِ في جميع المحافل والمجالس، وأن يقوم أئمة الجمعة في خطب

صلاتهم بسبِّهِ على المنابر، وطلب إلى الشعراء أن ينظِّموا القصائد في هجوه وينشروها بين الناس. وهكذا جنَّد جميع موظفي الدولة لتنفيذ هذه الخطة دون هوادة، بحيث يتعوَّدُ الناس على سبِّ علي بن أبي طالب(ع) وكأنه جزءٌ من تكاليفهم الشرعية.

وبموازاة برنامج سبِّ الإمام علي وشتمه، خَطَّطَ لقمع حركة التشيُّع ونفَّذه. بدأ أوَّلاً بإلقاء القبض على أخلص أصحاب الإمام المعروفين والثابتين على الولاء له، والمشهورين بالتقوى، ومن خيرة تلامذة مدرسة الإسلام، فأهانهم وحطَّ من كراماتهم، وقتل بعضهم شرَّ قتلة، وعذَّب بعضهم عذاباً مبرِّحاً حتى الموت، وألقى ببعض في غياهب السجون.

وبهذه الجرائم المنكرة المتَّسمة بالعنف خلق جوّاً من الرُّعب والإرهاب بحيث لم يعد أحدٌ يجرؤُ على أن يجاهر بولائه للإمام علي(ع) ويتحدّث عن فضائله، أو أن ينبري لتفنيد افتراءات معاوية ومأجوريه دفاعاً عن الإمام.

وبقي الحال على هذا المنوال خلال حكم معاوية. وبعده واصل عدد من خلفائه المسيرة نفسها في الاستمرار على سبِّ الإمام علي(ع). وظل هذا الإثم الكبير شائعاً في طول البلاد وعرضها مدة نصف قرن أو أكثر، دون أن يستطيع الناس الأخيار المؤمنون مكافحته وانتقاد تلك البدعة الشائنة التي وضع معاوية لبنتها.

وفي سنة (٩٩) هجرية تسنَّم الخلافة عمر بن عبد العزيز وأصبح قائد البلاد الإسلامية. لقد كان في شبابه ـ عندما كان يدرس في المدينة ـ مثل سائر المخدوعين يذكر علياً بالسوء، ولكنه عرف الحقيقة من أحد العلماء، وأدرك منه أن سبَّ تلك الشخصية خلاف للشرع وموجب لغضب الله تعالى، غير أنه لم يكن قادراً على بيان ذلك للناس لمنعهم من الذنب الذي يرتكبونه. وعندما صعد كرسي الخلافة قرَّر أن يستفيد من مقامه لإزالة تلك الوصمة من جبين البلاد، بمنع سبِّ الإمام علي(ع).

ولكنه لكيلا يتعرَّض في مهمته لمعارضة المتعصِّبين من بني أُمَّية وأصحابه الأنانيِّين، فلا يقيمون عقبة في طريقه، قرر أن يفاتحهم في الأمر لكي يهيِّئهم له ويلفت أنظارهم إلى ضرورة التعاون معه في غسل ذلك العار، فوضع لذلك خطة استخدم فيها

طبيباً شاباً يهودياً كان في الشام، فاستدعاه سرّاً وأطلعه على تفاصيل خطته، وطلب إليه الحضور إلى قصر الخلافة في يوم وساعة معينين وينفّذ الخطة.

وقبل اليوم المحدد أرسل إلى كبار شخصيات بني أُمّية وذوي النفوذ في الشام للحضور عنده ذلك اليوم، وقبل موعد وصول الطبيب اليهودي. وفي اليوم المحدد اكتمل الجو الذي كان يريده الخليفة. وفي الساعة المحددة دخل الطبيب اليهودي بعد الاستئذان، فأثار دخوله انتباه الحاضرين جميعاً. سأله الخليفة عن سبب حضوره، فقال إنه جاء يخطب ابنة الخليفة. فسأله عمر بن عبدالعزيز: لمن تخطبها؟ فقال: لنفسي فبهت الحاضرون وراحوا يتطلّعون إليه باندهاش.

فنظر إليه عمر بن عبدالعزيز وقال له: ليس لي أن أُوافقك على طلبك، فنحن مسلمون وأنت لست مسلمًا، ومثل هذا الزواج غير جائز في الإسلام. فقال الطبيب اليهودي: إذا كان هذا هو حكم الإسلام، فكيف زوَّج نبيّكم ابنته لعلي بن أبي طالب؟ فغضب الخليفة وقال له: عليٌّ بن أبي طالب كان من كبار المسلمين. فقال اليهودي: إذا كنتم تعتبرونه مسلماً فلماذا إذن تلعنونه وتسبونه في المجالس؟ فالتفت عمر بن عبدالعزيز إلى الحاضرين، وقد بدا التأثر على ملامحه، وقال لهم أجيبوا سؤاله. فسكت الجميع، وأطرقوا برؤوسهم خجلاً. وخرج الطبيب اليهودي دون أن يحظى بجواب[٣٣].

بهذه الخـطة نبَّه، من جهة، بني أُميَّة على قبح عملهم وانتقدهم انتقاداً غير مباشر، وأفهمهم، من جهة أُخرى، أنَّ سبَّ علي بن أبي طالب سيطلق شيئاً فشيئاً ألسنة الأجانب ضدَّنا، مما سيكون باعثاً على خجل الأمة الإسلامية وتنكيس رأسها أمام الآخرين، فلا بدَّ من وضع حدٍّ لهذا العمل غير المشروع والشائن.

وسمع الناس في الخارج بما جرى في ذلك المجلس وانتشر بينهم، وكان له تأثير حسن في نفوسهم، فتمهَّد الطريق بذلك لنجاح الخطة في مرحلتها الثانية بإعلان عمر بن عبدالعزيز منع سبِّ علي بن أبي طالب، وأصدر أوامره لجميع الموظفين العسكريين

---

(٣٣) ملخص من ناسخ التواريخ، حالات الإمام الباقر(ع) ١: ٣٩٢.

والمدنيين في أرجاء البلاد بمنع هذا العمل غير الصحيح، وبأن لا يسمحوا لأحدٍ أن يذكره بسوء، وطلب إلى الخطباء الذين كانوا يسبُّون علياً أن يقرأوا بدل ذلك هذه الآية:

﴿رَبَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنا الَّذينَ سَبَقُونَا بالإيمانِ ولا تَجْعَلْ في قُلُوبِنا غِلاً للَّذينَ ءَامنوا رَبَّنا إنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٣٤].

استقبل الناس أوامر الخليفة بالترحاب، وفرح أغلب الناس وأكثر الموظفين بمنع سبِّ علي(ع)، وتقبَّلوه بكل رغبة وسرور، وراحوا يذكرون عمر بن عبدالعزيز بالخير على عمله هذا.

كان هنـاك الكثـير من المـوظفـين يرون في سبِّ علي(ع) إثـماً، فكانوا في الحكومات السابقة يعصون أوامر الحكومة قدر الإمكان لئلا يرتكبوا هذا الإثم، ولئلا يَخزُهُمْ عذاب الضمير وينغِّص عليهم راحتهم. فكان هؤلاء على رأس الذين انبروا لتنفيذ أوامر عمر بن عبدالعزيز، فبذلوا جهوداً جبَّارة لإسكات المعاندين والساعين إلى السوء، لأنَّهم أدركوا أن تنفيذ تلك الأوامر مما يرضاه الله تعالى ويتماشى مع الحقّ والفضيلة.

وهكذا نلاحظ أنَّه بالتعاون بين الناس والحكومة أمكن تنفيذ أوامر عمر بن عبدالعزيز بسرعة وسهولة، فلم يتوقف سبُّ الإمام علي(ع) من فوق المنابر والإساءة العلنية إلى شخصه الكريم فحسب، بل إنَّ الناس والموظفين أخذوا يراقبون النواصب الجهلة ولا يسمحون لهم بتضييع فضيلة من فضائل علي(ع) في كلامهم العلني، ولا أن يضعوه من حيث مناقبه وكمالاته المعنوية على مستوى واحد مع الآخرين، أو أن يتغافلوا عن ذكر ما امتاز به من علم وإيمانٍ وعدلٍ وتقوى وغير ذلك من السجايا الإنسانية والفضائل الإسلامية.

، «لماولي عمر بن عبدالعزيز استعمل ميمون بن مهران على الجزيرة. واستعمل

(٣٤) الحشر: ١٠.

ميمون بن مهران على (قرقيسا) رجلاً يقال له (علاثة). قال: فتنازع رجلان، فقال أحدهما: معاوية أفضل من علي وأحق. وقال الآخر: علي أولى من معاوية. فكتب عامل (قرقيسا) إلى ميمون بن مهران بذلك، فكتب ميمون بن مهران إلى عمر بن عبدالعزيز. فكتب عمر بن عبدالعزيز إلى ميمون بن مهران أن اكتب إلى عامل (قرقيسا) أن أقم الرجل الذي قدَّم معاوية على علي بباب المسجد الجامع فاضرب به مئة سوط، وانفه من البلد الذي هو به. قال طلق: فأخبرني من رآه وقد ضُرب مئة سوط وأُخِرج ملبَّباً [أيّ مأخوذاً بتلابيبه] حتى أخرج من باب يقال لها باب الدين»[٣٥].

يبدو أنَّ عمر بن عبدالعزيز قد أدرك أنَّ الجدل في أفضلية معاوية كان خطة جديدة للمعاندين، وأنهم من هذا الطريق يريدون أن ينالوا من مقام الإمام علي(ع) الشامخ وأن يسيئوا إليه، ليعيدوا السبَّ والشتم إلى الوجود بصورة أُخرى، ويواصلوا أُسلوبهم الخبيث الظالم. إلاّ أن خليفة المسلمين أدرك سوء نيّتهم هذه ، فأحبط خطتهم بأمره الصريح القاطع.

يتّضح من كل هذا أن الانتقاد الفردي ليس له تأثير كبير على صعيد المجتمع، وأن السيّئة الشائعة بين الناس عامة لا تزول بالنواهي الفردية، بل هذه تحتاج إلى حكـومـة قوية وسلطة تنفيذية شديدة قادرة على مكافحة المفاسد الاجتماعية ومنع الناس من الانحرافات وارتكاب المعاصي علناً.

من الجدير عند نهاية البحث أن نشير أيضاً إلى الانتقادات العلمية بصفتها قضية اجتماعية مهمة. فمثلما أن انتقاد المعاصي والعيوب الأخلاقية عامل من عوامل تزكية الأفراد وإصلاح المجتمع، كذلك يكون النقد العلمي وسيلة لمعرفة الحقائق وتمييز الصحيح من الغلط. وكما أن معظم الناس لا يرتاحون لسماع الانتقادات القانونية والأخـلاقية، ويسعون للدفاع عمّا يعلمون بصفته عملاً صحيحاً، كذلك هو النقد العلمي يكون ثقيلاً على أصحاب النظريات العلمية التي يوجَّه إليها النقد، فيبادرون

---

(٣٥) مجموعة ورّام ٢: ٨٦.

إلى بذل الجهود للدفاع عن تلك النظريات.

«إنَّنا نتمنَّى أن نبقى مع العقائد التي نحسبها حقائق صحيحة فلا نفارقها، وإذا شعرنا أن أحدها معرَّضٌ للخطر، انتابنا القلق وحاولنا إيجاد الأدلة التي تؤكد صحتها. أي إن ما نطلق عليها اسم أدلَّة الإثبات ليست سوى مجموعة من الأعذار التي ننحتها من أجل الحفاظ على عقائدنا العتيقة التي نعزُّها ونحترمها»(٣٦).

من المعروف أن دوافع الناقدين إلى النقد العلمي والبحوث النظرية ليست متساوية، وكذلك هم يختلفون في طرائق النقد والبحث. لذلك تكون ردود أفعال المنقودين مختلفة تجاه الناقدين.

فإذا كان دافع الناقد هو الكشف عن الحقيقة ليتَّضح الموضوع وكان نقده قائمًا على أساس صحيح من الاستدلال والبرهنة، وراعى في الوقت نفسه أُصول الأدب والأخلاق في نقده وبحثه، فأدلى بأقواله في لين ورفق، واحترم الطرف الذي يتوجه إلى بالنقد، فإنَّه سيواجه، في الأعمّ الأغلب، ردَّ فعل مرضياً. إن مثل هذا النقد المفيد والمشروع فضلًا عن كونه لا يثير غضب المنتَقَد وسخطه، ولا يدفعه إلى الدفاع عن رأيه الغلط، فإنَّه قد يتلقَّى النقد بقبول حسن، وربَّما شكر للناقد اهتمامه بالموضوع.

إمَّا إذا كان الناقد مدفوعاً في نقده بحبِّ التفوُّق والاستعلاء، ويريد عن هذا الطريق التغلُّب على الطرف الآخر، وحمله على قبول انتقاداته، وإن كانت صحيحة صادقة، فإنَّه سيواجه ردَّ فعل حاداً وعنيفاً من جانب الطرف الآخر الذي سوف يستولي عليه الغضب وهو يرى أنَّه على وشك خسران المعركة، فيتَّخذ موقف الدفاع والمقاومة في وجه الناقد، باذلاً كلَّ ما في قدرته لإثبات صحة عمله.

إن أمثال هذه الانتقادات البعيدة عن الأخلاق فضلًا عن كونها عديمة الفائدة ولا تحل أيَّ مشكلة علمية، فإنها تكون مضرَّة وتسبب نبذ المرء من المجتمع،

---

(٣٦) كيف تكسب الأصدقاء: ١٦٠.

وتقطع روابط الود والمحبة، وتثير روح العداء والخصام، وقد تحمل الإنسان أحياناً على الانتقام.

عن أبي الحسن الثالث [الإمام الهادي] (ع)، قال: *«المراءُ يُفسدُ الصَّداقَةَ القديمَة، ويَحُلُّ العُقْدَةَ الوثيقَة، وأقَلُّ لما فيهِ أنْ يكونَ فيه المُغالبَةُ، والمُغالبَةُ أُسُّ أسبابِ القَطِيعَةِ»*(٣٧)

«عندما كان (فرانكلين) شابّاً غِرّاً قليل التجربة، أختلى به صديق قديم وقدّم له عدداً من النصائح وكشف له عن بعض الحقائق المرة، قائلاً له:

إنّك شاب عنيد، تعامل من لا يتفق معك في الرأي معاملة خشنة بصورة عجيبة، وأجوبتك التي تردُّ بها على الناس لا تختلف عن الصفعات واللكمات، لذلك ترى الناس يتهرّبون منك، وأصدقاؤك يفضّلون غيابك على حضورك، وأنت نفسك تعرف هذا عن نفسك. وليس هناك من يتقدم لإصلاح أخلاقك لأنه يعلم أن ذلك لا جدوى فيه، كالضرب في الحديد البارد.

العجيب في الأمر هو كيفية تلقّي فرانكلين هذه الانتقادات القاسية. لقد كان على درجة من الاستعداد الفكري والرؤية الواضحة بحيث إنه عرف أنه يستحق هذا اللّوم، وأنه إذا لم يعمد إلى إصلاح نفسه فإنه سيلاقي الكوارث في مستقبل حياته. وهكذا غيّر ـ فجأةً ـ مسيرة حياته، وقرّر إصلاح نفسه. وفي هذا يقول:

وضعت نصب عيني شعاراً مفاده أنّي لم أقف في وجه رأي غريمي بشكل صريح، ولن أتحـدّث عن آرائي بلهجـة قاطعة حاسمة، لذلك رحت أتجنّب الألفاظ الدالة على القطع برأيٍ مّا، مثل: (حتمًا) و(من دون شك) وأمثالها، بل أستعمل بدلاً منها ألفاظاً مثل (أظن) و(حسبما أعلم) وأمثالها. بعد ذلك التاريخ كنت قادراً على ضبط نفسي كلما سمعت رأياً غلطاً لأحدهم فلا أبادر إلى تكذيبه واستنكاره صراحة، ولا أعيبه على خطأ رأيه. ولم يمرَّ وقت طويل

---

(٣٧) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ٢١٦.

حتى بدأت ألمس فوائد هذا الأسلوب في معاشرة الناس، وأصبحت علاقاتي بهم تتّسم باللّطافة والدماثة، وكانوا يتقبّلون آرائي وأفكاري التي كنت أعرضها ببساطة وبدون تظاهر بكل يسر وسهولة، وقلما كانوا يعارضونها»[٣٨].

كان أئمة الإسلام يلقون بحوثهم العلمية بلهجة رقيقة هادئة، وفي محادثاتهم مع الناس كانوا يتحلّون بأعلى قدر من الحلم والصبر، ويلتزمون الأصول الأخلاقية والآداب إلى درجة تثير العجب والدهشة، بحيث إن بعض المعارضين المعاندين كانوا أحياناً يعترفون صراحة بسموّ أخلاقهم وعظمة مقاماتهم.

يتبين من كل ذلك، إذن، أنّ النقد البصير الرصين يساعد على تقدّم المعرفة ويكون سبب رقي الفرد والمجتمع. فالنقد ينير الحقائق، ويجعل الناس واقعيين في نظرتهم إلى الأمور، ويخلّصهم من الظن والوهم ولكيلا يثير النقد العلمي الغضب والعنف، ولا يبذر بذور الحقد والضغينة، يجب على الناقد أن يلتزم أُصول الأخلاق والأدب، وأن يتجنّب الحدّة والإلفاظ النابية، وأن لا يصبغ بحثه العلمي بصبغة التهجّم والمعاندة.

إن المراء والجدال من السيّئات الأخلاقية في نظر الإسلام. وقد حذّر أئمةُ الإسلام أصحابهم من هذه الصفات المذمومة، حتى جاء في بعض الأحاديث المروية أن الدخول في مباحث تورث الكدر والعداوة يتنافى مع الإيمان الكامل.

عن النبي(ص)، قال: «*لَا يَسْتَكْمِلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمانِ حَتَّى يَدَعَ المِرَاءَ، وإن كان مُحِقّاً*»[٣٩].

---

(٣٨) كيف تكسب الأصدقاء: ١٦٢.

(٣٩) سفينة البحار، القمّي مادة «مره»: ٥٣٢.

# الفصل العاشر

*«صَلاحُ حالِ التَّعايُشِ*
*وَالتَّعاشُر مِلْءُ مِكْيالٍ،*
*ثُلثاهُ فِطْنَةٌ وَثُلثُهُ تغافُلٌ»*

*الإمام الصادق(ع)*

## التغافل

التغافل هو أن يكون المرء عالماً بالشيء ومطّلعاً عليه، ثم يتعمّد بإرادته أن يُظهر نفسه وكأنه لا يعرف شيئاً عنه، وأنه غافل عنه. هذا التغافل إذا وقع في محلّه وزمانه الصحيحين، كان من حيث الأخلاق أمراً محموداً، وقد يُثمر أحياناً ثمرات ونتائج مهمة.

ولربما كان التغافل عن عيوب الآخرين، والتغاضي عن زلّاتهم، والتظاهر بعدم الإطلاع عليها، أنجع في إصلاح أخلاقهم وأعمالهم من إظهار المعرفة بها وكشفها. تقتضي المصلحة في أمثال هذه الحالات أن نخفي معرفتنا بزلّاته، وأن لا نشير إليها بشيء، وأن نستعيض بالتغافل عن النقد. ولكي يتّضح الفرق بين التغافل الصحيح وغير الصحيح نشرح في هذا الفصل جوانب من هذا الأمر.

إتّضح لنا من البحث السابق أنّ النقد يعدّ من عوامل إصلاح المجتمع وأن من واجب المرء، إذا عرف عيوب إخوانه ومساوءهم، أن يذكّرهم بها بحسن نيّة ومن باب حبّ الخير للآخرين، وينبّههم بكل أدب على تلك العيوب التي يجب أن

يصلحوها، وذلك لأن السكوت والتغاضي عن المعاصي والسيّئات الأخلاقية بمثابة الموافقة عليها والرضى بها.

ولكن إذا ارتكب امرؤٌ معصية ويخشى أن يكتشف الناس ذلك عنه، فمن الخير أن نخفي زلّته، وأن نتغافل عن معرفتنا بها. وألّا نخبر أحداً بما نعلم، لنساعد العاصي على تحقيق رغبته في الحفاظ على كرامته، وحمله على عدم تكرار ذلك.

بناءً على ذلك، فيما يتعلق بالانحرافات القانونية والأخلاقية، علينا في معظم الحالات أن نكشف عمّا نعرف وأن ننتقد بوعي. ولكن قد تقتضي المصلحة في بعض الحالات أن نخفي ما نعرف، ونُظهر الغفلة لئلّا يسقط ستار الحياء عن وجه المذنب فيتجرّأ على ارتكاب أعمال مماثلة. أي إن المرء يجب أن لا يكون أعمى في شؤون الحياة والمعاشرة الاجتماعية. ولكن لا بُدَّ له ـ أحياناً ـ أن يُغمض عينيه.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*صَلاحُ حالِ التَّعايُشِ التَّعاشُرِ مِلْءُ مِكيالٍ، ثُلُثاهُ فِطْنَةٌ، وَثُلُثُهُ تَغافُلٌ*»[1].

لقد أشار أئمة الإسلام في كثير من أحاديثهم إلى أهمية التغافل وقيمته، وقالوا إنـه من فضائل الأخلاق ومن صفات المؤمنين الحميدة. فالتغافل دليل على كرامة النفس، وهو يبعث على التحابب والتقارب بين الناس.

عن النبيّ(ص)، قال: «*اَلْمُؤمِنُ نِصْفُهُ تَغافُلٌ*»[2].

وعن الإمام علي(ع)،قال: «*مِنْ أَشْرَفِ أَخْلاقِ الكَريمِ تَغافُلُهُ عَمّا يَعْلَمُ*»[3].

وعنه(ع)، قال: «*تَغافَلْ يُحْمَدْ أَمْرُكَ*»[4].

---

(١) تحف العقول، الحراني: ٣٥٩.

(٢) كتاب الشهاب: ٧.

(٣) فهرست الغرر: ٢٩٧.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ٣٥٧.

## التغافل المذموم

في بادىء الأمر لا بدَّ من أن نشير إلى أن التغافل ليس ممدوحاً في كل مكان وزمان، ذلك لأن بعضهم يتغافل أحياناً ويظهر أنه لا علم له بشيء، ولكن ليس بدافع من حسن النيّة، بل بدافع من هوى النفس وحبِّ الذات وغير ذلك من الأفكار السيِّئة. من ذلك مثلاً: تغافل الإنسان النفعي، فهو وإن يكن مطِّلعاً على ما يرتكبه الآخرون من المعاصي والمساوئ؛ فإنَّه يظهر من نفسه كأنّه لا علم له بأعمالهم القبيحة، فيتغافل عنها، ولكن لا بدافع حب الخير لهم ورعاية مصلحتهم، بل لأنه يرى أن من مصلحته الخاصة أن لا يقول شيئاً عن مساوىء الناس، وأن لا ينتقدهم، لكيلا يشعر أُولئك بالانزعاج منه، فتتضرَّر بذلك مصالحه.

وطالب الجاه والمقام أيضاً يتغافل عن فساد أخلاق الآخرين وأعمالهم القبيحة، فعلى الرغم من معرفته الجيدة بها فإنّه يتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً، ولا ينطق بشيء عن سوء أعمالهم، لئلّا تكون انتقاداته باعثاً على تكدُّرهم وتذمُّرهم، مما قد يتسبب في ضعف مركزه ومحبوبيته.

والحاسد أيضاً قد يتغافل أحياناً عن أعمال المحسود السيِّئة، فيغمض عينيه عن رؤية أخلاقه المذمومة، ولا ينبِّهه عليها إطلاقاً. وبديهي أنه ليس حسن النيّة في تغافله هذا، بل يرغب في أن يرى منافسه غارقاً أكثر فأكثر في سلوكه السيِّىء حتى يفتضح أمره بين الناس، ويلبس لباس العار، ويفقد كرامته، فيلتذ الحاسد بذلك ويمتلىء قلبه سروراً.

وقد يظلم أحدهم بعض الأشخاص الضعفاء، ويعلم صديقه الحميم بظلمه هذا، ولكنه يتغافل عنه كأنه لا يعلم شيئاً، فلا يعترض على صديقه لئلا يسيء إلى صداقتهما، فلا يحمل له شيئاً في نفسه. إنّه بتغافله هذا يكون في الحقيقة قد تغافل عن الحق والفضيلة، وتغاضى عن الصدق والاستقامة، وداس بقدمه على كرامة الإنسان، وضحّى بالعدل والإنصاف على مذبح الصداقة الملوَّثة.

وثمّة إنسان موسر يعلم أنَّ صديقه العفيف، أو جاره الكريم النفس، خالي

الوفاض، محتاج إلى العون، ولكنّه يتغافل عن ذلك. ويظهر نفسه وكأنه لا يعلم شيئاً، ويخفي معرفته بحاله، ودفاعه في ذلك حبُّ المال، ودناءة الطبع، فهو لكيلا يتنازل عن شيء من ماله لإعانة المحتاجين، يتغافلعنهم، مظهراً أنه لا يعلم شيئاً عن حالهم، حتى لا تنكشف خسّته ويظهر لؤم نفسه.

عن أبي عبدالله الصادق(ع)، قال: «*السَّخاءُ فِطْنَةٌ، واللُّؤمُ تَغافُلٌ*»[٥].

هذه الأنواع من التغافل التي تنبع من خبث الطوية وقبح الطبع فضلاً عن كونها فاقدة لكل قيمة أخلاقية وإنسانية، فإنها بذواتها من الصفات المذمومة النابية، وكل نوع منها يدل على سوء تفكير صاحبها وفساد أخلاقه.

## التغافل الممدوح

امّا التغافل الممدوح في التعاليم الإسلامية والذي يرتضيه أئمة المسلمين ويوصون به أصحابهم ويحثّونهم عليه، فهو التغافل الناجم عن التعقّل وإدراك المصلحة والمتّفق مع الأخلاق والفضيلة، ويأتيه الإنسان بحسن نيّة ونقاء سريرة. هذا التغافل من الصفات الحميدة. وإذا كان دافع التغافل عظمة الإنسان وكرامة نفسه، فهو تغافل ذو قيمة كبيرة، ويمكن أن يعدَّ من مكارم الأخلاق ومن القيم الإنسانية الرفيعة.

كثيراً ما تتفق للإنسان في حياته مواطن لاستعمال هذا التغافل العقلاني الناظر إلى المصلحة. وإذا ميَّز موضع التغافل، بدقة، وتغافل بإرادته وعن تعمد، فقد يكون في ذلك خير كثيرله وللآخرين. وللمزيد من التوضيح سوف نتناول في هذا الفصل نماذج من ذلك.

من بين أنواع التغافل الممدوح الذي يمكن أن يثمر ثمراً نافعاً ويؤدي إلى نتيجة مطلوبة هو ذلك الذي يكون بشأن الأطفال المقصِّرين الذين تُراد تنشئتهم تنشئة حسنة. فقد يرتكب الطفل لأول مرة مخالفة يلحظها أولياء أمره ومربّوه،

---

(٥) تحف العقول، الحراني: ٣١٥.

فيزعجهم ذلك، ويفكرون في معاقبته وتوبيخه، ولكن المصلحة التربوية تقتضي التغافل عنها، وإظهار عدم ملاحظتها، فلا يذكرون شيئاً عن تلك المخالفة، لكيلا يحطِّموا شخصية الطفل، أو يهينوا كرامته ويجرحوا مشاعره بحيث يلجأ إلى المعاندة وتكرار المخالفة.

فإذا كان تغافل الوالدين والمربِّين في الموضع المناسب والصحيح، كانت نتيجته إيجابية، وكان له تأثير حسن في تربية الأطفال. أمّا إذا لم يكن في الموضع الصحيح أو لا داعي له، فإنه لا يكون عديم الفائدة فحسب، بل يكون أحياناً ضاراً. إن معرفة الوقت الصحيح لهذا التغافل يستند إلى معرفة حالات الطفل نفسه، إذ لا بدَّ من الأخذ بعين الاعتبار المحيط العائلي للطفل، وأُسلوب تربيته، وظروف معيشته، والدافع الذي حمله على ارتكاب تلك المخالفة، قبل تعيين مواضع التغافل الصحيحة. وكمثال على ذلك يمكن أن نشير إلى حوادث السرقة التي يُقدم عليها الأطفال والمألوفة عادة في أرجاء العالم، وهي تستوجب دراسة الظروف التربوية العائلية للطفل الذي يرتكب مثل هذا العمل.

تبكر غريزة حب التملك في التفتّح عند الأطفال، ويتّضح أثر ذلك في نظرة الطفل إلى الملابس والحذاء والحقيبة والكرة واللُّعب وأشياء أُخرى على أنها ملك له، فيتعلق بها ويحبُّها. ويرى أحياناً بعض اللُّعب في أيدي الأطفال الآخرين، فيتعلَّق بها أيضاً، ويودُّ لو أنَّها كانت له. بعض الأطفال يكتفون بمجرد التمنِّي، وبعضهم الآخر يبدأون بالصراخ والعويل طالبين من والديهم مثلها. وهناك غيرهم تمتد أيديهم إلى السرقة، فيسرقون ما للأطفال الآخرين من دون علمهم ويرون أنها ملكهم.

إنَّ واجب الأبوين والمربِّين إزاء الطفل الذي يقدم على السرقة هو أن يتعرَّفوا أولاً على الدافع الذي حمله على ارتكاب مثل هذا العمل المستقبح، ثم تكون مهمتهم أن يسعوا لإزالة ذلك الدافع الذي دفع الطفل إلى السرقة لكيلا يكرِّره. إلّا أن هذا صعب من جهتين:

الأولى: هي أن من الممكن أن تتعدَّد الدوافع للسرقة، وهذه ليس من السهل

معرفتها جميعاً.

والثانية: هي أنَّ دافع الطفل قد يكون واضحاً. ولكن الوالدين والمربِّين يصعب عليهم إزالته وحمل الطفل على الإقلاع عن هذه العادة السيئة. ولكن لما كان هذا الفصل يختص بالتغافل فإنّنا لم نذكر سرقة الأطفال إلاّ من باب المثال. لذلك لا يتّسع المجال للدخول في بحث سرقة الأطفال ودوافعها المختلفة. ولكننا سنوضح ذلك بقدر تعلق الأمر بالتغافل الصحيح وغير الصحيح.

تنشـأ السـرقـة عنـد الأطفال أحياناً من ملاحظة بعض أعمال والديهم أو المحيطين بهم. فبعض الوالدين، وإن لم يكونا من ذوي الأخلاق الفاسدة، ولكنّهما قد لا يكونان حريصين كما ينبغي على حقوق الآخرين، فتمتد أحياناً أيديهما إلى ممتلكات الآخرين الصغيرة، تحت بصر أطفالهم الفضوليين. إنهما يحسبان عملهم هذا تافهاً ولا يستحق الاهتمام، ولكنهما يغفلان عن مدى ما يخلِّفه من عواقب ضارَّة.

هذا أب يصحب معه طفله الذكيَّ ليبتاع بعض الفواكه من فاكهاني قريب. وفي الوقت الذي يكون الرجل منشغلاً بوضع الفاكهة في الكيس، يتناول الوالد حبّة عنب من أحد العناقيد ويضعها في فمه. يرى الطفل عمل أبيه ويحسبه عملاً صحيحاً بالطبع.

وقد تصحب الأم طفلها لزيارة صديقة لها. وعندما تذهب الصديقة لإحضار الشاي، تتناول الأم قطعة من الحلوى من فوق المائدة وتضعها في جيب الطفل وتردف عملها بقبلة حارة على خدِّه. وبديهي أن يتصور الطفل أنَّ ما فعلته أُمه عمل صحيح، ولذلك قبّلته.

وقـد يقوم كبار السن من الأهل بمثل هذه الأعمال التي تُضلّ الطفل عن الطريق السليم. إن هذه الأفعال التي تبدو صغيرة تافهة، لها آثار سيئة كبيرة، فهي دروس للطفل في السرقة، وتبذر في دخيلته بذور الاعتداء على حقوق الآخرين.

«السرقة قد تكون تقليداً بسيطاً، وربما وجد الطفل في محيطه العائلي جوّاً مساعداً لحمله على تقليد هذا العمل المذموم. والسرقة لا تتحقق بسرقة أشياء

ثمينة ونفيسة فقط، فإنّ أتفه خطأ أو غفلة يرتكبها الكبار يمكن أن يكون مثالاً مهمّاً يوضع أمام أعين الأطفال الحساسة.

إن كل تغافل في التزام الأمانة، وكل تقصير وضعف في احترام أموال الآخرين، مهما يكن بسطاً وصغيراً، سيكون بلا ريب محفّزاً لتفتّح هذه العادة القبيحة في الطفل. فإذا لم يكن في هذا تحريض مباشر للطفل على السرقة، فهو لا شك سوف يقلّد سلوك الكبار في اللاّ أباليّة وعدم الاهتمام بالأمانة وبأموال الآخرين، وبذلك ينجرف تلقائياً نحو السرقة»[٦١].

إن الطفل الذي يتعلّم السرقة من المحيط العائلي ومن مشاهدة أعمال والديه والذين يحيطون به، إذا سرق يوماً ما شيئاً وعلم به الأبوان، يجب عليهما أن لا يتغافلا عن الأمر، بل عليهما أن يبينا له سوء عمله ويبحثا معه قبح السرقة وخطرها. وأن يشيرا خلال الحديث، إذا لزم الأمر، إلى اخطائهما السابقة ويعترفا بقصورهما أو تقصيرهما.

إن تغافل الأبوين في مثل هذه الحالات له مضار كثيرة، لأنّ الأطفال الذين هم على علم بسوابق أبويهم أو المحيطين بهم في السرقة يتصوّرن أعمال السرقة هذه أموراً عادية بسيطة، ويزيد في اطمئنانهم إلى صحة تصورهم تغافل الوالدين عنهم، فيتأكّد عندهم أنّ السرقة عمل صحيح ولهم أن يستمروا فيه.

وأحياناً يسرق الطفل بدافع من توكيد الذات والرغبة في البروز والتعاظم. أو قد يسرق لإخفاء حقارته الباطنية، أو من أجل اجتذاب حبّ الآخرين.

«السرقات الصغيرة والتافهة خلال مرحلة الطفولة ترتبط ارتباطاً قريباً بالأكاذيب الطفولية. في كثير من الحالات تكون هذه السرقات ناجمة عن رغبة الطفل في الظهور، أي أن يبدو في نظر الآخرين، أو في نظره هو، أكبر وأهم مما هو. إنه يسرق شيئاً ويعطيه لشخص آخر لكي يظهر بمظهر الشخص

(٦١) سلسلة ماذا أعلم؟ نحن واطفالنا: ٧٤.

السخي الكريم العطوف. أو لكي يقول أن المبراة التي سرقها ـ أو أي شيء آخر ـ تخصه، وإنه شخصية مهمة لامتلاكه تلك المبراة»[٧].

«بعض الأطفال يسرقون نقوداً ويصرفونها على زملائهم بكل كرم وسخاء، وذلك لأنهم يريدون أن ينتقموا انتقاماً شديداً من الشعور بالدناءة الذي يحسونه في أنفسهم. وثمّة آخرون يسرقون النقود ليشتروا بها الهدايا لأصدقائهم. أمثال هؤلاء الأطفال يكونون بحاجة إلى العطف والمحبة، فهم يريدون عن هذا الطريق جلب اهتمام الآخرين وحبِّهم لهم»[٨].

التغافل في أمثال هذه الحالات من السرقة ليس مقبولاً ولا هو في محله. فإذا عرف الوالدان بفعلة الطفل فعليهما أن يكلِّماه في ذلك ويبيّنا له قبح عمله بحيث يدرك أنَّ الخيانة فضلاً عن كونها لا تبعث على التعظيم والمحبوبية، فإنّها على العكس من ذلك تجعل الخائن حقيراً صغيراً. وبموازاة هذه النصائح يجب على الوالدين أن يجبرا مشاعر الطفل الباطنية بعواطفهما وحبهما، وأن يزيلا من تفكيره الدوافع إلى السرقة.

وقد يشعر الطفل أحياناً بالسخط وعدم الرضى نحو والديه أو الكبار عموماً بسبب تشدُّدهم عليه، بحق أو بغير حق. فلكي ينتقم منهم، ويحل عقدته الباطنية، ويخفف من حرمانه بعض الشيء، يلجأ إلى السرقة. سكوت الوالدين وتغافلهما في هذه الحالة غير مقبول أيضاً ويسبب أضراراً كبيرة، لأنه يزداد بسكوتهم جرأة في الاستمرار على ارتكاب عمله القبيح ذاك، ظاناً أنَّ السرقة هي طريق السعادة والنجاح، وأنه بهذه الطريقة يستطيع أن يتغلَّب على مشكلاته، ويتخلص من حرمانه، ويحقق أمانيه.

إن من واجب أولياء الأطفال في هذه الحالات أن يستنكروا السرقة بشدة، ويظهروا له شدة قلقهم وعدم رضاهم من عمله القبيح، على أن يحاولوا أن يعرفوا بدقة ما إذا كان سلوكهم الظالم معه هو الذي دفعه إلى الانحراف وحمله على السرقة،

---

(٧) النمو والحياة: ٢٣٦.

(٨) سلسلة ماذا أعلم؟ نحن واطفالنا: ٧٣.

وعندئذٍ يجب أن يغيّروا سلوكهم معه فوراً، ويحلُّوا عقدته، ويشعروه بالاطمئنان، ويقوُّوا من آماله في المستقبل. وإذا كان قد سرق بسبب أفكار طفولية وتصورات غير واقعية، فليبحثوا معه في ذلك، ويكشفوا له الحقائق، ويطلعوه على الحياة الواقعية، ليزيلوا من تفكيره التوقعات غير الواقعية التي حملته على ارتكاب السرقة، بلغة واضحة ومنطق مقنع.

«عندما تواجه طفلاً سارقاً، حاول قبل كل شيء أن تتعرف على ماهيّة الصراع النفسي الذي تسبب في إيجاد هذه الطبيعة فيه، ومن ثمّ حاول أن توقف الطفل على ذلك أيضاً، حتى يستطيع أن يدرك حقيقة هذا الصراع الذي أثّر في سلوكه وأفعاله تأثيراً سيِّئاً. فإذا كان السبب هو الظلم والحرمان، فتجب إزالة السبب والاهتمام بإعطاء هذا الطاغية الصغير حقوقه لتهدئة مشاعره. فإنك إن عملت بخلوص نيّة تمكنت من أن تُشبع حاجات الطفل المشروعة بيسر وسهولة، وتزيل من نفسه الشعور بالحقارة والدونية والتخيلات، واسمح له بأن يسعى سعيه الطبيعي في اكتساب حب الآخرين له. وعليك في كل الحالات أن تحذر الإفراط، يجب أن يكون هناك نوع من التعادل والتناسب في تحقيق طلبات الطفل، وإلّا فإنّك قد تكون سبب تقوية مجموعة من الرغبات المتطرفة فيه. دع الطفل يعرف المزايا التي ينالها بالتزامه العقد الاجتماعي واحترامه حقوق الآخرين، ومنها أنه هو نفسه يستطيع أن يطمئن إلى محيط حياته، وأن يضمن مالكيّته لممتلكاته الخاصة. وقبل ذلك ينبغي أن نكون نحن أمثلة له يقتدي بها في الالتزام بالعقد الاجتماعي. إنّنا نحن الذين ينبغي لنا قبل غيرنا أن نحترم ممتلكاته كل الاحترام. إنّي أتقدم بهذه النصيحة خاصة إلى الوالدين الذي يجيزون لأنفسهم أن يتصرفوا في لعب أطفالهم، كما أني أُوجّه هذا الكلام أيضاً إلى المعلمين الذين يقومون في كل لحظة، بحجّة التعليم والضبط والانضباط، بحجز أشياء الطلاب ولعبهم»[٩].

---

(٩) (ن.م): ٧٥.

العوائل التي يعرف فيها الوالدان وكبار السن مسؤولياتهم ويتخذون أُسلوباً صحيحاً في تربية الأطفال بالعدل، والإنصاف، والحق، والفضيلة، ومشاعر الحب، ويراعون ما يجب عليهم في التربية، ينشأ أطفالهم عادة متربِّين تربية سليمة، لا يعانون من العقد النفسية، والافتقار إلى المحبة. أمثال هؤلاء الأطفال لا تخطر لهم فكرة السرقة ما داموا لم يفارقوا محيطهم العائلي ذاك، ولم يختلطوا بهذا وذاك، ولا يسعون للاعتداء على حقوق الآخرين. وإذا اتفق أن أحدهم ارتكب زلَّة ما، فاستولى سرّاً على ما ليس له، فإنَّ زلَّته هذه لا تكون ذات جذور نفسية، وإنما يكون الدافع له على ذلك وقتياً، كأن يشتهي الطفل شيئاً من المثلّجات في يوم قائظ، فينتهز فرصة نوم أفراد العائلة في القيلولة، ويأخذ بعض النقود من جيب أبيه، ويخرج لشراء ما يريد، ثم يعود بهدوء وينام في مكانه.

فإذا فرضنا أن أحد أفراد العائلة كان مستيقظاً في تلك الأثناء ولاحظ بكل دقة حركت الطفل وأفعاله، ومن ثم أخبر الآخرين سرّاً بما حدث، فإن واجب الجميع في هذه الحالة يكون التغافل، وعدم إظهار معرفتهم بالأمر، فلا يشيرون إلى ما فعله الطفل، ولا يتحدّثون عن السرقة، ولا يحطُّون من شخصيته. بل عليهم أن يوقفوه، بصورة غير مباشرة، على قبح عمله، ويحولوا دون تكراره.

للوصول إلى هذا الهدف يمكن للوالدين أو كبار العائلة أن يضعوا خطة ينفّذها الجميع أثناء تجمُّعهم جميعاً على مائدة العشاء. يفتتح الأب كلامه قائلاً: إنه كان يريد صباح ذلك عيادة أحد أصدقائه المرضى، فاشترى كمية من التفاح، وأعطى البائع ورقة نقدية، فقطع ثمن التفاح وأرجع له ست قطع من النقود. ولكنه عندما أراد أن يخرج مساءً من المنزل لم يجد في جيبه سوى خمس قطع. ثم يلتفت إلى زوجه ويسألها عمّا إذا كانت هي التي أخذت القطعة، فتردُّ الزوج بالنفي. وبالطبع يضطرب الطفل لدى سماع هذا الحديث عن فقدان النقود، غير أن على الجميع أن لا ينظروا إليه أثناء سؤال الأب، لئلّا يدرك الطفل أنهم يُسيئون الظن به. ثم يلتفت الأب إلى الشباب من أفراد العائلة ويسألهم واحداً واحداً عمّا إذا كان أحدهم قد أخذ قطعة النقود، فيردُّ

الجميع بالنفي. وخلال ذلك يزداد اضطراب الطفل وخوفه من أن يسأله أبوه السؤال نفسه، فماذا عساه أن يقول له؟ ولكن على الأب أن لا يسأله عندما يصل الدور إليه، بل ينظر إليه نظرة مليئة بالحب، ويجب عنه قائلًا: أما ولدي العزيز هذا فلم يسبق له أن مدَّ يده في جيبي مطلقاً، لأنه لو أراد بعض النقود لشراء شيء لطلبها مني فأُعطيه.

ولكي يفهم الطفل أن عمله كان قبيحاً ومذموماً، تقول الزوجة معاتبة زوجها: ما هذا السؤال الذي تطرحه علينا؟ أهناك في هذا البيت من يرتكب مثل هذا العمل القبيح، فيأخذ نقوداً من جيب أحد؟! فيعتذر الأب ويقول: ربما تكون القطعة قد وقعت من جيبي، أو أن الفاكهاني أعطاني خمس قطع بدلًا من ست. هذا القدر من الحوار يكفي، وينبغي الخوض بعد ذلك في موضوع مختلف لإزالة اضطراب الطفل، كأن يسأل الأب أحد الحاضرين عن صحة المريض الذي عاده، ومن هو؟ وممَّ يشكو؟ وفي أيٍّ مستشفى هو؟ ويستمر الحديث حول المريض والمستشفى حتى يحين موعد الذهاب إلى النوم.

سيمر الطفل في تلك الليلة بحالة خاصة، إذ إنه سيعمل تفكيره فيما جرى، بعد أن ينام في فراشه ويسحب الغطاء على وجهه، فيفطن إلى سوء العمل الذي أتاه ذلك اليوم، ويفرح لعدم انكشاف أمره والحفاظ على كرامته، ويندم على ما فعل، ويقرر ألّا يكرِّر ذلك أبداً، لئلّا تُهدر كرامته.

وعليه، ففي حالة الطفل الذي يرتكب زلَّة لأول مرَّة، فيسرق بعض النقود خفية، يكون التغاضي والتغافل أمراً صحيحاً ومحموداً، ويكون له تأثير حسن في تربيته، وعلى الأبوين أن يتظاهرا بعدم معرفة شيء، فلا يحطِّا شخصيته، بل يُفهمانه، بصورة غير مباشرة، قبح عمله، وبهذا يساعدانه على عدم تكرار ذلك.

وفيما يتعلق بزلل الكبار وأخطائهم، فإن هناك حالات تقتضي التغافل عنها. إن ذوي النفوس العالية الكريمة يتغافلون عن بعض أخطاء الكبار لكي يحافظوا على كراماتهم، فيظهرون عدم الإطلاع على تلك الأخطاء. وهذا بذاته من مكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية.

حُكي أن بهرام الملك خرج يوماً للصيد، فانفرد عن أصحابه، فرأى صيداً فتبعه طامعاً في لحاقه حتى بَعُدَ عن عسكره. فنظر إلى راع تحت شجرة، فنزل عن فرسه ليبول. وقال للراعي: إحفظ عليَّ فرسي حتى أبول. فعمد الراعي إلى العنان ـ وكان ملبساً ذهباً كثيراً ـ فاستغفل بهرام وأخرج سكيناً فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذي عليه، فنظر بهرام نظرة إليه فرآه، فغض بصره وأطرق برأسه إلى الأرض وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته. ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه وقال للراعي: قدِّم إليَّ فرسي فإنَّه قد دخل في عينيَّ من سافي الريح، فلا أقدر على فتحهما. فقدَّمه إليه، فركب وسار إلى أن وصل عسكره، فقال لصاحب مراكبه: إن أطراف اللجام قد وهبتها فلا تتهمن بها أحداً[10].

هذا الراعي لم يكن سارقاً محترفاً، كما أن ذلك المقدار من الذهب لم يكن ذا قيمة عند بهرام. فلو أنه كان قد أظهر علمه بما فعل الرجل وأمر عند عودته بالقبض عليه، واسترجاع الذهب منه، ومعاقبته على السرقة، لكان في ذلك تصغير لشخصه، بالإضافة إلى تحطيم كرامة الراعي. ولكنه بهذا التغافل والتغاضي أخفى سرَّ الراعي، كما رفع من قيمة نفسه الإنسانية وكرم أخلاقه.

عن الإمام عليّ(ع)، قال: *«عَظِّمُوا أَقْدَارَكُمْ بِالتَّغَافُلِ عَنِ الدَّنِيِّ مِنَ الأمورِ»*[11].

إن التغافل في الوقت المناسب يُعَدُّ من جملة الصفات الأساس في الإدارة. فمن يسعى لإدارة إحدى المؤسسات إدارة جيدة، ويشجِّع موظفيه على أداء واجباتهم برغبة وحرارة، ويحافظ على هذه الحالة فيهم، لا بُّد أن يحترم شخصياتهم، وأن يتغافل أحياناً عن بعض أخطائهم.

كان أحد الأشخاص القديرين يدير قبل سنوات إحدى شركات التصدير

---

(١٠) المسطرف من كل فن مستظرف، الأبشيهي: ١١٦

(١١) تحف العقول، الحراني: ٢٢٤.

الكبرى، ذات الفروع في عدد من المدن، وكان كل سنة في موسم الشراء يحوِّل إلى كل فرع ما يحتاجه من الأموال. أُخبر هذا المدير يوماً بأن محاسب الفرع الفلاني قد استغـل مركـزه واختلس بعض الأموال المرسلة إليه لشراء البضاعة. لم يكن ذلك الفرع يبعد كثيراً عن المركز. فقرَّر المدير أن يزوره في اليوم التالي، وطلب من مدير مكتبه أن يصحبه. وفي اليوم التالي سافرا إلى تلك المدينة ووصلاها عند الضحى ودخلا على محاسب فرع الشركة مباشرة دون إخبار أحد. وعندما سأل المدير المحاسب عن الوضع المالي في فرعه، فتح هذا دفتره أمام المدير، فوجد المدير أن الموجود في المصرف يقرب من ٩٥٪ من المبلغ المحوّل إليه، بالإضافة إلى عدد من قوائم الشراء، ومبلغٍ نقدي في الصندوق. وإذ أخذ المحاسب يحسب النقود في الصندوق، قال له المدير: هذا يكفي. ثم أثنى على نشاطه وصافحه وخرج مع مدير مكتبه من الشركة.

يقول مدير المكتب: في الطريق قلت للمدير: إنَّ المبلغ الذي كان في الصندوق لم يكن يكفي لتسديد الحساب، فلو أنك تمهّلت حتى ينهي الحساب لعلمت أن رصيد الصنـدوق ناقص. فقـال المدير: لقد عرفت أن ما في الصندوق لا يكفي لتسديد الرصيد، ولكن سمعة موظف محترم في الشركة أغلى بكثير من هذا المبلغ الزهيد. إنني أوقفت عدَّ النقود لئلا ينكشف أمر المحاسب وتُهان كرامته. إنِّي ما سافرت إلاّ لأني كنت قلقاً على مصير عدة ملايين من أموال الشركة، فكنت أريد أن أتحقق من الأمر بنفسي، وأتعـرف على وضـع الفرع المالي بأسرع ما يمكن. وقد ظهر لي بمراجعة الحسابات أنه ليس هناك أيُّ اختلاس وأنَّ أموال الشركة لم يصبها ضرر. وهذا العجز البسيط في الصندوق ليس دليلًا على خيانة المحاسب، فلربما اضطر إلى استقراضه ليسدِّد مصاريف وضع حمل زوجه، أو لمرض ابنه، أو لدفع إيجار بيته. فكان لا بدَّ من التغافل عن ذلك للمحافظة على ماء وجهه، ولست أشكُّ في أنه سوف يسدِّد ما عليه في أول فرصة تتاح له، ولن يعود لمثلها بعد ذلك، ولن يخاطر بتشويه سمعته.

إن التغافل في محله المناسب ولمصلحة مهمة يعتبر في التعاليم الإسلامية من الصفات الحميدة، وقد وردت التوصيات بشأنه في الكثير من الأحاديث. وكان أئمة

الدين يطبّقون ذلك عملياً في حياتهم، فتيغاضون في الظروف المقتضية عن أخطاء الناس. وإليك جانباً من حياة الرسول الكريم(ص) يوضح ما أُشير إليه:

أشار القرآن الكريم إلى كلام المنافقين، قائلاً: إنَّ ما يفعله النبي(ص) إنّما هو في صالح الناس وخيرهم:

﴿وَمِنْهُم اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ويَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خيرٍ لَكُمْ﴾[١٢].

قيل: نزلت في جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد وشاس بن قيس ومخشى بن حمير ورفاعة بن عبدالمنذر وغيرهم قالوا ما لا ينبغي فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغ محمَّداً ما تقولون فيوقع بنا، فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإن لمحمَّداً أُذن سامعة فانزل الله الآية: وقيل: نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث وكان رجلاً ادلم أحمر العينين اسفع الخدين مشوّه الخلقة وكان ينم حديث النبي(ص) إلى المنافقين فقيل له: لا تفعل فقال: إنما محمَّد أذن من حدّثه شيئاً صدَّقه نقول ما شئنا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا[١٣].

إن الفضيلة الأخلاقية وصلاح الحياة يحملاننا على أن نحذو عملياً حذو الرسول(ص) فنتقبل أعذار الآخرين، إن صدقاً وإن كذباً. وهذا ما جاء في توصيات أئمة المسلمين.

عن علي بن الحسين(ع)، قال: «...*وَلا يَعْتَذِرُ إِلَيْكَ أَحَدٌ إِلَّا قَبِلْتَ عُذْرَهُ وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ كاذِبٌ*»[١٤].

إذا اعتذر المسيء إلينا يكون خليقاً بنا أن نعفو عنه كدليل على العظمة والفضل. وحتى لو اعتذر كَذِباً، وعلمنا أنه كاذب، فإنَّ المصلحة تقتضي أن نقبل عذره، ونغضَّ الطرف عن إساءته، لأنَّ ذلك التغافل والتغاضي قد يكون لهما تأثير حسن في المعتذر فيحمله ذلك على الوقوف عند كلمته والامتناع عن الإساءة، أو يقلّل منها، في

---

(١٢) التّوبة: ٦١.

(١٣) تفسير مجمع البيان ٥: ٤٤.

(١٤) بحار الأنوار، المجلسي ١٧: ١٥٥.

الأقل. أمّا إذا رفضنا قبول اعتذاره ووصفناه بالكذب فإنّنا لن نستفيد من كلامنا هذا شيئاً، بل قد يكون ضرره بالغاً، فيغضب المعتذر، ويأخذه العناد، فيزداد في إساءاته.

قلنا في الفصل الثاني إنّ استعمال مكارم الأخلاق يكون مع الأشخاص الذين يستحقون ذلك. فالوضيعون الذين يزيدهم العفو جرأة على ارتكاب السيّئات لا يكونون جديرين بالعفو ومكارم الأخلاق من جانب الكرماء من ذوي النفوس الرفيعة. كذلك التغافل والتغاضي، مثل مكارم الأخلاق، يجب أن يوضعا في محلهما عند من يستحقهما. فإذا أراد أحد إساءة استغلال ذلك وأوغل في ارتكاب أعماله السيئة، فلا يجوز التغافل عنه، بل يجب أن يصارح بسوء عمله، ويؤاخذ ويعاقب عليه. وهذا ما فعله الرسول الكريم (ص) بحق الحكم بن أبي العاص الذي كان من كبار المنافقين:

في سنة فتح مكة استسلم الحكم بن أبي العاص بسبب قدرة المسلمين في ذلك الوقت، ولكنه كان يؤذي الرسول بأساليب مختلفة، فبعض الأحيان كان يتجسّس على النبي ويخبر بذلك أعداءه، حيث كان يتجسس على الأماكن التي كان يقطنها الرسول الكريم(ص) مع عائلته ويسمع ما يتكلمون به، ويخبر به المنافقين بصورة سخرية واستهزاء. وبعض الأحيان كان يمشي وراء الرسول الأكرم مع جماعة من المنافقين ويسخر من مشية الرسول بتحريك رأسه ويده. وكان الرسول الأكرم عارفاً بأقوال وتصرفات الحكم بن أبي العاص وكان يغض النظر عنه، وذلك أن الرسول يأمل أن يأتي يوم يغيّر هذا الرجل فيه تصرفاته القبيحة ولكن الرسول الأكرم رأى منه عكس ذلك، حيث ازدادت جسارته على الرسول، فصمّم الرسول على تغيير أسلوبه معه.

في أحد الأيام كان الرسول عابراً فلاحظ الحكم بن أبي العاص خلفه يسخر منه بحركة رأسه ويده، وفجأة التفت الرسول الأكرم إليه وقال: «كذلك فلتكن يا حكم» فلم ينتبه الحكم بن أبي العاص لكلام الرسول فأُصيب بضربة في روحه وأعصابه واعترته الرعشة والحركات المضحكة، وقد حُكم عليه بالإقامة الجبرية بالطائف وأبعد عن المدينة[١٥].

(١٥) ناسخ التواريخ، حالات الإمام السجاد(ع) ١: ٧٣٠.

إن ما ينبغي أن نشير إليه في هذا الفصل أيضاً هو أن التغافل ليس دليلاً على عظمة نفس المتغافل، وعاملاً من عوامل إصلاح المجتمع فحسب، بل يكون أحياناً وسيلة لحلّ المشكلات وطريقاً للفوز والفلاح. والتغافل قادر على أن يحول دون وقوع الحوادث السيِّئة، ويخفِّف من الآلام والمصائب، ويزيل جانباً من غصصه، ويتيح الراحة والهدوء إلى حدٍّ ما. وبعبارة أقصر، التغافل في وقته وموضعه يعتبر في بعض الحالات من ضرورات الحياة التي يقتضيها العقل والمصلحة.

عن الإمام علي(ع)، قال: *«العَاقِلُ نِصْفُهُ احْتِمالٌ وَنِصْفُهُ تَغافُلٌ»*(١٦).

لقد كان حبُّ النبي يعقوب(ع) ليوسف شديداً، وكان يفضله في نفسه على سائر إخوته، فحسده إخوته، وأساءوا فيه الظن، وطلبوا له الشر، وراحوا يفكرون في التخلّص منه، وجرى بينهم الحوار التالي:

**﴿أقتلُوا يُوسُفَ أو اطرَحُوهُ أرضاً يَخْلُ لَكُمْ وجْهُ أبيكُمْ وتَكُونُوا منْ بعْدهِ قَوْماً صالِحِينَ * قالَ قائلٌ منْهُمْ لا تقْتلُوا يُوسُفَ وألقوْهُ في غَيابَتِ الُجبِّ يلتَقِطْهُ بعْضُ السَّيّارَةِ إنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾**(١٧).

وبعد تبادل الرأي اتّخذوا قرارهم وجاءوا إلى أبيهم وطلبوا منه أن يسمح لهم بأخذ يوسف معهم إلى الصحراء يلهو ويلعب. إلّا أنَّ يعقوب كان عارفاً بما يحملون في نفوسهم من حقد وعداء ليوسف، فلم يوافق على طلبهم لأنه أدرك أن في طلبهم ذاك يكمن القصد السيِّىء الذي سوف ينفّذونه إذا ما صحبوا الطفل معهم إلى الصحراء. ولكن الإخوة أصرُّوا وكرَّروا إصرارهم وطلبوا منه أن يبيِّن لهم سبب امتناعه:

**﴿قالُوا يَا أبانا مالَكَ لَا تَأْمَنّا على يُوسُفَ وَإنّا لَهُ لناصِحُونَ﴾**(١٨).

هذا السؤال جعل يعقوب في موقف حرج، فهو إذا لم يردَّ الجواب، ولم يبيِّن لهم

---

(١٦) غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي: ١١٧.

(١٧) يُوسف: ٩ و ١٠.

(١٨) (ن.م): ١١.

سبب عدم موافقتـه على أن يصحبـوا يوسف معهم، فسوف تؤثر لا أُباليَّته بهم في نفسيّاتهم الشابة الفتية، وقد يحدو بهم ذلك إلى دفع الاهانة بأخذ يوسف معهم من دون استجازته، ومن ثم ينفّذون فيه ما عزموا عليه. وإذا أجاب عن سؤالهم، وذكر لهم ما يجول بخاطره، ويصارحهم بأنه يخاف منهم ومن شرهم على يوسف، وأنه عالم بسوء نواياهم نحوه، وأنهم بحجّة مصاحبته بإجازة منه للترفيه عنه، سوف يؤذونه وينفّذون فيه ما دبّروه له من سوء. وفي هذه الحالة تصبح المشكلة أكبر، فإنَّ مثل هذا الجواب سيثير، دون شـك، غضب الفتية، ويزيد من سعير حقدهم وعدائهم، ويتضاعف الخطر الذي يهدد يوسف، وقد يؤدي هذا الجواب بحياة يوسف، فيحملهم على انتزاعه من أبيهم بالقوة وقتله في الصحراء.

ولكي يحل يعقوب هذه المشلكة اضطر إلى الجواب، ولكنه تغافل عمّا كان يدور في خلده وعما يعلمه عنهم، فتحدّث بلهجة خالية من كل ما يشير إلى أنه عارف بسوء قصدهم، بل أظهر أنَّ قلقه ناجم عن شيء آخر لا علاقة له بهم.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾[١٩].

في هذا الجواب لم يذكر يعقوب(ع) شيئاً عن المؤامرة الخيانية التي دبَّرها إخوة يوسف، ولم يشر بأيَّة إشارة إلى أفكارهم الخبيثة، ولكيلا يزيد في نيران حقدهم وعدائهم طرح احتمال وجود الخطر من جانب الذئاب أثناء انشغالهم بشؤونهم الخاصة، رافعاً عنهم سوء القصد حتى في هذا الخطر.

وعلى الرغم من أنَّ هذا التغافل لم يدرأ عن يوسف شرَّ إخوته، ويصونه من الأذى، إلّا أنَّه استطاع أن يخفّف من شدة المصيبة، فينجيه من خطر القتل.

كان يعيش في عصر الحجّاج بن يوسف، رجل عالم وأديب اسمه (قبعثري). كان يوماً مع رفاق له في جلسة أُنس في بعض البساتين خارج المدينة. وخلال تبادل

---

(١٩) (ن.م): ١٣.

الحديث جاء ذكر الحجّاج، فعرَّض به قبعثري في بعض كلامه كناية، مظهراً عدم رضاه عنه، فوصل هذا إلى سمع الحجّاج، فعزم على معاقبته على التعريض به. فاستحضره، وقال له محتدماً: «لأحملنَّك على الأدهم». أيّ: سأسجنك وأضع القيد في رجليك (للأدهم في العربية معانٍ كثيرة، منها: تقييد الرجلين، ومنها الفرس الأسود).

أدرك قبعثري الأديب الأريب قصد الحجّاج، وعرف أنه يهدّده بالقيد والسجن، ولكنه، لتجنّب الخطر، تغافل عن هذا المعنى، ولم يبدُ عليه أنه فهم المراد، بل أظهر أنه فهم من «الأدهم» أنه يقصد الفرس الأسود، ولذلك قال له باسماً: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب» أي إنَّ الأمير، بماله من مقام كبير وقدرة عظيمة لقادر على أن يشمل الناس بعطفه وكرمه فيرسلهم إلى أهاليهم على الخيول السود والشهب.

فقال الحجّاج توضيحاً لقوله: «أردت الحديد». وكان من باب المصادفة أن للحديد في العربية معاني متعددة، منها «القيد»، ومنها «الذكاء والفطنة». فتغافل قبعثرى مرَّة أُخرى عن المقصود الحقيقي وقال: «الحديد خير من البليد» قاصداً أنَّ الفرس الذكي خير من الفرس البليد[٢٠].

لقد قلب قبعثري، بهذا التغافل الأدبي الذي قلَّ نظيره ـ والذي مزجه بالتكريم والاحترام ـ الموقف رأساً على عقب، مما أطفأ نار غضب الحجّاج، وأنقذه من السجن والحديد، بل استجلب رضى الحجّاج وعطفه، فلم يبخل عليه بعطيته.

كان هارون الرشيد يخرج إلى الصيد وفي أحد المرَّات وصل إلى بستان معمور، فسأل لمن هذا البستان؟ قالوا: هو لرجل مجوسي، فقال: أريد هذا البستان ولا بدّ من شرائه. فقال الوزير: قد خاطبناه في هذا الأمر عدة مرَّات فلم يوافق. فقال هارون الرشيد: ما العمل حتى يصبح هذا البستان من أملاكي؟ قال الوزير: نقول له أن الخليفة نزل في بستانك ونسأله لمن هذا البستان، سوف يقول: إنه لحضرة الخليفة

(٢٠) قاموس اللغه، أُسلوب الحكيم: ٢٤٨٦.

هارون الرشيد وسوف نعتبر هذه الجملة مُستمسكاً ونعطيه المبلغ مع بعض جوائز.

وافق هارون الرشيد على ذلك، ثم نزل هارون في ذلك البستان، وبعد فترة جاء المجوسي وأدّى التحية باحترام. وعندما سأله هارون: لمن هذا البستان؟ قال: كان ملك أبي واليوم أصبح ملكي ولا أعرف غداً لمن يكون. فأثّر كلام المجوسي في نفس هارون، فقال: أنك حفظت بستانك بهذا الكلام وقد غلبتنا بالحيلة[٢١].

كان المجوسي عارفاً بالآداب والأعراف، ويعلم أنه عندما يسأل هارون الرشيد: لمن هذا البستان؟ يجب أن يقال له: إنّه لخليفة المسلمين. ولكنه تغافل عمّا يعلم، وأظهر أنه لا علم له بما جرت عليه العادة. وعلى أثر هذا التغافل المؤدب الذي جاء في محله أمكن حلّ المشكلة، واستفاد المتغافل من نتيجة تغافله الإيجابي المفيد.

التغافل هو تنحية أمرٍ ما من الوعي إلى اللّا وعي. والأمور التي يتم التغافل عنها أشبه بالرغبات المكبوتة، أو الذكريات المرّة التي طردت لسبب من الأسباب من الوعي الظاهري إلى اللّا وعي الباطني.

> «تنحية الخواطر ليست هدماً ولا تخريباً لها، بل هي طردها من الوعي، أو العقل الظاهر، إلى اللّا وعي، أو العقل الباطن. وهناك علاقة مبدئية بين التنحية واللّا وعي. بديهي أن اللّاوعي لا يتألّف كله من الأمور المنّحاة، إلّا أنّ كل الأمور المنحاة تُختزَن في اللّا وعي»[٢٢].

إن من يعرف شيئاً ويريد أن يظهر بمظهر الغافل الذي لا يعلم ذلك الشيء، عليه أن يطرد معلومته من عقله الواعي إلى عقله الباطن، أو إلى اللّا وعي، ويظل يراقبها لئلا تطفو من مكمنها على السطح، أو على لسانه أحياناً.

التنحية أو التغافل ليس من الأعمال العادية، إذ لا بدّ من أن تكون هناك قوة توالي الضغط على المرء حتى تحمله على التغافل. وهناك عوامل مثل قوانين الحكومة،

---

(٢١) جوامع الحكايات: ٣٧٤.

(٢٢) فرويد والفرويدية: ٤٥.

والسنن الاجتماعية، والأخلاق العامة، وكرامة الإنسان، ورفاهية الحياة، والعقل، والمصلحة، يمكن أن تدفع المرء إلى التغافل، وتجبره على أن ينحّي بعضاً من محتويات عقله الواعي إلى العقل الباطن.

ومدة التغافل تطول أو تقصر بحسب الموضوع الذي يواجهه الإنسان. ففي بعض الحالات يمكن للتغافل القصير الأمد أن ينجح في تأثيره ويوصل الإنسان إلى الهدف المطلوب، مثل تغافل قبعثري أمام الحجّاج، أو تغافل المجوسي أمام هارون. إلّا أن هناك حالات لا يتم النجاح فيها إلّا بتغافل طويل.

فمثلاً قد يحسُدُ شخصٌ وضيع إنساناً شريفاً كريم المحتد، ويظل سنوات طويلة يتحدَّث عنه بالسوء من ورائه ويسعى لتشويه سمعته. فإذا أراد هذا الإنسان الشريف أن يدحر حسّاده، ويحافظ على سمعته ومكانته، ينبغي له أن يسيطر على نفسه بقوة إرادته، فلا يأبه بما يقوله عنه من سوء، ويظهر نفسه وكأنّه لا علم له بتلك الأقوال، وبهذا التغافل، الذي يعتبر من الحلم ومن امتلاك النفس أفضله، يمكنه أن يدحر الحسود.

عن الإمام علي(ع)، قال: «*لَا حِلْمَ كَالتَّغَافُلِ*»[٢٣].

فإذا لم يتغافل، أو لم يستطع الاستمرار في التغافل، بل دخل مع الحسود في نزاع، وأخذ يردُّ على تهجماته بذكر ما يعرف عنه، فإنّه فضلاً عن عدم حصوله على أيّة فائدة من ذلك، يصاب بضرر بالغ، وتتفاقم مشكلاته، لأنه بعمله هذا يحطُّ من مقامه، من جهه، بوضعه نفسه في مصاف وضيع سبَّاب، ويزيد، من جهة أُخرى، من جرأة هذا الحسود على الاشتداد في إساءاته وقبيح أقواله، مما ينغِّص عليه حياته.

لا شكَّ في أن مواصلة التغافل ليست سهلة، إذ لا يتيسر من دون عزم راسخ وقرار حاسم، لأنَّ الشعور بالغضب لا يترك المتغافل وشأنه، ولا يني بضغط عليه ليردَّ على المسيء، ويضع حداً للتغاضي. وينتقم من الحسود، ويكيل له الصاع صاعين في

---

(٢٣) فهرست الغرر: ٢٩٧.

بذاءته وعدوانه. فلكي يُطفىء أوار غريزة الغضب وحبّ الانتقام، عليه أن يستعين بالعقل وبقوة الإرادة، فيبقي ما يعرفه مختفياً في عقله الباطن، ويقهر الحسود ويغلبه بالتغافل المستمر وبعدم الاهتمام به.

«يجب أن تكون التنحية متحركة، ولا ينظر إليها على أنها حدث يقع مرة وتكون له نتائج مستمرة، كمثل قتل كائن حيّ يبقى بعد ذلك جثة هامدة. الإبقاء على التنحية يتطلّب بذل جهد دائم، إذ في حالة التوقف عن بذل الجهد في الإبقاء على حالة التنحية يكون النجاح مشكوكاً فيه، ويستوجب الموقف تنحية جديدة. توالي التنحية الضغط باتجاه العقل الواعي، فيرد العقل الواعي بضغط مساوٍ معاكس ليحافظ على توازنه. لهذا، يحتاج الإبقاء على حالة التنحية إدامة بذل الجهد باستمرار»[٢٤].

يتبين من ذلك أن للتغافل الذي يكون في الوقت المناسب، سواء أكان طويل الأمد أم قصيره، دوراً مهمًا في تخفيف آلام الحياة ومنغّصاتها. فالحياة الدنيا مليئة بأنواع البلايا الطبيعية والآفات الاجتماعية، شئنا أم أبينا، وما من إنسان إلّا وقد أصابته في سنوات حياته المصائب المتنوعة، قليلة أو كثيرة. فمن يكن ضعيف المعنويات وضيّق الصدر يكن تألمه شديداً عند إصابته بحادث أليم، فيفقد قوة احتماله، ويولي الأمر من الاهتمام أكثر مما ينبغي، ويضخّم المصيبة بالاستمرار في ما يوحيه إلى نفسه بتذكرها، فيزداد بذلك قلقه وألمه. أمّا الإنسان القويُّ الواسع الصدر، فإنه إذا نزلت به نازلة مؤلمة، يفكر فيها بتعقّل ليرى إن كان يستطيع دفعها والنجاة منها، وإن لم يستطع فإنه يحاول أن يتغافل عنها ليقلّل من شدة ألمها ويتناساها شيئاً فشيئاً.

«يقول (ديل كارينجي): إنّنا لسنا نملك تلك الأخلاق السليمة والروح الطاهرة التي يتّسم بها الأنبياء لكي نستطيع أن نحبَّ أعداءنا. ولكننا في سبيل سلامتنا وراحتنا يجب أن نغفر لهم ونتناساهم. فإذا أساء إليك أحد، أو سرق

(٢٤) فرويد والفرويدية: ٤٦.

مالك، فلا أهمية لذلك، ولكن عدم نسيانك ذلك وتذكُّره دائماً هو الذي يقلق بالك وينغِّص حياتك»[٢٥].

إن المحافظة على هدوء الفكر وراحة البال والتعقّل ومراعاة المصلحة تقتضينا في بعض الأحيان أن نتغافل، وأن نخفف من عبء الحياة الذي لا يطاق، وأن نقلِّل من ضغط المنغِّصات غير المحتمل. إن الذين لا يتغافلون ولا يريدون التغاضي عن بعض السيِّئات يكونون دائماً في عذاب وألم، ويقضون أعمارهم ساخطين غاضبين، وتتصرّم أيّامهم عابسة مريرة.

عن الإمام علي(ع)،قال: «*مَنْ لَمْ يَتَغَافَلْ وَلَا يُغُضُّ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الأُمورِ تَنَغَّصَتْ عِيشَتُهُ*»[٢٦].

---

(٢٥) سير الحياة: ١٠٧.

(٢٦) فهرست الغرر: ٢٩٧.

## مصادر الكتاب


١ـ الآمال الجديدة (آرزوهای نو). *لرسل ـ باللغة الفارسية .*

٢ـ الاخلاق والشخصية (اخلاق وشخصيت). *لجان ديوئي ـ باللغة الفارسية .*

٣ـ اعجاز التحليل النفسي (اعجاز روان كاوى). *باللغة الفارسية .*

٤ـ الارشاد. *للشيخ المفيد .*

٥ـ اسد الغابة. *للعلامة ابن الاثير .*

٦ـ أمالي. *للشيخ الصدوق .*

٧ـ الانسان ذلك المجهول (انسان ناشناخته). *لألكسيس كارل ـ تعريب عادل شفيق .*

٨ـ بحار الانوار. *للعلامة المجلسي .*

٩ـ بلاغة علي بن الحسين.

١٠ـ تتمة المنتهى. *لأحمد ابي يعقوب .*

١١ـ تحف العقول. *للحسن بن شعبة الحراني .*

١٢ـ تفسير مجمع البحرين. *لضياء الدين الطوبجي .*

١٣ـ تفسير مجمع البيان. *للشيخ الطبرسي .*

١٤ـ تفسير نور الثقلين. *للشيخ عبد علي الحويزي .*

١٥ـ تناقضاتنا الداخلية (تضادهای درونی ما). *تأليف: كارن هورناي باللغة الفارسية .*

١٦ـ الجاهلية والاسلام (جاهليت واسلام). *باللغة الفارسية .*

١٧ـ الجعفريات.

١٨ـ جواهر الكلام. *للشيخ محمد حسن النجف .*

١٩ـ جوامع الحكايات. *لمحمد عوفي .*

٢٠ـ حياة الحيوان. *للدميري .*

٢١ـ سفينة البحار. *للشيخ عباس القمي .*

٢٢ـ سير الحكمة في اوربا (سيرت حكمت در أوربا). *تأليف: محمد علي فروغي ـ باللغة الفارسية .*

٢٣ـ السيرة النبوية. *لأبن هشام .*

٢٤ـ صحيفة اطلاعات. *الايرانية .*

٢٥ـ الصحيفة السجادية. *لأمام زين العابدين بن علي(ع) .*

٢٦ـ صحيفة كيهان. *الايرانية .*

٢٧ـ طهارة الاعراق.

٢٨ـ عقدة الحقارة. (عقدهٔ الحقارت). *تأليف مك برايد ـ باللغة الفارسية .*

٢٩ـ علم الاجتماع (جامعه شناسي). *لصاموئيل كوينك ـ باللغة الفارسية .*

٣٠ـ علم الاخلاق (علم اخلاق يا حكمت عملى). *باللغة الفارسية .*

٣١ـ علم النفس الاجتماعي (روانشناسى اجتماعى). *باللغة الفارسية .*

٣٢ـ علم النفس لفرويد (روانشناسى فرويد). *باللغة الفارسية .*

٣٣ـ غرر الحكم ودرر الكلم. *للآمدي .*

٣٤ـ فرويد ومذهب الفرويدية (فرويد وفرويدسم). *باللغة الفارسية .*

٣٥ـ فسيولوجيا (فيزيولوژى). *لكايتون ـ باللغة الفارسية .*

٣٦ـ فهرست الغرر. *باللغة الفارسية .*

٣٧ـ في التربية (در تربيت). *لرسل ـ باللغة الفارسية .*

٣٨ـ قرب الاسناد. *لأبي العباس الحميري .*

٣٩ـ قوانين الاخلاق في القرآن (دستور اخلاق در قرآن). *باللغة الفارسية .*

٤٠ـ الكافي. *للشيخ الكليني .*

٤١ـ الكامل. *لأبن الأثير .*

٤٢ـ كتاب الشهاب. *للقاضي .*

٤٣ـ كتاب فرويد. *باللغة الفارسية .*

٤٤ـ كيف تكسب الاصدقاء (آئين دوست يابى). *لديل كارينجي ـ باللغة الفارسية .*

٤٥ـ لئالي الاخبار. *لمحمد بني التوسيركاني .*

٤٦ـ لسان العرب. *للعلامة ابن منظور .*

٤٧ـ ماذا أعلم؟ الامراض الروحية والعصبية (چه مى دانم؟ بيماريهاى روحى وعصبى). *باللغة الفارسية .*

٤٨ـ ماذا أعلم؟ تربية الأطفال المشاكسين (چه مى دانم؟ تربيت اطفال دشوار). *باللغة الفارسية .*

٤٩ـ ماذا أعلم؟ نحن واطفالنا (چه مى دانم؟ ما وفرزندان ما). *باللغة الفارسية .*

٥٠ـ مباهج الفلسفة (لذات فلسفة). *لويل ديورانت ـ باللغة الفارسية .*

٥١ـ المجلة الدولية (مجله انترناشناليست). *باللغة الفارسية .*

٥٢ـ مجموعة ورام. *للشيخ الورام .*

٥٣ـ المحجة البيضاء. *للفيض الكاشاني .*

٥٤ـ مذكرات فرويد (انديشه‌هـاى فرويد). *للأستاذ الفرنسي ادكاربش ـ باللغة الفارسية .*

٥٥ـ مروج الذهب. *للمسعودي .*

٥٦ـ مستدرك الوسائل. *للمحدِّث النوري .*

٥٧ـ المستطرف في كل فنٍ مستظرف. *للأبشيهي .*

٥٨ـ مشكاة الانوار. *للشيخ علي الطبرسي .*

٥٩ـ مصير البشرية (سرنوشت بشر). *لكنت دونوئي ـ باللغة الفارسية .*

٦٠ـ معاني الاخبار. *للشيخ الصدوق .*

٦١ـ معجم البلدان.

٦٢ـ المعرفة الفلسفية للانسان (انسان شناسى فلسفى). *ترجمه الى الفارسية: الدكتور صدر النبوي .*

٦٣ـ مفاتيح الجنان. *للشيخ عباس القمي .*

٦٤ـ مقدمة على فلسفة التربية والتعليم (مقدمه اى بر فلسفه آموش وپرورش). *لجون دونوئي ـ باللغة الفارسية .*

٦٥ـ مكارم الاخلاق. *للشيخ الطبرسي .*

٦٦ـ منتخب الاثر. *باللغة الفارسية .*

٦٧ـ منهاج الصالحين.

٦٨ـ منهج الحياة وتقاليدها (راه ورسم زندگى). *تأليف: الكسيس كارل ـ ترجمه إلى الفارسية: الدكتور برويز دبيري .*

٦٩ـ موسوعة دهخدا (لغت نامه دهخدا). *ترجمة أبي العلاء المعري .*

٧٠ـ موسوعة الاسلوب الكحيم (لغت نامه اسلوب الحكيم).
٧١ـ ناسخ التواريخ. *لميرزا تقي خان سپهر.*
٧٢ـ نظرية الاسلام الاخلاقية (تئوري اخلاقي اسلام). *باللغة الفارسية.*
٧٣ـ النمو والحياة (رشد وزندگی). *تأليف: استاس شيسر ـ باللغة الفارسية.*
٧٤ـ نهج البلاغة. *للامام علي بن ابي طالب(ع).*
٧٥ـ نهج البلاغة. *شرح صبحي صالح.*
٧٦ـ نهج البلاغة. *شرح ابن ابي الحديد.*
٧٧ـ نهج الفصاحة. *للشوشتري.*
٧٨ـ وسائل الشيعة. *للحر العاملي.*

## فهرس الموضوعات


**الفصل الأول: العلماء وآراؤهم في الأخلاق** .......... ٥
رأي سقراط .......... ٦
رأي ارسطو .......... ٦
رأي ديكارت .......... ٦
نظرية عبادة الفرد .......... ٧
اتّباع الغرائز .......... ٧
حرية الشهوات .......... ٩
تزكية النّفس .......... ٩
الأنبياء ومكارم الأخلاق .......... ١١
نموذج من التربية الإسلامية .......... ١١
الهداية الربانية .......... ١٥
نظرية هيجل .......... ٢٣
نظرية كانت .......... ٢٤
رأي جون ديوي .......... ٢٦
المجتمع وسوء التمييز .......... ٢٧
خلاصة البحث .......... ٢٩
القسم الأول: كرم النفس والفضيلة .......... ٣١
القسم الثاني: دناءة النفس والرذيلة .......... ٣١
**الفصل الثاني: الأخلاق البشرية والإلهيّة** .......... ٣٣
المرحلة الأولى ـ الحياة الحيوانية .......... ٣٣
المرحلة الثانية ـ الحياة الاجتماعية .......... ٣٣
المرحلة الثالثة ـ الحياة الإنسانية .......... ٣٥
العلماء ومراحل الحياة .......... ٣٦
الضمير .......... ٣٩
طبيعة الافتراس .......... ٤٢
رأي الإسلام .......... ٤٥
هدف الأنبياء .......... ٥٤
القسم الأول: التعاون والسعي في قضاء حوائج الناس .......... ٥٥
القسم الثاني: العفو الاخلاقي والامتناع عن الانتقام .......... ٥٥

متى تستعمل مكارم الأخلاق؟ ........ ٥٨
الفئة الاولى ........ ٦٢
الفئة الثانية ........ ٦٢
الفئة الثالثة ........ ٦٣
**الفصل الثالث: الأخلاق النفعية او الإيمانية** ........ ٦٥
القسم الأول ........ ٦٥
القسم الثاني ........ ٦٥
الفعل الباطني والخارجي ........ ٦٦
معنى الإيمان ........ ٦٩
الأخلاق عند الأنانيّين ........ ٧٣
الفريق الأول ........ ٧٣
الأخلاق عند النفعيّين ........ ٧٥
الفريق الثاني ........ ٧٥
الأخلاق عند ذوي الفضائل ........ ٧٨
الفريق الثالث ........ ٧٨
اختلاف الأخلاق النفعية والإيمانيّة ........ ٨٠
تطهير الضمير ........ ٨٢
كيف يفكر النفعيون ........ ٨٦
الأخلاق النفعية والأخلاق الإلهيّة ........ ٩٠
الأخلاق والشعوب المتقدمة ........ ٩١
الشعور بالمسؤولية ........ ٩٣
**الفصل الرابع: الأخلاق الطبيعية ونظرية التكامل** ........ ٩٥
حب الآخرين وطبيعة الإنسان ........ ٩٦
الأنانيون ........ ٩٦
الأخلاق النفعية ........ ٩٧
الأخلاق والشيوعية ........ ٩٨
دفاع الشيوعيين ........ ٩٩
الحاجة وظاهرة السرقة ........ ٩٩
خطأ النظرية ........ ١٠٢

فرويد والغريزة الجنسية ........................................ ١٠٣
الشيوعيون ونظرية فرويد ........................................ ١٠٣
فرويد والشيوعيون ........................................ ١٠٥
تفنيد نظرية الشيوعيين ........................................ ١٠٥
أئمة الإسلام والأخلاق ........................................ ١٠٦
قيمة مكارم الأخلاق ........................................ ١٠٨
عالم اليوم والانحطاط الأخلاقي ........................................ ١١٠
الأخلاق في الغرب ........................................ ١١٠
الضمير الأخلاقي والغرائز الاجتماعية ........................................ ١١٣
رفض نظرية فرويد ........................................ ١١٤
الإلهيون والضمير ........................................ ١١٦
خيبة الضمير الأخلاقي ........................................ ١١٧
نظريتا الأخلاق الطبيعية ........................................ ١٢١
التكامل الطبيعي ........................................ ١٢٢
الأخلاق وعالم اليوم ........................................ ١٢٥
إقامة العدل العالمي ........................................ ١٢٦
تكامل العقول ........................................ ١٢٧
**الفصل الخامس: تشخيص الأمراض الأخلاقية ........................................ ١٢٩**
جرح السنان وجرح اللسان ........................................ ١٣٠
منشأ أمراض الفكر ........................................ ١٣٣
التغيير يكون من الداخل ........................................ ١٣٥
كيف يتم التغيير؟ ........................................ ١٣٧
**الفصل السادس: الوقاية والعلاج ........................................ ١٥٩**
الوقاية الأخلاقية للأطفال ........................................ ١٦١
غريزة حب الذات ........................................ ١٦٢
غريزة التملك ........................................ ١٦٣
غريزة العدوان والهدم ........................................ ١٦٣
غرائز أخرى ........................................ ١٦٥
خلاصة البحث ........................................ ١٦٨
جهل الإنسان بالنفس ........................................ ١٦٩

مكافحة الفساد ........................................ ١٧٣
شروط علاج الأمراض الخلقية ........................................ ١٧٦
**الفصل السابع: الآفات الطبيعية والشرور النفسية** ........................................ ١٩١
اللجوء إلى الله ........................................ ١٩٢
الدعاء ........................................ ٢٠٢
التربية الربّانية ........................................ ٢١٠
السلطنة الإلهيّة ........................................ ٢١٣
عبادة الله ........................................ ٢١٦
الانحراف عن عبادة الله ........................................ ٢١٧
**الفصل الثامن: الهجاء** ........................................ ٢٢١
معالجة العيّابين في الإسلام ........................................ ٢٢٧
من هم «الساديّون»؟ ........................................ ٢٣٠
المثال ........................................ ٢٣٩
**الفصل التاسع: النقد** ........................................ ٢٤٧
شروط النقد السليم ........................................ ٢٤٩
الصورة الاولى ........................................ ٢٥٠
الصورة الثانية ........................................ ٢٥٠
الصورة الثالثة ........................................ ٢٥٢
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ........................................ ٢٥٦
الامر الاول ........................................ ٢٥٧
الأمر الثاني ........................................ ٢٥٨
الأمر الثالث ........................................ ٢٦٠
**الفصل العاشر: التغافل** ........................................ ٢٧٥
التغافل المذموم ........................................ ٢٧٧
التغافل الممدوح ........................................ ٢٧٨
**مصادر الكتاب** ........................................ ٢٩٧
**فهرس الموضوعات** ........................................ ٣٠١